

ترجمة وتقديم: إبراهيم الدسوقي شتا



المشروع القومي للترجمة

جلال آل أحمد

الابتناء بالتقريب

ترجمة وتقديم : د. إبراهيم الدسوقي شتات

إهداء إلى

حبيبتي وزوجتي

ماجدة الحناني

مع حبي وكلّ

إبراهيم شتا

بين يدي الكتاب

لم أشأ أن أسمى هذا المدخل للكتاب مقدمة ، إنما هو مجرد تعريف للقارئ بما هو مقبل عليه ، فالكتاب برغم قدمه النسبي يتناول قضايا وموضوعات لا تزال تهم القارئ في هذا الجزء من العالم ، وكلنا في الهم شرق ، وإذا كان هذا الشرق مسلماً فالمصيبة أعظم ، كما أنني لن أقدم حياة الكاتب بالتفصيل ، لا ولا إنجازاته الأدبية ، ففضلاً عن أنها قدمت بالعربية ^(١) فإنها أيضاً لن تفيد القارئ هنا في قليل أو كثير ، فعند الحديث عن " الابتلاء بالتغرب " لا يهم أن نتحدث عن بقية أعمال جلال آل أحمد " ١٩٢٣ - ١٩٦٩ " ، في حين أن الحديث عن أى عمل من أعماله الأخرى الأدبية أو الفكرية لا بد وأن يفضى بنا إلى الحديث عن " الابتلاء بالتغرب " الذي يقف على قمة وحده ضمن الأعمال الفكرية الإيرانية التي أثارت الجدل ، وحولت الوجهة ، وطرحت قضايا كان لها أقوى الأثر في إقامة صرح الفكر الذي وقف وراء الثورة ، بحيث اعتبره باحث إيراني (حائزاً لنفس أهمية مانيفستو كارل ماركس من وجهة نظر تحديد المهام الملقاة على عاتق الدول المبتلاة بالاستعمار) ^(٢) ومن ثم فإن هذا الكتاب الصغير في حجمه ، المهم من حيث القضايا التي يطرحها ، يستعصى على العرض ، فضلاً عن صراحته المرة في الولوج إلى القضايا وتركنا في قلبها ، فلم يكن جلال آل أحمد - كما كان متوقفاً - يدعو إلى الحل الديني ، فهو واضح النبرة في الحديث عن أن الحل المطروح من أن الدين أو لنقل صراحة التشيع هو الحل البديل حل غير مقبول ، وما هو إلا هروب من التأثير بالغرب إلى تقوقع وتشرنق أشد وطأة من الانفتاح عن الغرب ، إلى جوار أن جلال آل أحمد بخلفية من انتساب مبكر إلى حزب توده الشيوعي الإيراني ، كان يرفض الممارسات الشيعية في إيران ، ويرى أن تشيع إيران وخروجها عن الشمولية الإسلامية نكبة ممتدة الأثر ، ومظهر من مظاهر الابتلاء بالتغرب ، وزاد من حدة هذه العداوة عنده تأثره الشديد بأحمد كسروي " المقتول على أيدي منظمة فدائيان إسلام سنة ١٩٤٧ " والذي كان من أوائل من انتبهوا إلى

(١) في بحث قدمته الدكتورة ماجدة العناني تحت عنوان " نون والقلم رواية إيرانية لجلال آل أحمد " مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ج ٥٧ ، العدد ٢ / ١٩٩٧ م.

(٢) رضا براهنى : قصصه نوبسى - ص ٤٦٥ - ط ٢ - تهران - أشرفى ١٣٤٨ هـ ش.

خطورة التشيع على إيران ، كما كان أيضا من أوائل من هاجموا التغرب (١) ، وحتى عندما انشق آل أحمد عن توده كون مع خليل ملكي " نيروي سوم = القوة الثالثة " ، ثم كون " زحمتكشان ايران = كاسحي ايران " قبل أن يترك الجناح اليساري كله بعد افتضاحه المخزي في أزمة مصدق ، ومع ذلك فإن جلال آل أحمد لا يعتبر مفكرا إسلاميا ، وبالرغم من إعلانه لإيمانه بأن " الإسلام " وليس التشيع هو السد الممكن أمام الاجتياح الغربي والإلحاق متعدد الجهات ، إلا أنه لا يزال يعتبر في إيران الحالية من مفكري اليسار ، فهو لا يقبل الحل الإسلامي نون قيد أو شرط ، ولا يقبل أيضا ما يطرح باسم الإسلام ، سواء في موطنه الشيعي ، أو في قلب العالم السني (٢) وينظر إلى الممارسات الشيعية نظرة فيها الكثير من الشك والسخرية .

في هذا الحيز الضيق للكتاب الذي بين أيدينا ، تناول جلال آل أحمد موضوعين رئيسيين : جنود التغرب أو الاتجاه إلى الغرب منذ أقدم العصور وحتى الوصول إلى بداية تغرب إيران الحقيقي في العصر الصفوي ، وآثار هذا التغرب الممتدة إلى كافة جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، تلك الآثار المتغلطة التي يزيد بها المفكرون المتغربون تغلطا ، ويزيدون في تأثيرها المشؤم ، ويمضون بآمتهم إلى مزيد من فقدان الهوية والضياع المطلق .

وعندما يتناول آل أحمد هذه القضايا ، لا يتناولها من موقف الفكر المشاهد المحايد ، بل من موقف المتألم المهتم ، فيزيدها عرضة الساخر المتألم حياة فوق

(١) في كتابه "اروپاييگری = الأوربية " الذي صدر سنة ١٣١١ هـ ش. ١٩٣٢ والذي على طول ما بحث عنه لم أجده ، كما لم أجد كل كتب كسروي التي تهاجم التشيع والتصوف ، وإن كان قد قدم لي عرضا لا بأس به لمحتوياته المقال الذي كتبه حجت الله اصييل ، نشر في مجلة نكين " شماره ١٢٠ - شماره مخصوص نوروز ١٣٥٥ - صص ٢٧-٢٩ - تحت عنوان كسروي ومسأله شرق وغرب .

(٢) خير تعبير عن هذا الجانب من فكر آل أحمد ورد في مذكرات حجه الذي قام به سنة ١٩٦٤ ونشرت تحت عنوان " خسي در ميقات " سنة ١٩٦٨ وهي ميسرة لمن لا يعرفون الفارسية في ترجمة إنجليزية قام بها جون جرين ونشرت تحت عنوان " .

حياة ، وتشمل نظرتة الثاقبة كل جوانب الحياة وزواياها ، فيمنح قضاياها الصماء حياة مفعمة بالنشاط ، ويتجلى كمتنرد يعتبر امتدادا لتيار المتنرد الفكري في تاريخ إيران (١) .

وبعد فلست أريد أن أخوض في الكتاب ، فهو بين أيديكم على كل حال ، ومما يؤسفني حقا أن تتأخر الترجمة العربية عن الترجمة الإنجليزية (٢) بما يزيد عن خمس عشرة سنة ، لكن النص مع ذلك لا يزال حيا ، وكل قضاياها مطروحة ، أرجو أن تفجر في أفقنا ما فجرته من مناقشات في كل مكان عرضت فيه . والله من وراء القصد .

دكتور / إبراهيم الدسوقي شتا
أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية
كلية الآداب - جامعة القاهرة
نوفمبر ١٩٩٧

(١) في كتابه "ر خدمت وحيانت روشنفران = خدمة المفكرين وحيانتهم" والذي صدر سنة ١٩٧٧ وبعد وفاته ، والذي اعتبره بعضهم بسطا لقضايا الابتلاء بالغرب ، وهو ليس كذلك ، عرض جنود العصيان الفكري في إيران منذ أقدم العصور وحتى العصر الحديث . صص ١٥٢-١٩٥ من الكتاب .

(٢) صدرت الترجمة الإنجليزية تحت عنوان :

Paul Sparchman ,Plagued by the West ,Delmar ,N.Y., Caravan Books, 1982.

بسم الله الرحمن الرحيم
على سبيل التقديم

١ - ستة عشر طنا

أتيت إلى الدنيا ذات صباح لم تطلع له شمس
حملت فأسى ، وذهبت إلى المنجم ، وأنتجت ستة عشر طنا من الفحم ، من
الدرجة التاسعة

وقال لى رئيسى المباشـر : أحسنت . فسعدت جدا .
إنك تنتج ستة عشر طنا ، وكل ما لديك فى مقابلها .
أنتك ذات يوم سوف تزداد تقدما فى العمر ، وستزداد غوصا حتى حلقك فى
الدين

أه يا بطرس المقدس ! فلتطل على أرواحنا
تلك التى أودعناها مخزن الشـركـة .

عندما ترونى قائما ، تنحوا عن طريقى .
كثيرون لم يفعلوا هذا الأمر ، وماتوا .
فأحدى قبضتى حديد ، والأخرى فولاذ
وإن لم تطلق قبضتى اليمنى ، طالتكم اليسرى .
ويعتقد بعضهم أن الإنسان خلق من طين
لكن الفقير مجنون أيضا
فقد خلق من العضلات والدم
من العضلات والدم والجلد والعظام
ومن مخ ضعيف ، وظهر قوى .

إنك تنتج ستة عشر طنا ، وكل ما لديك فى مقابلها
أنتك ذات يوم سوف تزداد تقدما فى العمر ، وستزداد غرقا حتى حلقك فى الدين

آه .. يا بطرس المقدس ، لا تدعنا إلى الموت
فنحن لا نستطيع المجيء
إذ أودعنا أرواحنا مخزن الشركة .
الكلمات لميرل ترافيس ، والغناء لإرنى فورد
نقلا عن إسطوانة ٣٣ ألفة إنتاج كاييمول ريكوردر
أمريكا " مع الشكر لبتى توكلى التى نقلت
لى كلمات الإسطوانة .

٢- قبل المخل

ما سوف نقرأونه بين دفتي هذا الكتاب ، قدم أول ما قدم في صورة تقرير إلى " مجلس الهدف من التعليم في إيران " في جلستين من الجلسات المتعددة التي عقدها المجلس المذكور ، إحداهما يوم الأربعاء ٨ أفرسنة ١٣٤٠ (١٩٦١) والأخرى يوم الأربعاء ٢٧ ديماء سنة ١٣٤٠ ، وقد نشرت مجموعة تقارير أعضاء ذلك المجلس في بهمن سنة ١٣٤٠ من قبل وزارة المعارف ، لكن لم يكن هناك قط موضع لهذا التقرير في تلك الصفحات ، فلم يروه جديرا بهذا ، ولم يروا نشره ممكنا ، ولم يحن الأوان بعد لأن تقوم إحدى إدارات وزارة الثقافة بنشر هذا التقرير رسميا ، بالرغم من أن الأوان كان قد حان لأن يتحمل الأعضاء المحترمون لذلك المجلس عبء سماعه .

ومن ثم لم يكن هناك بد من أن يبقى هذا التقرير بلا نشر ، ووصلت نسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة إلى يد هذا وذاك من الأصدقاء والأفاضل ، فقاموا بفحصه ، وأبدوا بعض الملاحظات بهدف تهذيبه ، ومن بين هؤلاء الأفاضل الدكتور محمود هومن الذي أوصاني كثيرا بقراءة أحد أعمال " ارنست يونجر " الألماني ويسمى " تجاوز الخط " ، وهو مبحث في العدمية ، وهذا - على حد قوله - لأن كلينا نظر إلى موضوع واحد إلى حد ما ، لكن من وجهتي نظر مختلفتين ، وأنتا تحدثنا عن موضوع واحد بلغتين . ولأنني لم أكن أعرف اللغة الألمانية فقد لازمته شخصا ، وعلى مدى ثلاثة أشهر ، ويمعدل مرتين على الأقل كل أسبوع ، كل منها لثلاث ساعات على الأقل ، واستفدت من محضره ، وتعلمت عليه ، وكانت النتيجة أن تمت ترجمة " تجاوز الخط " إملاءً منه ، وتحريرا مني .

وكان في خلال هذه المعمة أن صدر كتاب الشهر عن جريدة " كيهان " أوائل سنة ١٣٤١ (١٩٦٢) محتويا على الفصل الأول من تجاوز الخط ، والثالث الأول من " الابتلاء بالتغرب " ، وهذا الثالث الأول أدى بكتاب الشهر إلى التوقف ، وانتهى أمره إلى أن ألقى ببذرة " الابتلاء بالتغرب " وانقلب إلى " كيهان الشهرية " التي لم تصدر بدورها سوى عدد واحد .

لكنني نشرت نص " الابتلاء بالتغرب " مستقلا وفي ألف نسخة في شهر مهر

سنة ١٢٤١، وهو نفس هذا النص الذي بين أيدينا بزيادات فى بعض المواضع ، وحذف فى مواضع أخرى وبإعادة النظر فى بعض الأحكام والآراء كما أنكر هنا أنني أخذت هذا المصطلح أى " الابتلاء بالتغرب " من التعبيرات الشفوية لأستاذ آخر لى هو " أحمد فريد " وكان أحد المشاركين فى " مجلس هدف التعليم " ذاك ، وإذا كانت قد تمت فى تلك الجلسات بعض المناقشات ، فقد كانت واحدة منها بينى وبينه وكانت لديه هو الآخر أقوال وآراء تحت نفس هذا العنوان وهى جديرة بالسماع إلى حد كبير ، وكنت أملا فى أن يجرأ قلمه على كتابتها .

والآن قد صار متن هذه الطبعة الثانية شيئاً ينكر ، وهى مفصلة قليلا عن الطبعة الأولى التى كتبتها أواخر سنة ١٢٤٢ لطبعها طبعة ثانية فى نسخ عديدة وبالقلم الجيبى والتى صودرت وهى تحت الطبع ، وأقلست دار النشر التى كانت تقوم بطبعها وهى " بنگاه جاويد " . فسود الله وجهى . لكن هل يصح القعود ؟ أبدا .. وكان أن كتبت من جديد فى فروردین سنة ١٢٤٣ وأرسلته إلى أوربا بهدف نشره على أيدى الشباب من طلاب الجامعات المقيمين فى تلك الديار ، وهو ما لم يحدث ، وكان أن عادت البضاعة الفاسدة إلى صاحبها كما ترون برغم كل التهذيب والتعديل الذى تعرضت له ، واعدرونى أن لم يكن لدى الصبر على كتابتها من جديد ، ولو كنت فعلت ، لكان أمامكم الآن عملٌ جديد . لكن فى خلال هذه الفترة طبع عدة مرات فى طهران ومرة فى كاليفورنيا طبعة مصورة عن نفس ذلك النص الأول وبشكل سرى ، ويون إنن من المؤلف " رحمه الله " !! ويا لها من أموال طائلة دفعها عباد الله هدرا فى شرائها ، وسلم الله الرقابة التى تسلب حق نشر عمل ما من مؤلفه ، وتعطيه بهذا عمليا لآخرين لديهم الشجاعة ويجدون السوق ، ومن السفرة الممتدة ، يجدون فحسب رائحة المسك !! وعلى هذا النسق ، كان أكثر ربود الأفعال التى حدثت حول هذه الأباطيل أشبه كثيرا بالضجيج منها بالكلام ، وجعلت إسما ما مشهورا بين العباد أكثر من أن تثبت حقا ، لكن أحاد النقاد الذين انتصحت بكتاباتهم ، وراعت النقاط الصحيحة فى نقدهم ، فقد استيقظوا من نومهم متأخرين بحيث صدقت أن هذا الكتاب قد استيقظ ، وصدقت أن هذه الصفحات المضطربة صارت جديرة - على خلاف انتظار صاحبها - بأن تكون بعد ست أو سبع سنوات من كتابتها جديرة بالنقاش !! وكنت أظن أنا نفسى أنها مجرد جدل حول قضية مثارة لمدة يوم ، وأنها

ماتت على الأكثر بعد سنة أو سنتين ، لكنكم ترون أن الألم لا يزال موجودا فى الجوارح ، وأن المرض يزيد فى نطاق عدواه يوما بعد يوم ، ومن هنا فرغم كل هذه الأحكام والآراء والتفسيرات المتسارعة التى يحتوى عليها ، رضيت بنشره مرة أخرى ، وعفوا إذا كان بعد مروره على كل هذا التهذيب ، لا يزال قلما وقحا ، كما أمل أن تحفظوه من تناول خناسى العصر ، وهم إخوان الشياطين .

٣- تشخيص مرض ما

أقول " الابتلاء بمرض التغرب " مثل الابتلاء بالوباء . وإذا لم يوافق التعبير الذوق ، أقول كالتعرض للفحة حر أو نزلة برد ، لكن لا ، إنه على الأقل شيء أشبه بمرض التقدم فى العمر ، هل رأيت كيف يتعفن القمح ؟ من الداخل ، يكون القشر سليما وفى مكانه ، لكنه قشر فحسب ، نفس الجلد الذى يبقى من الفراشة على شجرة . على كل حال ، فالحديث عن مرض ما ، عارض جاء من الخارج ، واستفحل فى بيئة مستعدة للمرض ، فلنبحث إذن عن خصائص هذا المرض وسببه أو أسبابه ، وسبل علاجه إن كانت هناك استطاعة .

ولهذا الابتلاء بالتغرب طرفان ، أحدهما الغرب ، والآخر نحن الذين أصبنا بالتغرب . ونحن أى قسم من الشرق . وبدلا من الطرفين ، لنقل قطبين أو نهايتين لأن الحديث على الأقل عن نهايتين لمدج واحد إن لم يكن عن ناحيتين من العالم . ولنضع بدلا من الغرب وإلى حد ما كل أوربا وروسيا السوفيتية وكل أمريكا الشمالية ، أو لنضع الدول المتمدينة أو الراقية أو الدول الصناعية ، أو كل الدول القادرة بمساعدة الآلة إلى تحويل المواد الخام إلى أشكال أكثر تعقيدا وعرضها فى الأسواق كبضائع ، وهذه المواد الخام ليست فحسب حجر الحديد أو النفط أو النحاس أو القطن وصمغ الكثيراء بل والأساطير أيضا وأصول العقائد والموسيقى أيضا والعوالم العلوية .

وبدلا من أن نقول نحن ، ونحن جزء من القطب الآخر ، لنقل آسيا وأفريقيا ، أو الدول النامية أو المتأخرة ، أو الدول غير الصناعية أو مجموعة الدول التى جعلت مستهلكة لمصنوعات الغرب ، تلك المصنوعات التى ذهبت موادها الخام - التى نكرتها - من نفس هذه الناحية من العالم أى من الدول النامية : النفط من سواحل الخليج والكتان والتوابل من الهند والغاز من افريقيا ، والحرير والأفيون من الصين ، وعلم الإنسان من جزر المحيط ، وعلم الاجتماع من أفريقيا ، وهذان العلمان الأخيران من أمريكا الجنوبية أيضا ومن قبائل الأزتيك والأنكا التى أبيت تماما نتيجة لدخول المسيحية ، على كل حال كل شيء من مكان ، ونحن من بينها ، لدينا نقاط مشتركة مع هذه المجموعة الأخيرة ، أكثر مما لنا من تميز وفروق .

وليس فى طاقة هذه الأوراق أن تقدم تعريفًا لهذين القطبين أو تلك النهايتين من وجهة نظر الإقتصاد أو السياسة أو علم الاجتماع أو الحضارة ، فهو أمر دقيق وفى وسع أهل التخصص ، لكن سوف ترون أننا سوف نستعين مرغمين وبين الحين والآخر بالأصول العامة لكل هذه الميادين ، النقطة الوحيدة التى يمكن أن نوردها هنا ، أنه انطلاقًا من هذا المفهوم ، لم يعد الشرق والغرب مفهوميين جغرافيين بعد ، فبالنسبة لأوربي أو أمريكي يعنى الغرب أوربا وأمريكا ، ويعنى الشرق روسيا السوفيتية والصين ودول شرق أوربا ، أما بالنسبة لى لا معنى سياسى هناك للشرق والغرب ولا معنى جغرافى بل هما عندى مفهومان إقتصاديان ، فالغرب يعنى الدول الشبعية والشرق يعنى الدول الجائعة ، وفى رأى أن جنوب أفريقيا قطعة من الغرب ، بالرغم من أنها تقع أقصى جنوب القارة الأفريقية ، وأغلب دول أمريكا اللاتينية قطعة من الشرق ، بالرغم من أنها تقع فى نصف الكرة الغربى . على كل حال فمن الصواب أن نسأل عن الخصائص الدقيقة لزلازل ما من جهاز قياس الزلازل التابع للجامعة ، لكن قبل أن يسجل جهاز قياس الزلازل شيئًا ، يكون جواد الفلاح وإن لم يكن أصيلا قد هرب واتجه إلى خلاء الأمان ، ويريد صاحب هذا القلم ، على الأقل بحاسة شم أكثر حدة مما لدى كلب الراعى ، ورؤية أكثر بعدا مما لدى غراب ، أن يرى شيئًا مر به الآخرون مغمضى العيون ، أو لم يروا فى عرضه نفعا لمعاشهم أو لمعادهم .

ومن ثم لأقم بتعريف دول المجموعة الأولى بهذه السمات العامة : أجر مرتفع ، ومعدل وفيات منخفض ومعدل مواليد منخفض وخدمات اجتماعية منظمة وكفاية فى المواد الغذائية " على الأقل ثلاثة آلاف سعر حرارى فى اليوم " وبخل عام أكثر من ثلاثة آلاف تومان فى العام ، وجوولون من الديموقراطية مع تراث من الثورة الفرنسية . كما أعرف دول المجموعة الثانية بهذه السمات وعلى نفس الترتيب والنسق : أجر منخفض ومعدل وفيات مرتفع ومعدل مواليد أكثر ارتفاعا وخدمات اجتماعية منعدمة أو تقليدية وفق فى التغذية " على الأكثر ألف سعر حرارى فى اليوم " وبخل أقل من خمسمائة تومان فى العام ولا خبر عن الديموقراطية مع ميراث من العهد الأول للإستعمار .

ومن الواضح أننا من هذه المجموعة الثانية ، من مجموعة الدول الجائعة ، والمجموعة الأولى كلها من الدول الشيعي ، بتعبير خوزيه دي كاسترو في كتابه "جغرافية الجوع" ترون أنه لا يوجد فحسب بين هاتين النهايتين مسافة شاسعة بل - على حد قول تيبور مندو - فجوة غير قابلة للملا تزداد عمقا واتساعا يوما بعد يوم ، بحيث صارت الثروة والفقر والقوة والعجز والعلم والجهل والعمران والخراب والمدنية والبربرية في العالم قطبين متناظرين ، أحدهما تحت سيطرة الشيعين والأغنياء والأقوياء والصناع ومصدرى المصنوعات ، والقطب الآخر للجيا ع الفقراء العجزة المستهلكين المستوردين . وزخم التكامل في تلك الناحية من العالم تصاعدي ، أما نبض الركود في هذه الناحية من العالم فمتجه إلى الإنطفاء ، ليس اختلافا ناتجا عن تباعد الزمان والمكان ، أو قابل للتقييم بميزان الكم ، بل اختلاف من ناحية الكيف . هما قطبان متباعدان كلاهما يختار البعد عن الآخر ، في تلك الناحية من العالم التي باتت تخشى من حركتها ، وفي هذه الناحية من العالم التي لم تجد بعد مجالا لترشيد حركاتها المتنافرة المبعثرة التي تضيق في المجارى ، وكل من هذين العالمين متحرك في ناحية ما . (١)

ومن هنا فقد مضى ذلك الزمان الذي كنا نقسم العالم فيه إلى كتلتين : كتلتى الشرق والغرب أو الشيوعية وغير الشيوعية ، بالرغم من أن المادة الأولى من دساتير أغلب حكومات العالم لا تزال تمثل الخدعة الكبرى في القرن العشرين ، لكن الغزل الذي تتبادله أمريكا وروسيا " الزعيمتان بلا منازع المعترف بهما لهاتين الكتلتين " في قضيتى قناة السويس وكوبا ، دل على أن صاحبي القريتين المتجاورتين يجلسان معا في سلام حول مائدة واحدة ، ويعدا معااهدة منع التجارب النووية والقضايا الأخرى ، ومن هنا فإن عصرنا -علاوة على أنه لم يعد عصر المواجهة بين الطبقات الغنية والفقيرة داخل الحدود أو عصر الثورات الوطنية ، لم يعد أيضا عصر المواجهة بين المذاهب والأيديولوجيات ، فتحت غطاء أية مصيبة أو انقلاب عسكري أو ثورة في زنجبار أو سورية أو اورجواي ، ينبغي أن نلمح ما الذى يختفى وراءها من مؤامرة لأية شركة استعمارية والحكومة التي تظاهرها ،

(١) نقل بتصرف عن " جهانى ميان ترس واميد = عالم بين الخوف والرجاء " لتيبور مندو ترجمة خليل ملكى تهران، ١٣٢٩

وأيضاً لا يصح في عصرنا أن نصنف الحروب الأهلية بأنها حروب آراء مختلفة حتى في ظاهر الأمر ، ففي هذه الأيام - حتى طفل الكتاب - لا يرى فحسب تحت غطاء الحرب العالمية الثانية الرغبة التوسعية للمنتجات الصناعية الميكانيكية لطرفي الصراع ، بل ينظر في أحداث كوبا والكونغو وقناة السويس أو الجزائر أيضاً وعلى الترتيب إلى مشاجرات السكر والماس والنفط ، أو في مذابح قبرص وزنجبار وعدن وفيتنام إلى الحصول على رأس جسر للمحافظة على طرق التجارة المحددة في المقام الأول لسياسة الحكومات .

لم يعد عصرنا بعد هو ذلك العصر الذي يُخوف فيه الناس في الغرب من الشيوعية وفي الشرق من البورجوازية والليبرالية ، والآن يستطيع حتى ملوك الدول أن يكونوا ثوريين ، وأن يتحدثوا بأحاديث ذات خبيء ، ويستطيع خروشوف أن يشتري القمح من أمريكا ، والآن صارت كل هذه الأيديولوجيات طرقاً إلى العرش الأعلى للميكنة والآلة . وأهم ما في هذا المجال هو انحراف البوصلة السياسية لليساريين والمتظاهرين باليسارية في كل العالم نحو الشرق الأقصى ، ويتسعين درجة عرجوا من موسكو إلى بكين ، وذلك لأن روسيا السوفيتية لم تعد " زعيمة الثورة العالمية " بعد ، لكنها على رأس مائدة أصحاب الصواريخ النووية من الدرجة الأولى ، وهناك ما بين قصر الكرملين في موسكو والبيت الأبيض في واشنطن خط تليفوني مباشر ، بحيث لا تكون هناك حاجة لوساطة الإنجليز بينهما ، ومسألة أن خطر روسيا السوفيتية قد انحسر أمر فهمه حتى أرباب السلطة عندنا ، والمرعى الذي لا تزال روسيا السوفيتية ترعى فيه هو بقية المائدة الملعونة للحرب العالمية الأولى ، الآن هو عصر القضاء على الستالينية ، وفاجأنا راديو موسكو بأنه مؤيد لاستفتاء السادس من بهمن^(١) وعلى كل حال ، حلت الصين الشيوعية محل روسيا السوفيتية الآن ، وذلك لأنها تماماً كما كانت روسيا سنة ١٩٢٠ تدعو جوعى العالم الآن إلى الإتحاد أملاً في الوصول إلى جنة الغد ، وإذا كان تعداد روسيا في ذلك الزمان نيفاً ومائة مليون ، فإن تعداد الصين الآن سبعمائة وخمسين مليوناً .

(١) المقصود ما أطلق عليه الشاه الثورة البيضاء . لمعلومات أكثر أنظر : الثورة الإيرانية - الجنود والأيديولوجية للمترجم صص : ٢٦٢-٢٦٥ والجزء الثاني صص ٢١-٢٢٠ المترجم .

حقيقة أننا الآن كما يقول ماركس لدينا عالمان فى صراع ، لكن هذين العالمين قد وجدا حدودا أكثر اتساعا بكثير مما كان فى زمانه ، والصراع بينهما نوسمات أكثر تعقيدا من الصراع بين العامل ورب العمل ، فعالمنا هو عالم المواجهة بين الأغنياء والفقراء فى ساحة العالم الواسعة ، فعصرنا هو عصر عالمين : أحدهما متجه إلى صناعة الآلة واستخدامها وتصديرها ، والآخر متجه إلى استهلاكها وفسادها واستيرادها ، أحدهما صانع والآخر مستهلك . وما هى ساحة هذا الصراع ؟ العالم بأكمله ، أما أسلحته فعلاوة على الدبابات وقاذفات القنابل وقاذفات الصواريخ التى هى فى حد ذاتها من مصنوعات عالم الغرب ، هناك اليونسكو وال "F.A.O." و "A.K.F." وبقية المؤسسات التى يطلق عليها تولىة ، والتى تبدو فى الظاهر جماعية وعالمية ، لكنها فى واقع الأمر حيل غربية تذهب فى رداء جديد إلى استعمار ذلك العالم الثانى فى أمريكا الجنوبية وآسيا وأفريقيا ، وأساس تغرب كل الشعوب غير الغربية يكمن هنا . وليست المناقشة هنا حول رفض الآلة أو ردها ، كما كان أنصار اليوتبيين أوائل القرن التاسع عشر يتخيلون . مطلقا ، فإن سيطرة الآلة على العالم حتمية تاريخية . النقاش حول أسلوب التعامل مع الآلة والتكنولوجيا .

النقاش هو حول أننا نحن الدول النامية - سكان نول المجموعة الثانية - لسنا من صناع الآلة ، لكن بحتمية الاقتصاد والسياسة وتلك المواجهة بين عالم الفقر وعالم الثروة من الواجب أن نكون مستهلكين مؤدبين ومطيعين لمصنوعات الغرب أو على الأكثر نكون مصلحين لها قانعين مستسلمين ضعاف الأجور (١) ، وهذا يستلزم منا أن نجعل أنفسنا " على مقاس " الآلة وكذلك تكون حكوماتنا وثقافتنا وحياتنا اليومية ، وكل شيء عندنا بقدر حجم الآلة وطولها ، وإذا كان ذلك الجانب يصنع الآلة ، فقد اعتاد بالتدريج وطبقا للتطور التدريجى الذى استمر مائتى عام أو ثلاثمائة عام على هذا الإله الجديد وجنته وجحيمه ، فماذا يقول الكويتى الذى حصل على الآلة بالأمس أو الكونغولى أو أنا الإيراني ؟! بأى شكل نريد أن نعبر هذه الفجوة التاريخية ذات الثلاثمائة عام ؟ لنترك

(١) أو مجمعين لمفرداتها توفيراً لنقل المواد الخام واستغلالاً للأيدى العاملة الرخيصة ، ولكى يُنعم علينا بقلب النمر . المترجم .

الآخرين ولنتناول أنفسنا . الموضوع الأصلي لهذا الكتاب هو أننا لم نستطع أن نحافظ على شخصيتنا الثقافية التاريخية في مواجهة الآلة وهجومها الحتمي ، لكننا أصبنا بالإضمحلال ^(١) الحديث حول أننا لم نتخذ موقفا محسوبا ومرتزنا في مواجهة غول العصور الحديثة هذا ، والموضوع هو أننا ما لم ندرك ماهية الحضارة الغربية وأساسها وفلسفتها ، وأخذنا نقلد الغرب شكلا وفي الظاهر باستهلاك الآلة ، فإننا نشبه تماما ذلك الحمار الذي دخل في إهاب أسد ، وقد رأينا ماذا حدث له ، وإذا كان ذلك الذي صنع الآلة يرتفع صراخه الآن ويحس بالإختناق ، فنحن لا نشكو أبدا حتى من أننا دخلنا في زى خادم الآلة ، بل ونتبجح ، على كل حال ، لنا مائتا سنة ونحن كالغرباء نقلد القطا " إذا كان من المسلم به من هو الغرباء ومن هو القطا " ومن كل ما ذكرت نحصل على إحدى البدهيات هي أننا ما دمنا مستهلكين فحسب وما دمنا لم نصنع الآلة ، فنحن متغريون ، ومن الطريف أننا إذا صنعنا الآلة ، فسوف نصير مبتلين بمرض الآلة ، تماما كالغرب الذي يرتفع صراخه من التكنولوجيا والآلة . ^(٢)

دعنا من هذا ، فليست لدينا الكفاءة لأن نكون مثل اليابان التي اهتمت منذ مائة عام بمعرفة الآلة ، وعندما نافست الغرب في الابتلاء بالآلة ، وهزمت القياصرة " سنة ١٩٠٥ " وأمريكا " سنة ١٩٤١ " ومن قبل استولت على أسواقهم من أيديهم ، قمعوها في النهاية بالقنبلة الذرية حتى تعلم أن هناك رعدة وأى رعدة بعد أكل الخربوزك ، والآن وقد بسطت يول الغرب الحرة جانبا من مائدة أسواق العالم الحافلة أمام بضائعها ، فبسبب أنها تستثمر أموالها في كل الصناعات اليابانية ، وأيضا بهدف تعويض النفقات العسكرية اللازمة للمحافظة على هذه الجزيرة التي تعقل رجالها بعد الحرب العالمية الثانية ، وتجاهلوا أمور الجيش والتسليح والتكتلات العسكرية ، وربما أيضا لكي تخلص الإنسان الأمريكي العادي من عذاب الضمير الذي

(١) النموذج العيني لهذه القضية ذكرته في كتابي " جزيرة خارك " من انتشارات دانس - تهران - ١٣٣٩ .

(٢) كنموذج إرجع إلى : France contre les Robots تأليف الكاتب الفرنسي جورج برنانوس .

سببه جنون طيار (١) تلك الطائرة الجهنمية الذي أعاد قصة عاد وثمود في هيروشيما ونجازاكي .

والدينا بدهية أخرى ، وهي أن الغرب عندما سمانا " من السواحل الشرقية للبحر المتوسط وحتى الهند " بالشرق ، كان ذلك عندما استيقظ من بياته الشتوى فى العصور الوسطى ، ويحثا عن الشمس والتوابل والحريز والبضائع الأخرى ، جاء إلى الشرق بداية فى زى حجاج الأماكن المقدسة المسيحية " بيت لحم والناصره الخ " ثم فى سلاح الحروب الصليبية ، ثم فى رداء التجار ، ثم فى حماية مدافع السفن المليئة ببضائعه ، ثم باسم مبشر بالمسيحية ، وفى النهاية باسم داعية مدنية وحضارة ، وهذه الأخيرة إسم صحيح سقط لهم من السماء ، فالاستعمار فى النهاية من مادة " العمران " والذي يقوم بالعمران لابد له من أن يتعامل مع مدنية .

والمهم أنه من بين كل تلك الأراضى التى اجتاحتها كل هؤلاء السادة واستولوا عليها ونهبوها ، كانت افريقيا أكثر قابلية ، وأكثر بعثا على الأمل ، هل تعلمون لماذا ؟ لأنه إلى جوار المواد الخام التى كانت تملكها " وهى كثيرة : الذهب والماس والنحاس والعاج ومواد خام أخرى كثيرة " ، لم يكن سكانها يخطون على أرضية حضارية أو دينية ممتدة قط ، كان لكل قبيلة آلهتها الخاصة ورئيسها وتقاليدها ولغتها ، وباله من تشتت وتبعثر وباله من فرقة ، ولا محيص لها من قبول السلطة ، وأهم من هذا كله أن المحليين فى أفريقيا كانوا يتجولون عراة ، وعندما عاد استأنلى السائح الإنجليزي المحب للبشر نسبيا إلى وطنه بهذه البشارة فى النهاية من الكونغو إلى وطنه ، أقاموا الاحتفالات فى مانشستر ، ولهجوا بالدعاء ، وفى نهاية العام أرسلوا إلى كل فرد ثلاثة أمتار من قماش مصانع مانشستر ، تصلح ثوبا يرتديه رجال الكونغو ونسوتها ليصيروا " متحضرين يشتركون فى مراسم الكنيسة ، وهذا يعنى ٣٢٠ مليون

(١) كان إسم ذلك الطيار كلود تيرلى ، أنظر الكتاب التالى الذى يحتوى على مراسله مع كاتب نمسوى وصدر بمقدمة لبتراوند راسل: Ed ,Avoir detruit Hiroshima Ed Robert . Robert Laffont Paris . وقد نشرت ترجمة هذا الكتاب سنة ١٩٤٢ فى أعداد متتالية لمجلة فرنوسى على يد ايرج قريب تحت عنوان " ويران ساختن هيروشيما = تدمير هيروشيما " .

ياردة من قماش مصانع مانشستر^(١) ونحن نعلم أن هذا الرائد من رواد الإستعمار كان مبشرا مسيحيا أيضا ، وإلى جوار كل تمثيل تجارى فى كل أنحاء العالم ، كان يقيم كنيسة أيضا ، وكان يدعو المحليين بكل حيلة ممكنة إلى الحضور فيها ، والآن وقد حمل الاستعمار رحله من تلك الأماكن ، فكل مفوضية تجارية كانت تغلق ، كان يغلق إلى جوارها باب إحدى الكنائس .

وكون أفريقيا أكثر قابلية وأكثر بعثا للأمل بالنسبة لهؤلاء السادة لسبب آخر هو أن سكان افريقيا أنفسهم كانوا من المواد الخام لكل نوع من المعامل الغربية فى علم الإنسان وعلم الاجتماع وعلم الأجناس وعلم اللغة وآلاف الأنواع الأخرى من العلوم تدون على أرضية التجارب الأفريقية والأسترالية ، ويستقر أساتذة كمبردج والسوربون وليسن بهذه العلوم على كراسيهم ، ويرون الوجه الآخر لعملة حضريتهم فى بربرية أفريقيا وبدائيتها .

لكننا نحن الشرقيين فى الشرق الأوسط لم نكن قابلين إلى ذلك الحد ولا باعثين على الأمل . لماذا ؟! إذا أردت أن أكون صريحا مباشرا ، أى أن أتحدث بشكل لا كلفة فيه ينبغى أن أسأل : لماذا لم نكن نحن الشرقيين المسلمين قابلين ؟! ترون أن الجواب موجود داخل السؤال ، لأنه داخل شمولنا الإسلامى لم نكن فيما يبدو شيئا قابلا للدراسة ، ولنفس هذا السبب ، فإن الغرب فى تعامله معنا ، لم يشتبك فحسب مع هذا الشمول الإسلامى " فى قضية التشجيع الدموى للتشيع فى العصر الصفوى - فى بذر بذور الشقاق بيننا وبين العثمانيين - فى تشجيع البهائية فى أواسط الحكم القاجارى - فى تفتيت العثمانيين بعد الحرب العالمية الأولى ، وأخيرا فى وقوفه أمام رجال الدين الشيعة فى مصيبة الثورة النيابية وما بعدها " بل وجاهد فى أن يفتت بأسرع مايمكنه تلك الوحدة المفتتة من الداخل والتي تبدو شمولية فى الظاهر فحسب ، ويبدلنا فى البداية - مثل سكان أفريقيا - إلى مادة خام ، ثم يحملها بعدها إلى المختبرات ، وهكذا كان أنه من بين كل نواتر المعارف التى كتبها الغربيون ، تعد دائرة المعارف الإسلامية أهمها ، ونحن حتى الآن لا زلنا نلظ فى

(1) Du Zambeze au Tanganika . 1858-72 , Par Livingstone et Stanley . Paris , 1958 .

المترجم : أو هكذا حدثونا عن أفريقيا ، وإلا فإن المواجهة فى أفريقيا بدأت وما زالت مستمرة - ضد الإسلام .

النوم ، لكن الغربي حملنى فى دائرة المعارف المذكورة إلى باب المختبر . والهند فى النهاية مكان قريب الشبه من افريقيا إلى حد ما ، وذلك بما فيها من تعدد لغات وتبعثر عروق ومذاهب وأديان ، أما أمريكا الجنوبية فقد صارت كلها مسيحية بحد السيف الأسباني ، وجزر المحيط مجرد أرخبيل أى أفضل مكان يمكن أن يوجد فيه خلافات . وهكذا كان أن صرنا نحن فحسب شكلا وأيضا حقيقة شمولاً إسلامياً السد الوحيد فى مواجهة انتشار استعمار " = مسيحية " الحضارة الأوربية ، أى فى مواجهة بحث الصناعة الغربية عن أسواق ، وعندما توقفت المدافع العثمانية فى القرن التاسع عشر "؟! " خلف بوابات فينا ، كان هذا نهاية حادثة كانت قد بدأت فى أسبانيا " الأندلس " سنة ٧٣٢هـ (١) وماذا نعتبر هذا الصراع والمنافسة بين الشرق والغرب خلال إثنتى عشر قرناً إن لم نعتبره صراعاً بين الإسلام والمسيحية ؟ على كل حال ففى هذا العصر الذى نعيش فيه ، فإننى أنا الأسىوى بقية تلك الشمولية الإسلامية تماماً ويقدر ذلك الأفريقى أو الأستراالى بقية البربرية والوحشية على السوية ويقدر واحد ، وتماماً فى نفس درجة القبول بالنسبة للأمم المتحضرة فى الغرب وصناع الآلة ، إذا قنعنا بالتواجد فى المتاحف فحسب ، وبأن نكون " شيئاً " فحسب ، شيئاً قابلاً للدراسة فى متحف أو مختبر ، هذا وليس أكثر ، وذلك خشية أن تمد يدك إلى المادة الخام . الآن لم يعد النقاش قائماً بعد حول : هل يريدون نـفـط خـوزـسـتـان خاماً أو ما هو ملك لقطر ، أو ماس كاتانجا بون صقل أو حجر كرويت كرمان بون تنقيية ، بل يدور النقاش حول هذا الموضوع وهو أنتى أنا الأسىوى أو الأفريقى ينبغى أن أحفظ أدبى وثقافتى وموسيقاى ودينى وكل شيء آخر لى تماماً كأنه أثر خرج من تحت التراب بون أن تمسسه يد ، حتى يأتى أولئك السادة ويتفحصونه ويحملونه معهم ويضعونه وراء صنابير العرض فى المتاحف قائلين :

(١) أشير هنا إلى هزيمة عبد الرحمن الأموى " رأس أسرة الخلافة الإسلامية فى الأندلس " من شارل مارتل القائد الفرنسى فى " بواتيه = بلاط الشهداء " وتوقف امتداد الخلافة الإسلامية الغربية أوائل القرن الثامن الميلادى . ولتذكروا أيضاً أن مارتل هذا هو اليوم اسم كونيـاك فرنسى معروف !! .

- أجل .. هذه بربرية أخرى !!! (١)

وبعد هذه المقدمات ، اسمحوا لى كشرقى قدمى فى التقاليد ، وأتوق إلى قفزة مائتى سنة أو ثلاثمائة سنة ، ومضطر إلى تعويض كل هذا العجز والقصور ، ومقيم على أرضية تلك الشمولية الإسلامية المفتتة ، اسمحوا لى أن أعبر عن الابتلاء بالتغرب على هذا المنوال :

هو مجموعة من الأعراض طرأت على حياة سكان بقعة ما من بقاع العالم وثقافتهم وحضارتهم وأسلوب تفكيرهم بدون أية تقاليد تمثل نقطة ارتكاز ، وبدون أية استمرارية فى التاريخ ، وبدون أى تدرج فى تطور البناء ، بل كهدية حملتها الآلة فحسب . ويكون من الواضح إن قلنا بعد هذا التعبير أننا بعض هؤلاء الناس ولما كان النقاش يدور فى هذا الكتاب فى البداية حول أقليم كاتبه وبيئته ولغته وتقاليده وبيئته ، يتضح أكثر إذا قلنا أننا إذا امتلكن الآلة أى صنعناها ، فإننا لا نعود بعد فى حاجة إلى تلقيها كهدية مع ما يتقدمها وما يقترن بها .

والابتلاء بالتغرب سمة عصر من تاريخنا ، إذ أننا لم نحصل على الآلة حتى الآن ولا نعرف أسرار نظمها وبنيتها . التغرب سمة فترة من تاريخنا لم نعرف فيها مقدمات الآلة أى العلوم الجديدة والتكنولوجيا . الابتلاء بالتغرب سمة عصر من تاريخنا حيث اضطررنا تبعاً لحتمية السوق والاقتصاد وتداول النفط إلى شراء الآلة واستهلاكها .

كيف حدث هذا العصر ؟ كيف حدث أنه فى انصرافنا الكامل عن تطور الآلة ونضجها أن قام الآخرون بصنعها واستخدامها ، وجاعوا ووصلوا ، وعندما استيقظنا كان كل حفار نفط مسماراً نُق فى كل هذه الأتواء ؟ كيف أصبحنا مبتلين بالتغرب ؟

(١) للسيد ثمين باغچه بان بان صديقي العزيز عالم الموسيقى ملاحظات " لم تنشر حول مؤتمر الموسيقى المنعقد فى فروردين سنة ١٣٤٠ فى طهران يقول فيها " بالنسبة لدانيل لو ممثل فرنسا لم يكن لديه أهم من أن نكون فى العصر الساسانى ، ونكون جديرين بالنسبة للدراسة منه وهو الذى جاء من قلب القرن العشرين ، حتى يأتى هو بأجهزته الدقيقة ومسجلاته من آخر طراز ، ويتخذ طريقه مباشرة إلى البلاط الساسانى ، ويسجل فنون باريد ونكيسا ، ثم يعود إلى باريس بالطائرة النقاشية من المطار الذى يكون قد أقيم بالقرب من العاصمة الساسانية خصيصاً للمستشرقين وخبراء الشعر والرسم والموسيقى .

لنعد إلى التاريخ .

٤- أول جنود المرض

هكذا يُستبَط من التاريخ أننا كنا ننظر إلى الغرب دائماً ، بل إننا أطلقنا إسم الغربي قبل أن يسمينا الأوربيون بالشرقيين . عد إلى ابن بطوطة المغربي ، أو إلى جبل طارق الذي هو نقطة النهاية في الغرب الإسلامي ، ومنذ فجر حضارة الإسلام حتى انهيار قيمة كل مثال في مواجهة سلطة التكنولوجيا ، كنا دائماً في هذه المنطقة من العالم كقبضة من حمل بعير من شمالية حضارة ما ، وكنا نعرف العالم بمثلنا ومقاييسنا ، وكنا نصفه بناء على قيمنا قبل أن يقوم الآخرون بالتصرف معنا بنفس الشكل ، أليس لكل دنو علو ؟ وإذا عدنا ألف سنة أو ألفي سنة إلى الوراء ، ونظرنا نظرة أكثر شمالية حولنا- في نفس منطقتنا - الشرق الأوسط "!!" ، كان أن كلده وأشور وعيلام ومصر واليهود ويوذا وزرشت قد ظهوروا في ساحة متسعة تمتد من وادي السند حتى وادي النيل ، وصاروا بناءً لشيء لا يوجد سواه في خرج الحضارة الغربية .. لاجدال بعيداً عن التفاخر والتفريق ! .

هذه ال " نحن " ذات الأطراف المتعددة ، في كل هذه العصور ، وقبل أن تركز أنظارها على المشرق الأقصى " الصين ومنشوريا والهند " بحيث تأخذ منها الصيني والطباعة والكرسى " المدفأة الإيرانية " والعرفان والتصوير ورياضة الجوك والمراقبة الصوفية " تعاليم زن " والزعفران والتوابل والرشيديّة .. إلى آخره ، نظرت إلى وادي النيل وإلى ليبيا " تركيا الحالية " وإلى المغرب الأقصى وإلى بحر الشمال الغنى بالعنبر .. ونحن سكان هضبة إيران كنا جزءاً من هذا الكل الذي ذكرت ، ولماذا كنا هكذا ؟ لنجد جواباً على سبيل الحدس والتخمين ، وانتبهوا إلى أنني قد ضيقت الدائرة ، والحديث عنا الآن نحن الإيرانيين .

ربما كان الفرار من الهند الأم هو أول اهتمام لنا بالغرب .. الفرار من المركز ؟ لست أدري . هذا ما يجب أن يوضحه علم الأجناس والألعاب الآرية وعلم اللغات الهندو-أوربية . أنا أخمن . على كل حال ، لاجدال في الحزن الدافئ لنفس هذه الأم ، والذي كان جاهزاً من أجلنا في أيام الأزمات . ونفس هذه الهند أعطت الملجأ لبقية الزرشتيين الذين عاندوا ، ولم يستسلموا حتى لدفع الجزية الإسلامية وهربوا

مقتلعين جذورهم ولاجئين إلى الهند ، وأمامنا البارسيون وهم من أخلافهم ، أولئك الذين أعانوا الإنجليز على ظلمهم بشكل سيء في سنوات استعمار الهند ، كما أنهم الآن يستولون على الأرستقراطية الصناعية في الهند ، ثم مرة أخرى عند الهجوم المغولي ، ومرة ثالثة هربا من السيوف الصفوية المتعصبة ذات المظهر الصوفي ، وفي هاتين المرتين الأخيرتين ، كم من الكنوز الفكرية بقيت في أمان نتيجة لهذا الهروب ، وكم من الثروات الفكرية صارت محفوظة من أذى الدهر ، وهذا الحزن الدافئ الأمومي ، بالرغم من أنه كان ملجأ لنا نحن المشركين ، إلا أنه لم يوجد طفل قط وصل إلى نتيجة ما من تنعمه وتربيته في حضن الأم ، الإسلام نفسه لم يصل إلى نتيجة ما وهو في مكة ، ومن هنا حدثت الهجرة إلى المدينة ، ثم كان في بغداد وفي دمشق والقاهرة أو في اشبيلية وقرطبة أن وضع أساس عظمة جديدة بإمبراطورية ، والمسيحية التي رفعت نداعها من الجليل والناصرية ، رفعت أعلامها مباشرة في قلب العالم الوثني في روما ، وظهرت المانوية في طيسفون ودفنت في تورفان . وبوذا الذي نبت من الهند أطل برأسه من بلاد الشمس المشرقة ، ومن هنا فنحن أيضا عندما هربنا من الهند " إذا كان الأمر هكذا " ، أو أدركنا لها ظهورنا ، اتجهنا نحو الغرب ، وإن كان هناك ثم تعامل مع هذه الأم المحتملة ، فهو تعامل بحب في شكل تردد الحكيم بوزرجمهر عليها ، أو تسكع العارفين لزيارة سرنديب ، أو تصادم بالعنف في شكل غزوات محمود الغزنوي وناصر شاه لابس الفراء ، لكن في هذا التعامل مع الهند ، لم يكن قصدنا التقرب قط ، ولم نقم قط بصلة الرحم ، وأنا أعتبر أن هناك سببا أساسيا لما أسميه بالابتلاء بالتغرب يكمن في نفس هذا الهروب من المركز والذي هو هروب من الحرارة أيضا .

وربما كنا ننظر إلى الغرب لهذا السبب الذي يكمن في أن ضغط سكان الصحارى الشمالية الشرقية كان يسوقنا إلى تلك الناحية ، مثلما جاء الآريون وطربوا الشياطين المذكورين في الشاهنامه حتى سواحل الخليج ، وبداية من التورانيين في الشاهنامه حتى الهياطلة فصاعدا ، وكل عدة عقود كانت عشيرة ما " تركية أو فارسية " مساكنها على سروج خيولها ، تهاجم هذه المناطق بحثا عن مرعى حتى تعوض القحط المفاجيء بل والمزمن الذي ربما قضى على هذه الصحارى البعيدة ، وقد مات "قورش" في تلك الصحارى البعيدة وهو يطارد السيث ، وعبر الغز والسلاجقة

والمغول أيضا هذه الصحارى على صهوات جيادهم ، وسفك دم سياوش على يد افراسياب فى تلك الصحارى . على كل حال لا يوجد قرن واحد من عصورنا الأسطورية أو التاريخية ليس على جبهته موضع سناك خيول عشائر الشمال الشرقى ، وكل الأسرات الحاكمة فى العصر الإسلامى - باستثناء واحد أو اثنين - أسسها هؤلاء الغلاظ العشائريون ، وبلى وفيما قبل الإسلام ، وإلا فمن يكون البارثيون؟ ودفتر تاريخنا فى الأصل قد طوته العشائر دائما ، لا العائلات . وفى كل مرة نبني منزلا ، عندما نصل إلى شرفه ، يصل نوع من الجياح المغيرين من الشمال الشرقى ، ويقومون بسحب السلم من تحت أقدامنا .. أبدا ، كانوا يقومون بهدم كل شيء من الأساس ، وكانت مدننا فى هذا الميدان الواسع للسباق المسمى بهضبة إيران دائما قطع شطرنج مبسوط على الرقعة ، ومثل كرة أمام أقدام فرسان البدو الذين يعانون المجاعة ، يحملونها من هنا ويضعونها هناك ^(١) ، وقبة السلطانية بالرغم من عظمتها المعمارية وأبعادها الضخمة ، انقلبت الآن إلى مئات الكوات تثير مئات البسمات على هذا المفروش المتلون ، وفى هذه الصحراء الشاسعة ، وجد عدد قليل من مدننا الفرصة لى تنمو فى شبابها وتتضخم وتصل إلى نضج

(١) وهناك حقيقة تاريخية غير معترف بها ، وهى أنه بالرغم من أنهم يخوفوننا منذ انقلاب أكتوبر وحتى الآن وطوال أربع وأربعين سنة من روسيا والشيوعية ، فإن حضارة المدن عندما بعد استقرار روسيا السوفيتية والجمهوريات التابعة لها مثل التركستان وقيرغيزستان وتاجيكستان ، قد استراحت من شر الهجوم المزمع للبدو فى تلك النواحي ، واستقرار الحكومات من النوع السوفيتى فى هذه المناطق التى نكرتها ، قد أسكت بعد ١٩١٧ البدو الرحل ، وجعلت الصحارى عامرة إلى حد ما والمدن ذات مصانع ومزارع ومدارس ومؤسسات حضرية أخرى ، ولم يعد هناك بدو رحل حتى يكون هناك هجوم ، وإن كان هناك ، فلا حاجة هناك إلى امتطاء الخيول والمجىء ألف فرسخ للوصول إلى خراسان ، فيكفى أن يقف عند أقرب المدن والقرى والمزارع والقيام بالعمل فيها . ومن هنا فإن غارات العشائر أى هجوم البدو الأجانب من الشمال الشرقى للبلاد قد فقد مفهومه ، وامتد بداية القرن العشرين حتى الآن ، حل محله هجوم الصناعة " من النقط " وهجوم المتمدينين الأجانب من الغرب والجنوب الغربى . المترجم : بالطبع ينظر جلال آل احمد إلى الموضوع من ناحية واحدة ، فلو كان العمر قد امتد به إلى فترة انهيار الاتحاد السوفيتى واستقلال الجمهوريات المذكورة ، لأترك السبب الحقيقى فى توقف الهجوم وهو أن الجمهوريات المذكورة وطبقا لسياسة تنوير الشعوب السوفيتية ، واحلال الروس مكانهم فى الجمهوريات المتاخمة ، لم تكن تحتوى على بدو أو مسلمين أو عشائر ، بل كان أغلب سكانها من الروس ، ولا تحتوى من السكان الأصليين إلا على ما يكفى لإدارة عجلة الإنتاج السوفيتى ، أما نمو الحياة الحضرية ، فلا يساوى الترويس ومحو الشخصية .

السنين ، ثم تقف عن النمو في شيخوختها ، وتبدأ في الاضمحلال ، ثم مثل بغداد التي ظهرت بين خرائب طيسفون ، تسلم الروح وكأنها طائر الققنوس بين النيران تربي لها خلفا فتيا جميلا ، ومن هنا ظهرت بعض التعبيرات عندنا مثل " فليمر هذا أيضا " واستقر حجر " لكل إنسان عدة أيام هي نوبته " حتى قيعان آبار وجودنا ، وصار شعارنا " كل من أتى بني عمارة جديدة " .

وعلى هذا النسق يمكن القول أننا طوال تاريخنا المدون ، قليلا ما منحت لنا الفرصة للإقامة في الحضر ، وبالمعنى الدقيق للكلمة لم نصل إلى الحضريّة أو الحضارة المدنيّة " البورجوازية " ، وإن كنتم ترون الآن أننا أخيرا - وبالقوة الجبرية - لدينا الآلة وآخون في التعود على الإقامة في المدن وتبعاتها ، فإن هذا الأمر لما كان طفرة وجاء متأخرا ، فلا محيص من أن يكون له مظهر سرطاني ، وكل مدنتنا تنمو الآن في كل مكان نمو غدة سرطانيّة ، غدة إن وصلت جنورها إلى الريف وقضت عليه ، فواويــــلاه !! .

وبالنسبة لاستمرارية الحياة الحضريّة ، إن كنتم ترون استثناءات في ماضى التاريخ في صحراء خوزستان مثل " الشوش = صوصا " أو في الصحراء الوسطى مثل اصفهان وكاشان والري ، فلا يمكن الحكم اعتمادا عليها فحسب ، ولا يقوم بناء تاريخنا الماضى على أكتاف الأساسات والأعمدة والجدران والبيوت والأسواق ، لأن كل أسرة حاكمة تبسط نفوذها تقوم في البداية بالقضاء على ما فعلته الأسرة السابقة ، بداية من الساسانيين الذين فعلوا ما أرادوا وقضوا على ما كان الأشكانيون قد فعلوه ، حتى القاجاريين الذين لوثوا بالملاط كل جدار وباب أقامه الصفويون ، وحتى أيامنا هذه ، قاموا ببناء البنك الوطنى " بانك ملي " في مكان تكية الدولة ، ووزارة المالية في مكان مخدع " كريم خان زند " أو حيثما بنوا مدرسة فإنهم يبنونها في مواضع المساجد أو أضرحة الأئمة .

ولا زلت أتعجب : لماذا نحن ضيقو الأفق هكذا مع هذه الآفاق المفتوحة التي لدينا؟! بحيث ترى أنه فحسب في العهدين الأكمينى والصفوى يقوم الأب والإبن بالسعى في إتمام بناء ما ، أما في بقية العصور " فكل من جاء بني عمارة جديدة " وبأى شكل ؟ من مواد عمارات السابقين ، وحتى أمس كانوا يحضرون المرمر من مقابر المسلمين في ابرقوه للقصور الملكيّة ، وكلما غصت في ناحية ما من نواحي البلد ،

ترى أن أساس كل بناء من حجارة قبور المتوفين ، ومواد كل كوبرى صغير حجارة قلعة قديمة مجاورة .

ومن هنا فإن بناء الحضارة نصف الحضريّة ليس بناءً وضع أساسه أحدهم وعلاه آخر وزينه ثالث ووسع فيه رابع .. إلخ ، فبناء الحضارة الموصوفة بالحضريّة التي كانت تقبل مركزيّة الحكومات داخلها بناء مستند على عمد الخيام ، ومرتبطة بظهور سروج الدواب ، كان الأكمنيون يقومون برحلات الشتاء والصيف والساسانيون أيضا ، هذا والشوش موجودة وهگمتانه " همدان " أيضا وكلتاها عاصمة ، وطيسفون موجودة وأيضا فيروز آباد ، وهكذا فإن علماء الآثار قد وصلوا بالأمر إلى درجة أنهم وجدوا في أقواس أبنية عديدة من العصور التاريخيّة عندنا تشابها شديدا مع الخيام ، وإذا حدثت بأنه لهذا السبب عجزنا وتقدم الغرب ، لا أكون قد جففت كثيرا .

وتذكروا أيضا أننا طوال تاريخنا في هذه الصحراء الواسعة ، كنا نقضى طوال ليالى الصيف فوق الأسطح وتحت سقف النجوم ، حقيقة أن الطبيعة الجافة والجو القاسى كانا قد قاما باحتوائنا إلى هذا الحد ، لكن هذه القسوة من الجفاف ومقاومتها - إن لم يكن هناك سيل وهو من خصائص هذه الطبيعة - ليس صعبا إلى هذا الحد إلا فى شتاء قصير جدا ، ولا توجد مدينة واحدة من مدیننا ليس فيها أكثر من ثلاثة شهور فى السنة من البرد والمطر والتج ، وعلى هذا النسق : هل من الممكن أن يُعطى تيبور مندو الحق فى رأيه القائل بأن الحضارات المدينيّة العظمى التي وصلت إلى التكنولوجيا هي التي استقرت فحسب فى تلك الناحية من الكرة الأرضية التي تتميز ببرودة جوها والتي تقع بين مدارى السرطان والقطب الشمالى؟^(١)

ولاشك أن الأمر ليس كذلك ، فقد هوجمنا دائما من الصحارى الشماليّة الشرقيّة ، وكان الإسكندر أيضا قد جاء من مناطق الشمال الغربى لهضبة إيران ، والإسلام من صحراء الجنوب الغربى . لكن ما يقال بشأن الإسكندر - مع كل تلك الفترة الطويلة أو القصيرة من الإيرانية فى عهد خلفائه وأول فترة من مظاهر

(١) انظر ترجمة كتاب تيبور مندو التي سبق ذكرها .

الابتلاء بالغرب في تاريخنا المدون - أي الطابع الميال أي اليونان عند البارثين - فإن هذا الصدام مع الإسكندر وجنوده لم يكن صداما مع بدو على سروج خيولهم ، كان صداما مع مغامرين وجنود مرتزقة من المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، الذين كانوا قد شجعوا من قصة " انابازيس " لإجزنقون ، وامتطوا صهوات جيادهم طلبا لثروة الملوك الإيرانيين ذات الأسرار بهميان مفتوحة وأفواه يسيل لعابها ، وجاءوا إلى هذه المناطق طمعا في الحصول على كنوز " اكبتانه " والشوش واصطخر ، هؤلاء هم أول استعماريين في التاريخ بعد الفينيقيين ، كما نعلم أن هؤلاء كانت لديهم عقدة بناء المدن أيضا ، ومن مصب النيل إلى مصب السند ، بنوا بنور عدة مدن باسم " الإسكندرية " في مواضع مستعمراتهم المؤقتة ، لا تزال اثنتان منها تشمخان برأسيهما وقامتیهما تطلان على رواح الأثرياء الجدد وغدوهم على ساحة ماء البحر المتوسط . وفي الصدام مع هؤلاء الجنود المرتزقة ، إن كان ثم تدمير قد حدث ، فقد حدث على أيدينا^(١) فقد كانت كل صفقة نتلقاها من بدو الشمال الشرقي نردها في الغرب لسكان موانئ البحر المتوسط ، ولقد احترقت اثنا بحيث يكون حريق اصطخر ردا على حريقها .

ولقد صار الإسلام إسلاما عندما وصل إلى المناطق العامرة بين دجلة والفرات ، وقبله كانت بدوية العرب وجاهليتهم ، ولم يبق قط على سفك الدماء ، حقيقة أننا قد سمعنا الكثير عن سيف الإسلام ، ولكن ألا تظنون أن هذا السيف إن كان فعلا فقد كانت أغلب فعاليته في الغرب وفي مواجهة عالم المسيحية ؟ وعلى كل حال أظن أن هذه الشهرة تعود في الأغلب إلى المقابلة بين الجهاد الإسلامي والتظاهر المسيحي بالاستشهاد في عهد الأول ، وإلا فإن المسيحية عندما استقرت ، تعلم ما الذي قامت به ، وفي فترة الابتلاء في اسبانيا ، أو في واقعة الاستيلاء والنهب في أمريكا الجنوبية والوسطى ، أو في السيطرة على أفريقيا ، أو في آسيا الجنوبية الشرقية ،

(١) انظر مقال " اسكندر كجسته يا بزرگ = اسكندر الملعون أو الكبير " بقلم پرويز داريوش في

العدد الأول من " كتاب ماه كيهان " خرداد، ١٣٤١

أو في تخريب حضارة " الخمير ^(١) على كل حال فإن السلام الإسلامي هو أكثر الشعارات سلاما في أي دين من أديان العالم ، وعلاوة على هذا فإن الإسلام من قبل أن يأتى إلينا نحن الذين دعونا ، دعونا من " رستم فرخزاد " الذي دافع عن الفروسيّة الساسانية والتقاليد المتحجرة الزردشتية بفعا نبيحا ، لكن أهل المدائن وطيسفون كانوا قد وقفوا في الشوارع وفي أيديهم الخبز والتمر استقبالا للعرب الذين كانوا متجهين للهجوم على القصر الملكي وسجادة " بهارستان " ، وقبل أن يفر يزجرد إلى مرو ، كان سلمان الفارسي قد هرب منذ سنوات من " جي " في اصفهان إلى المدينة ، ولجأ إلى معية الإسلام ، وكان له دور في بناء الإسلام ، لم يكن قط لهؤلاء المجوس المنجمين في بناء المسيحية ، ومن هنا لست أظن أنه يمكن اعتبار الإسلام فاتحا للعالم بالتعبير الذي نعتبر به الإسكندر كذلك ، فإن الجنود المرتزقة مفلوتو العنان عند ذلك المقلونى ، وكل منهم كان منفيًا من داره ودياره ، جاعوا إلى هنا بحثا عن الغنيمة ، ولم يكن أحدهم يخفى في جعبته ذلك الإيمان الذي جر العرب الحفاة حتى سيحون وجيخون ، برغم ما يقوله حتى الآن أصحاب الحى والشوارب ، فهم شعوبيون أتوا إلى العالم متأخرا ، وأيضا برغم ما يقال عن إحراق عمر للكتب في الري والإسكندرية ، فقد كانت الاستجابة للإسلام بناء على دعوة سبقت منذ ثلاثة قرون قبل ارتفاع نداء الإسلام في هذه الصحراء المحرقة للملكيات ، واختنقت في فم مانى ومزدك بالرصاص المحمى ، وإذا نظرنا بشكل أكثر علمية ، فقد كان الإسلام في حد ذاته نداءً جديدا قائما على أساس مطالب سكان الحضر في واسط والفرات والشام ، فقد كانت كلها قد تعبت من الحروب الطويلة بين ايران والروم ، وكنئاب الصحراء المجربة ، كانوا مساعدين بالقوة لكل حركة تستطيع أن تقيم سلاما دائما في هذه المناطق ، ونحن نعلم أن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم كان يتاجر في

(١) بالنسبة للابتلاع أنظر إلى أي تاريخ للحضارة الأوربية يكون في متناول يدك ، وبالنسبة لأمريكا الجنوبية أنظر إلى سير الفاتحين هناك الذين قضوا تماما على نسل حضارة الأنكا والأزتيك باسم التبشير بالمحبة والسلام المسيحيين ، وبالنسبة لأفريقيا وآسيا الجنوبية الشرقية أنظر بالترتيب كآخر وثائق إلى : " العودة من تشاد " لأندريه جيد و " الطريق الملكي " لأندريه مالير ، وأهم منهما إلى كتيب تحت عنوان " كفتارى برباب استعمار = مقال في الاستعمار " لإيما سيزار ترجمة هزارةخانى ونشر نيل .

شبابه مع الشام ، وأنه تحدث مع فلان الراهب في دير الشامات ... إلخ ، وهل هناك أبسط من " قولوا لا إله إلا الله تفلحوا " يمكن أن يدعى بها إلى أى دين ؟ وفي آخر هذا التحليل : أليس اهتمامنا بالإسلام هو أيضا من قبيل اهتمامنا بالغرب ؟ والجواب الدقيق على هذا السؤال يمكن أن نقدمه عندما نعلم أية مظالم قد انصبت على رؤوس الناس في قلب التقاليد الساسانية المتحجرة .

وربما كان اهتمامنا بالغرب ناشئا من أننا في هذه الصحراء الواسعة القاحلة كنا دائما في انتظار سحب البحر المتوسط ، حقيقة أن النور قد ظهر من الشرق ، لكن السحب الممطرة تأتينا نحن سكان هضبة إيران من الغرب ، وفي هذا الاهتمام بمنشأ السحاب والمطر والعمران ، كنا نهرب أيضا من صحارى الجنوب والشمال الشرقي . تماما على عكس ما يجذب أولئك الذين يعيشون في شمال أوربا من البرد والرطوبة والتلوج المتراكمة في بيارهم إلى الجنوب والبحار الدافئة حتى يجنوا طريقا إلى إفريقيا والهند وأمريكا بحثا عن التوابل المبهية ، ثم يأتى من بعده ما سمي فيما بعد بالإستعمار الحاد ، هذا الجذب الثنائي واضح في كل تاريخ الحضارة البشرية ، ومجىء الآريين إلى إيران في حد ذاته أحد مظاهر هذا الضيق من الشمال ومن تراكم الثلوج في " ورجم كرد " و " آريايوج " . وأنا أظن - وإن كان في الأمر بعض التجرؤ - أن لو كان الروس قد وصلوا إلى البحار الدافئة ، واستطاعوا في النهاية تحقيق حلم بطرس الأكبر ، ولو استطاعوا بقيمة الإغارة على المستعمرات الجنوبية والجنوبية الشرقية لأرضهم الفعلية أن يرفعوا الأجور والتأمينات والمعاشات الخاصة بعمال بطرسبرج ويادكوبه إلى مستوى أجور مانشستر وليون ، ولو لم يضطروا إلى الإعتياد على سيبيريا وتلوجها ويردها ، أو على التركستان ورمليها المتحرك ، لما كان انقلاب ١٩١٧ رائدا للبشرية ، وتصدير تقاليد الثورة الروسية إلى أفريقيا وجنوب شرق آسيا الذي يعد آخر التطورات السياسية قبل الثورة الصينية يدل في حد ذاته على رغبة خنقت وهي نطفة طوال سنوات ، لكنها تظهر الآن في ثوب جديد .

وإذا كنا ثانية أكثر بقية ، فإن لنا آثار أقدام كثيرة عن هذا الإهتمام بالغرب . حقيقة أن ماء الحياة كان في ظلمات الشرق ، لكن الإسكندر الذي ذهب بحثا عنه كان غربيا ، ونظامى الكنجوى - وهو منا - هو الذى جعله نبيا وخط بينه وبين ذى القرنين ، وجنات عدن غربية أيضا ، والعنبر الذى كان يأتى دائما من بحار

الشمال الغربية ، ويغداد التي كانت كعبة الزنادقة المانوية كانت في نهاية غرب هضبة ايران ، وقطعا سمعتم عن جيش الزنج والروم وإطلاقه على جدران المحبوبة وجهها ؟ وربما لنفس هذا السبب ، لم يخلُ أي جناح للحريم في الشرق من الجوارى الروميات اللاتي كن يبشرن بالنهار ويحملن البياض وحسن الحظ " بياض الحظ " ، حتى العرفان بكل شرقيته - إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير اي الابتلاء بالشرق - يجعل الشيخ صنعان البدوي مرتدا يرتدى الزنار في أسر غرامه بجارية رومية ، حتى نرجس خاتون أم المهدي المنتظر عند الشيعة هي أيضا جارية من أصل رومي ، والخلاصة أننا يمكننا أن نجد دلائل عديدة على هذا النسق .

وما هو مسلم به ، أنه بالنسبة لنا ، لم تكن قط أمة ساقطة في إسار التعصب والسذاجة ، كان طريق الغرب مفتوحا دائما ، وعندما كنا نذهب إلى مكة مثل سعدى ، كنا نذهب عن طريق طرابلس ، ونستخدم في أعمال الفعلة (١) أو نذهب إلى كربلاء والنجف حتى نتخفف من ننوبنا ، ونذهب الآن إلى أوروبا كي نلهو ونمرح .

وإذا تجاوزنا الاحتمالات والظنون ، فإن التردد على الغرب في حياة أمة كانت تريد أن تعيش يومها أفضل من سابقه وتتعلم أكثر وتموت أكثر راحة أمر عادي ، ليس التردد على الجيران القريبين والبعيدين حادثة خارقة للعادة . وهناك جد ويحث أكثر اتساعا من قبل البشرية في نطاقات حيوية أخرى ، لكن العجيب هنا أن هذا الإهتمام بالغرب حتى ثلاثمائة سنة خلت كان ذا وجه واحد ، كان له سبب واحد واتجاه واحد ، هو وجه الحقد أو الغيرة والمنافسة ، وفي هذه الثلاثمائة سنة الأخيرة وجد سببا آخر واتجاها آخر ووجها آخر ؛ وجه الحسرة والأسف والعبودية .

حتى قبل هذه القرون الثلاثة الأخيرة ، كنادائما إما نغار من الغرب أو نحقد عليه أو ننهض لمنافسته ، وذلك بسبب أراضيه العامرة وموانيه المزيحة ومدنه المستقرة وأمطاره المستمرة ، وفي كل هذه العصور التي مضت ، كنا نرى أنفسنا مستحقين لامتلاك مثل هذه النعم ، وكنا نعتبر تقاليدنا ومعتقداتنا هي الحق ، ونطلق عليهم لقب " الكفرة " ونعتبرهم ضالين ، وإلا فإننا حتى في قلب التعصب الزرديشتي الساساني كنا

(١) المترجم : إشارة إلى ما رواه الشاعر سعدى الشيرازي في كتابه الشهير "كلستان" من وقوعه أسيرا للصليبيين في بيت المقدس أثناء سفره للحج واستخدامه في أعمال الفعلة .

نعطى حق اللجوء لعلمائهم الذين كانوا يهربون من الإسكندرية والقسطنطينية ، لكن ما هو مسلم به أننا كنا دائما نقيمهم بمعاييرنا ، وأحيانا كان الأمر يصل بنا إلى اعتبار أرواحهم وأموالهم حلالا لنا ، ومن هنا كنا نقوم بقدر استطاعتنا بالسيطرة على بعض أملاكهم ، على كل حال كانت كل هذه المنافسة والغيرة والحقد سببا أو محركا لنا ، لكي نخفف من الصورة الفظة للأشوريين ونزيد في طولها وعرضها ونأتي بالسدر من لبنان والذهب من ليديا ، ونترجم ارسطو في القرون الوسطى المظلمة للغرب وننشر فلسفته ، ونقبل نظام المحافل الرومي ، أو نتعلم منهم نظام بناء المدن ، وكل ما هو موجود في هذا التعامل الذي استمر ألفى سنة مع الغرب ، بكل الهزائم الذي يحتوى عليها والانتصارات وألوان التخريب من الطرفين الذي هو في حد ذاته سر الحياة ، فإن الكسب كان للطرفين حقا ، لم يخسر كلانا شيئا ، وإن لم يكن هناك بيننا تعامل بين صديقين ، فمن المسلم به أنه كانت هناك بيننا مواجهة بين ندين ، وما أفضل هذا ، أعطينا الحرير والنقط ، وكنا معبرا إلى الهند وزردشت والشمس ، وفي كنانة الإسلام رحلنا ، رحلنا حتى الأندلس ، ووضعنا العمامة الهندية والخراسانية على رؤوس أئمة الإسلام ، وبدلنا المجد الإلهي إلى الهالة ، ووضعناها حول وجوه القديسين المسيحيين والمسلمين .. وكثير من المبادلات الأخرى ، لكن في هذين القرنين الأخيرين أو القرون الثلاثة الأخيرة ، كان لنا الوجه الآخر للعملية .. أقول : الحسرة والتؤوه والأسف .

والآن قد نسي فينا إحساس المنافسة ، وحل محله إحساس العجز وإحساس العبودية ، لم نعد نعتبر أنفسنا مستحقين أو على الأقل على الحق " إنهم يأخذون النقط لأنه من حقهم ولأننا نفتقد الكفاءة - إنهم يديرون أمورنا سياسيا لأننا مكتوفو الأيدي - لقد نالوا الحرية لأننا غير جديرين بها " بل إننا إذا كنا بسبيلنا إلى تدبير أمر من أمور معاشنا ومعادنا ، فإننا نقيم الأمور بمعاييرهم ويؤامر مستشاريهم ومشاوريهم ، وعلى نفس نظامهم ندرس ، وينفس الطريقة نقوم بالتعداد ، وعلى نفس النسق نقوم بالبحث العلمي .. وهذا يأتي في موضعه ، وهذا لأن العلم اكتسب أساليب عالمية ، والأساليب العلمية لا يتخذ وجهها لوزن أى وطن . لكن المهم أننا نتزوج كما يفعل الغربيون تماما ، ونقلدهم في مزاولة الحرية ، وننظر إلى الدنيا خيرها وشرها بمنظارهم ، ونرتدى الملابس ، ونكتب شيئا ، وفي الأصل قليلنا ونهارنا هو

وقت الليل والنهار الذى ربما قاموا بتحديدده ، وكأئنا نسخت كل معايرنا ، بل إنا لنفخر بأننا المصران الأعور لهم . أجل ، فمن هذين الخصمين القديمين - كما ترون - كانت نهاية أحدهما أنه فوجيء بنفسه كناس الميدان ، أما الآخر فصاحب الحلقة .. وأية حلقة !! حلقة الأعضاء التناسلية واللاتهام بالحمق والتفاخر والفيهة .. حتى ينتجوا النفط .. ترى ماذا حدث فى هذين القرنين أو الثلاثة قرون الأخيرة ؟! أية أشياء حدثت حتى انقلب الزمان هكذا ؟!

لنعد ثانية إلى التاريخ ..

٥- المنبع الأساسي للسيل

فى هذه القرون الثلاثة الأخيرة ، حدث من ناحية أن تشكل العالم الغربى ونضج فى قدر الثورة الصناعية ، وأسلم الإقطاع مكانه إلى الحياة الحضرية ، ومن ناحية أخرى لجئنا نحن فى هذا الركن من الشرق إلى شرنقة حكومة الوحدة القومية القائمة على أساس التشيع ، ونسجنا خيوطنا حولنا أكثر يوما بعد يوم ، وحتى إذا قمنا لنهضة ما قمنا بها فى ثياب الباطنية والنقطوية والحروفية والبهائية ، وفى مقابل كل مدرسة ومختبر بنى فى الغرب ، شكلنا نحن محفلا سريا ولجئنا إلى البطون السبعة للرموز والإسم الأعظم . وفى هذه القرون الثلاثة كان أن حصل الغرب بمساعدة الآلة على إنتاج مهول ، وصار فى حاجة إلى سوق العالم المضطرب ، من ناحية من أجل الحصول على مواد خام رخيصة ، ومن ناحية أخرى لبيع مصنوعاته . وفى هذين القرنين أو الثلاثة كان أن اختطفنا النوم خلف الدروع التى أسبغنا بها رؤوسنا خوفا من العثمانيين ، ولم يقم الغرب فحسب بابتلاع العثمانيين ، بل وصنع من كل عظمة من عظامهم دبوسا حربيا تحسبا لليوم الأسود الذى يثور فيه سكان العراق ومصر وسوريا ولبنان ، بل واتجه إلينا بسرعة . وأنا أرى جنود الابتلاء بالتغرب فى نفس هذا الموضع . من ناحية فى عدوانية الصناعة الغربية ، ومن ناحية أخرى فى عجز حكومتنا القومية المستندة على أساس تقليدى ، والتى سلطت على إيقاع قائم على قتل أهل السنة ، منذ ذلك الوقت الذى نسيت فيه الهيئة الدينية عندنا ، وغاصوا كعمال للظلم والجور فى أجساد حكام الزمان ، منذ ذلك الوقت الذى دخل فيه ميرداماد والمجلسى فى خدمة البلاط الصفوى لاختلاق الأحاديث ، ورضوا بالصمت الموافق المبارك للدعوة إلى التشيع ، منذ ذلك الزمان الذى تبدلنا فيه من فرسان على جواد شمولية الإسلام إلى حراس للقبور وأكلى فتات على مائدة تعرض الشهداء للظلم ، ونحن تماما منذ ذلك اليوم الذى تركنا فيه إمكانية الشهادة وقنعنا فحسب بتعظيم الشهداء ، فوجئنا بأننا بوابون للجبانة . ولقد أشرت إلى هذه المسألة فى روايتى " نون والقلم " (١) .

(١) المترجم : عرضتها فى كتابى " مطالعات فى الرواية الفارسية " ، وقمت بمراجعة ترجمة الدكتورة ماجدة العنانى لها " تحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة " .

وها أنتم ترون ثانية أن القضية ذات طرفين ، ومع أنني فى هذه العجالة لا أدعى أبدا أنني أقوم ببحث فى فلسفة التاريخ ، لكننى مضطر إلى الإشارة إلى هذين الطرفين إشارة عابرة .

أما فيما يتصل بالأسباب التى أدت إلى التطور الصناعى فى الغرب ، فلا شأن لى بها ، ولقد ذكر الغربيون أنفسهم ملاحم وقصص بشأن هذا الأمر ، ونحن أيضا الذين كنا مبتهلين بالتغرب تماما ، لا زلنا نكرر فى أبواق مدارسنا وأذاعتنا وصحافتنا لسنوات أباطيل الغربيين قائلين : إنها عصر النهضة واكتشاف البوصلة وفتح أمريكا واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وكشف قوة البخار ، وبخول الهند واختراع الكهرباء .. إلخ ، بل يمكن التوصل إلى هذه البدهيات فى كتاب الجغرافيا للسنة الخامسة فى المدارس الابتدائية ، وأنا مضطر فى هذا المجال إلى الإشارة إلى إحدى النقاط ثم أترك هذا الموضوع :

هذه النقطة هى أن الغرب - أى عالم المسيحية فى العصور الوسطى ، عندما وصل إلى أقصى درجة من حصار العالم الإسلامى له ، أى عندما تعرض لخطر الفناء فى مواجهة قوة الأمم الإسلامية من ثلاث جهات " الشرق والجنوب والجنوب الغربى " ، واضطر إلى جمع يديه وقدميه فى نفس ذلك العدد القليل من ولايات البحر المتوسط ، استيقظ بصعوبة ، وتعرض لمواجهة خطر الإسلام يأسا ، وكأنه قط حُبس فى حجرة.. ومتى كان هذا التاريخ ؟ فى أواخر القرن السادس الهجرى " الثانى عشر الميلادى " أى عندما كان أحد طرفى العالم الإسلامى جامعة قرطبة ، وطرفه الآخر مدارس بلخ وبخارى ، وكانت كل أراضى القدس والسواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر المتوسط تحت سلطة المسلمين ، بل وكانت جزيرة صقلية قاعدة لهم ، وبعد هذا التاريخ ، وعلى الفور يتحول المسيحيون المسلمون والساخرون من الجهاد الإسلامى إلى صليبيين مجاهدين ، وفى الحروب الصليبية الطويلة يضعون أساس الإقتباس من الفنون والمعارف الإسلامية ، بحيث تبدل الغرب المسيحى بعد خمسة قرون إلى أرياب رأس المال والفن والمعرفة ، وبعد سبعة قرون أو ثمانية إلى أرياب الصناعة والآلة والتكنولوجيا ، ومن هنا : إذا كان الغرب المسيحى فى خوفه من الفناء والاضمحلال فى مواجهة خطر الإسلام قد استيقظ دفعة واحدة وشكل جبهته ونهض للمقاومة ، ولا شك أنه نجا ، ألم يصل الدور إلينا الآن لكى نحس فى مواجهة

قوة الغرب بخطر الفناء ، وننهض ، ونشكل جبهتنا ونقاوم ؟

لكن فيما يتصل بقصر أيدينا ، وذلك النوم المفاجيء ، هناك نقطة أو نقطتان قليلا ما سمعتم بهما ، أو قرأتم عنهما ، وسأتناولهما ، وراجعوا بقية النقاط فى تاريخ الحضارة .

النقطة الأولى : أن هضبة إيران حتى ما قبل كشف الطرق البحرية ، وإن لم تكن الطريق الوحيد ، فإنها كانت على الأقل معبرا لأعظم الطرق من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، من الصين والهند إلى سواحل البحر المتوسط ، كانت معبرا للحرير والتوابل والورق والبضائع إلى العالم الغربى ، وفى طريق هذه القوافل التى تحمل الثروة ، كان أن رفعت مدننا الكبرى أسوارها ، ومثل محطات الأمن أعطت الملجأ لرجال القوافل من طرفى العالم تحت أروقتها ذات الظلال ، ومن هذا الطريق منحت الحركة والحياة للمدن والريف ؛ الطريق الذى كان يربط قندهار وهراة وطوس ونيشابور ذات المائة بوابة " والرى وقزوين وتبريز وخوى وارزنة الروم إما بطرابزون أو بديار بكر وطرابلس .. كان هذا هو الطريق الشمالى للحرير^(١) . أو الطريق الآخر الذى كان يربط شاطيء السند عن طريق البحر بهرمز وقشم ثم بكرمان ويزد واصفهان وورامين وساووه وهمدان وكرمانشاه والموصل حتى يصل ثانية إلى موانى البحر المتوسط الشرقية ، وبصرف النظر عن شاطيء مازنداران وصحراء خوزستان ، فكل منهما شأن آخر ومقال آخر ، فإن أقدم حضارات هضبة إيران قامت فى نفس هذه المدن التى ذكرتها أو إلى جوارها ، وهى مدفونة فى باطن التلال الضخمة . لكن منذ الوقت الذى فتحت فيه طرق البحر ، ووجد جواب البحار الشجاعة لشق قلوب المحيطات بون توقع من السواحل القريبة والأمنة ، منذ ذلك الوقت فصاعدا ، إلى جوار أن الغرب حصل على القارة الجديدة أمريكا ، وكانت فى حد ذاتها جسرا أخنوه فى الطرف الآخر من العالم ، ما حدث فى هذه الناحية ، أن كل ما تبقى من مدننا ومن حياتنا الحضرية نصف المنضبطة ومن حضارتنا هو الجلد ، مثل حية تتزع جلدها وتمضى ، مجرد جلد ، جلد محطات القوافل ، جلد المدن ، جلد

(١) المترجم : لمعلومات أكثر عن طريق الحرير أنظر : طريق الحرير تأليف إيرين فرانك وديفيد براونستون - ترجمة أحمد محمود - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ١٩٩٧ .

التقاليد والثقافة ، جلد الدين والعقائد ، جلد الأسس الإقتصادية . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، جاء الفقر بمعناه الدقيق ، وصرنا المنسيين فى دنيـــــــــا الأحياء ، جبانة الذكريات والتذكارات السعيدة للطرق المفتوحة والقوافل الغنية بالبضائع (١) ومنذ أن حسرت الثروة ظلها عن رؤوس مدتنا ، وحملت الهند والصين مباشرة عن طريق البحر إلى الغرب ، صرنا منسيين . تماما منذ ذلك الوقت ، كان أن انكمشنا فى شرنقة التصوف على الطراز الصفوى ، وفى شرنقة حكومة الوحدة القومية على أساس التشيع ، وعندما أدبرت عنا الدنيا ، أدبرنا عنها واعتبرنا الغرب نجسا ، وعندما اتفق طرفا العالم فى الاستغناء التام عن محطات قوافلنا ، صرنا نحن منطقة محايدة على حدود الهند ، منطقة ينبغي أن تظل هادئة وبدون تدخل غير مرغوب فيه ، ومهمتها الوحيدة ألا تعد أية مضايقة للهند ، أو تكون مصدر تهديد لشركة الهند الشرقية . ويظل هذا الوضع قائما حتى تطل رأس غول النفط من خوزستان ، إذ تصير مرة ثانية مركز اهتمام عالم الوجود وأساسا للنزاع بين الشرق والغرب والأمريكان والإنجليز مما يأتى فى موضعه ، على كل حال ففى دراسة أسباب تأخر الشرق الأوسط فى هذه القرون الثلاثة وتقدم الغربيين فى نفس الفترة ، لم أر حتى الآن أحدا أشار إلى هذه النقطة رغم أنها فى حاجة إلى أبحاث كثيرة .

(١) لدينا الكثير حتى الآن من هذا النوع من المدن : هرمز وبندر عباس ويوشهر وكرمان وابرغو وغيرها ، ولقد رأيت معظمها ، انتبهوا إلى هذه السطور من مخطوطة " راهنماي ايران = دليل طرق ايران " لفرخ غفارى " وجد الإصطخرى سنة ٢٤٠ هـ ابرغو مدينة مأهولة ، وبعد خمس وعشرين سنة اعتبر ابن حوقل أسواق المدينة عامرة ، وتقع هذه المدينة فى مسير إحدى الشعب المهمة للطريق التجارى فى عصر المغول ، وهو الطريق الذى كان يمتد من هرمز إلى كرمان فيزد فكاشان فالسلطانية فتبريز ومنها إلى البحر المتوسط ، وقد رآها حمد الله مستوفى سنة ٧٤٠ للهجرة . وفى أواخر القرن الخامس عشر أكيلاى " التاسع الهجرى " أدى كشف الطريق البحرى إلى الهند على أيدي البرتغاليين إلى بوار الطريق المعروف تماما ، وأخذت محطات القوافل والدور والمساجد فى ابرغو فى الخراب ، وقد خرب هجوم الأفغان سنة ١١٢٥ هـ المدينة بحيث يرادف إسم ابرغو اليوم أكثر مدن البلاد التى أصبحت مغمورة " المترجم : وانظر : فصل مدن تحت الرمال من كتاب طريق الحرير سالف الذكر .

والنقطة الثانية : أن دوقات جمهورية البندقية " رواد المسيحيين التجار أو التجار المسيحيين " لم يكونوا أول باحث عن حليف لمقاومة شر المسلمين- أى الأعداء فى الحروب الصليبية - فتوسلوا بالبدو الوثنيين فى شمال شرقى إيران ، فكان أول من عزف هذا اللحن قبلهم هم خلفاء بغداد ، فمن أجل إخماد الفتن فى خراسان والعراق ، قاموا كماء تحت تين ، ومدوا نطاق سائسهم حتى صحراء قره قورم ، وبالتدريج أعطوا جوازات المرور والسكنى والرعى فى كل المنطقة الشرقية للإسلام لجماعات مختلفة من القبائل وبدو الغز والسلاجقة والمغول ، وبلغ الأمر حدا أصبح معه كل القواد العسكريين فى خراسان وبلغ والعراق منذ أواخر العهد السامانى من القبائل ممن يحملون ألقاب اتابك وأسماء أرسلان وسبكتكين ، على كل : إن لم يكن هذا الأمر قد تم عن عمد ، فمن المسلم به أن البحث عن حليف ومعين لليوم الفاصل فى مواجهة شمولية الإسلام كان قد بدأ قبل بناء أبراج تجارة جنوة والبندقية وأسوارها بسنوات ^(١) وهذا هو قول أحد الأوربيين فى هذا الشأن : " إن الأهمية التاريخية لتتصر الترك كبيرة جدا ، ونعلم أن ولاية الصفد التى سكنها الترك الغربيون منذ سنة ٥٦٥م فصاعدا كانت واحدة من أكبر مراكز الكنيسة النسطورية ، ومن هذا المكان وأيضا من ولاية بلخ انطلق المروجون ^(٢) النسطوريون لتتصير آسيا ، وفيما يبدو أنه حوالى سنة ١٠٠٠م قد يكون المروجون النسطوريون قد أتموا تنصير أعقاب قبائل الترك فى آسيا الوسطى ، وهذه القبائل عبارة عن " الأونجوت " فى منغوليا الداخلية وال " قره ايت " فى منغوليا الوسطى والنايمان

(١) عندما أترك حسن الثانى الإسماعيلى المسمى بجلال الدين حسن أن المغول قادمون ، أرسل من خوفه سفيرا إلى فرنسا حتى يستمد العون من أهل الكتاب فى دفع الكفار ، لكن أهل الكتاب لم يكن لديهم الحماس للمساعدة ، وعندما يئس السفير من الفرنسيين عبر البحر ونهب إلى إنجلترا ، وحمل نفس الرسالة ، ووصل السفير سنة ٦٣٦هـ إلى بلاط إنجلترا ، وقد أورد المؤرخ الإنجليزى ماثيو باريث فى تاريخه تفصيلا للقاء المؤسف للسفير مع ملك إنجلترا ، وقد أجاب أسقف وينتشستر الذى كان حاضرا فى المجلس على استشارة ملك إنجلترا له قائلا : أترك هؤلاء الكلاب يتقاتلون ويبتلع كلاهما الآخر ، ومن ينجو منهم سوف نقتله نحن عندما نمضى لقتال أعداء المسيح " نقلا عن مقال مه وأفتاب = القمر والشمس بقلم مهرداد صمدى صص ٦٥ و٦٦ - كتاب هفته - ١٤ مهر ١٣٤٢ "

(٢) المترجم : المصطلح الذى ارتضاه أستاذنا المرحوم الدكتور احمد السعيد سليمان بدلا من المبشرين وهو فى محله .

فى منغوليا الغربية ، إلى جوار الأويغور الذين كانوا منذ فترة سابقة قد تأدبوا بأداب المسيحية فى صحراء جوبى ، وعلى كل حال لا يمكن تمييز الملامح نصف المسيحية لإمبراطورية جنكيزخان دون الإهتمام بالإيمان النسطورى لكل هؤلاء الأتراك الغربيين الذين كانوا يحاربون فى جيشه .^(١)

وبهذه المناسبة لن أتعجب أو أعتبره من قبيل المصادفة إذا رأيت العالم الإسلامى فى القرنين السابع والثامن الهجريين " الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين " يتعرض للخطر دفعة واحدة من ناحيتين : المغول بطابعهم نصف المسيحى من الشرق ، والصليبيين المسيحيين تماما من الغرب ، ويدخل ماركو بولو وأضرابه على هذا النسق إلى الساحة " والأوربيون الذين كانوا يقاتلون العثمانيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ويكتشفون السواحل الغربية لأفريقيا ، ويطوفون حول رأس الرجاء الصالح ، ويقاتلون المسلمين فى المحيط الهندى ، وينساقون خلف هذا التصور الخاطىء بأنهم سوف يجدون فى الناحية الأخرى من المحيط الهندى طيفهم القديم - أى خان المغول - معهم ضد المسلمين ، كانوا جميعا أحفاد الصليبيين الأوائل " ^(٢) وها أنتم ترون أن المسألة فى غاية الوضوح .

النقطة الثالثة أن الصليبيين الأوربيين الذين كانوا قد اجتاحتوا أرض العالم الإسلامى ، كانوا يتجمعون من كل أوربا - من السويد حتى روما - وكان أمر البابا فى أيديهم ، وخلف ظهورهم أموال بيوت التجارة فى جنوة والبندقية ومؤنها وخیولها وعلفها . وأنداك : مع من كانوا يتقاتلون باسم عالم الإسلام ؟ ليس مع مجموعة الدول الإسلامیة ، بل مع ممالك مصر فحسب - المعينين البعيدين عن الخلافة التى كانت فى سبيلها إلى الفناء . ولست أظن أنه حتى سعدى قد أسرف فى خندق طرابلس كمتطوع للجهاد ضد الكفار . وفى تلك الأيام لم يكن هناك أحد فى تلك المنطقة من ديار الإسلام يهتم بأن يرى الخطر ، ويقلع عن اللعبة الطفولية المسماة

1) Rene Grousset ,La Face de L'Asie .Ed, Payot- Paris,1962,PP ... 55

(٢) تاريخ تمدن غرب ومبانی آن برشرق = تاریخ حضارة الغرب وأسسها من الشرق - ترجمة پرویز داریوش - طبعة تهران - ابن سینا - ١٣٣٨ هـ.ش. ص ٢٢٢ .

بملوك الطوائف ، أو أن يتقاضى عن البحث فى قضية قدم القرآن وذلك من أجل قمع الخصم ، إلى جوار أن هجوم المغول كان قد وحد عالم الإسلام فى الخراب ، بحيث لم يكن قد بقى ميدان واحد يرفع فيه رجل رأسه . وفى مثل تلك الأيام كان ماركو بولو يجوب تلك الساحة مناديا : هل من مبارز كسفير للبابا فى الواقع وكتاجر فى الظاهر ، ويمضى إلى تهنة الخان الأعظم ، لأنه مهد طريق النفوذ لتجار البندقية إلى هذا الحد . والنتيجة الفورية لتردد هذا البندقي انتظام طرق الحرير والتوابل ، وكانت قصور البندقية فى مقابلها تصير مسرحا لأمثال قصة روميو وجوليت . ونتيجة لمساعى سفراء المغول وتجار البندقية ، فتح طريقان كبيران : أحدهما طريق ارمينيا الكبير " تبريز - خوى - مناز گرد - ارزنة الروم - طرابزون " ، والآخر طريق ارمينيا الصغير " تبريز - ارزنة الروم - سيواس - الإسكندرونه ^(١) ، لكن فتح القسطنطينية على أيدي المسلمين العثمانيين ، ونهاية حكم الدولة الرومانية الشرقية البيزنطية " سنة ٨٥٧ هـ . " ١٤٥٣ م " ، قطع من جديد هذين الطريقين الجديدين الأمنين ، وجاهدت أوروبا المسيحية التى اعتادت على خيرات الشرق فى البحث عن طريق جديد ، ونتيجة لهذا البحث ، كان أن اكتشفت أمريكا فى البداية ، ثم تيسر المرور من رأس الرجاء الصالح ، وتماما بعد فتح القسطنطينية بثلاث وخمسين سنة ، وبعد تأسيس الأسرة الصفوية بأربع عشرة سنة " ٨٩١ هـ - ١٤٨٦ م " عبر بارثولوميو دياز من رأس الرجاء الصالح ، وبعدها بخمس سنوات وصل فاسكو دى جاما من نفس ذلك الطريق إلى البحار الدافئة ورسا فى ميناء كالكتا فى الهند ، وبعده بسبع سنوات استولى البوكرك بقوة مدافعه على مركز حكومة أمراء هرمز ، وحط على فوهة خليج فارس ^(٢) حتى يستطيع بعدها أن يدق المسمار الأول للإستعمار فى "جوا" بالهند ، نفس ذلك المسمار الذى أقتلع من الأرض بعد خمسمائة سنة .. أى فى أيامنا هذه .

(١) مطالعاتى در باب نحرین وجزایر وسواحل خلیج فارس لعباس اقبال - ط. تهران ١٣٢٢ ص ٥٠

(٢) " جزیره خارک " لکاتب هذه السطور - ط تهران - دانش - خرداد ١٣٢٩ صص ٧١ و ٧٢ .

كل هذه وقائع تاريخية ، وهي صحيحة في موضعها ، لكن الغرب كان قبلها وبعدها يفكر في وسائل أخرى ، وآخر نقطة أذكر بها هي أنه إذا كان أحد الأسباب الأصلية لهجوم المغول على العالم الإسلامي لا يرجع إلى تمهيدات مسبقة من المسيحيين في صحارى الغور البعيدة ، فعلى الأقل في هجوم تيمور على هذا الجزء من العالم بآثار أقدم أكثر من تحريض الأوربيين العاجزين في الحروب الصليبية والمحتاجين إلى خيرات أسواق الشرق ، ولن أمضى في تتبع آثار الأوربيين لأنهم - على كل حال - متجهون إلى أقوالهم وأفعالهم في مثل هذه المواقف ، ومن الأفضل أن نتصفح أوراقنا حيث يمكن أن نرى البله والصمم أكثر .

يقول ابن خلدون الذى لحق فى أواخر عمره بتيمور وتحدث معه : (عندما كنت لا أزال فى المغرب ، كنت قد سمعت نبوءات كثيرة عن ظهور تيمور . كان المنجمون فى انتظار ظهوره حوالى عام ٧٦٦هـ ، وذات يوم رأيت فى فاس فى مسجد القرويين واعظ قسطنطينه أبا على بن باديس وهو حجة فى رأيه ، وسألته عن قران الكواكب الذى ينبغى أن يتم ، قال : يدل على ظهور شخصية قوية من الشمال الشرقى من بين سكان البدو سوف ينتصر على هؤلاء الملوك ، وسوف يستولى على أغلب دول العالم ، وعلاوة عليه ؛ كتب إلى "ابن زردز" الطبيب اليهودى لملك الفرنجة " بن الفونسو " عن نفس هذا الأمر)^(١)

انتبهوا إلى راوى هذه الأخبار ، أحدهما واعظ جاء من القسطنطينية التى كانت قد فتحت حديثا على أيدي المسلمين العثمانيين^(٢) والآخر طبيب يهودى من بلاط أحد ملوك الفرنجة ، ومن هنا ألا تظنون أن الحق معى فى أن أقرأ هذه الآثار الصريحة للخطوات ؟ وهذه الحقيقة التاريخية القائلة أن قيام المغول بالكس لم يكن قد قصم ظهر الإسلام بالقدر الكافى ، وفى الغرب كانوا يحلمون دائما بأن يأتى طاغية همجى آخر ويمرغ ظهر هذا البطل بالتراب فى النهاية ، وإذا كنتم حتى الآن تشكون ، إنتبهوا إلى أنه لا من نار المغول المدمرة ولا من مذابح تيمور وصلت شرارة واحدة إلى طرف ثوب المسيحية ، وروسيا التى تعرضت

(١) ابن خلدون : تيمور لك ترجمة سعيد نفيسى ونوشين نخت نفيسى - تهران - زوار - ص ٥٧ .

(٢) المترجم : من الواضح أن الأمر قد التبس على المؤلف بين قسطنطينه والقسطنطينية .

قليلًا للتأنيب ، كان ذلك لأنها ارثوذكسية ، ولم تكن تحنى جبهتها على عتبة البابا في روما ، وثانية .. إذا كان لديكم شك ، انتبهوا إلى أنه تمامًا بعد فتح القسطنطينية بخمسين عاما على يد المسلمين ، أسست الحكومة الصفوية في اربيل^(١) أى تمامًا لتكون في ظهر العثمانيين ، أنسب مكان لطعنة الخنجر ، وهل تعلمون أنه في موقعة چالديران حدث إلى جوار من ذبح من الطرفين " العثماني والصفوي " أن سفكت دماء نصف مليون مسلم ؟^(٢) لا تظنوا أنى قد قمت للدفاع عن الأتراك العثمانيين ، لا .. بل أريد أن أقول أنه نتيجة لهذه المشاحنات غير الحاسمة والدموية المحلية ، ونتيجة للدماء التى ضاعت من جرائها ، أننا أهل الشرق الأوسط قد ابتلينا بهذه المصائب اليوم ، وأريد أن أرى : هل لدى مؤرخينا الكبار من نوى اللحن والشوارب الحق فى الدفاع عن سياسة التفرقة المذهبية أو لا ؟ ربما كانت الأمور لتصح لو كان العثمانيون قد انتصروا أو لو لم يكن الصفويون قد عزفوا لحنا نشارا ، لكننا الآن ولاية من ولايات الخلافة العثمانية

(١) بتتويج الشاه اسماعيل سنة ٩٠٧هـ. وفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ. ، وأيضا انتبهوا إلى هذه الحقيقة التاريخية الأخرى : كانت زوجة اوزون حسن إينة كالجوان وأختا لداود آخر أباطرة طرابزون واسمها دسبينا كاترينا ومن هذه المرأة أنجب اوزون حسن ثلاث بنات وإبنا واحدا ، وإحدى هؤلاء البنات تزوجت من سلطان حيدر " والدالشاه اسماعيل " وهذه المرأة هى أم الشاه اسماعيل الصفوي وبنّت دسبينا كاترينا المسيحية اليونانية . " من مقال اوزون حسن بقلم دمتر عبد الحسين نوائى ص ٤٣ من مجلة ماهنامة فرهنگ. شماره ٤ سال ١٣٤١ " المترجم : واوزون حسن هو الذى استعان به الغرب لقتال محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية !! .

(٢) لم يقو إحياء القومية الإيرانية على أساس التشيع من الداخل فحسب ، بل كانت ضغوط العثمانيين من الخارج تساعد على هذا الأمر ، إذ كانوا قد أعلنوا أن التشيع زندقة ، وبلغ الأمر بالسلطان سليم العثمانى أن أعلن أن قتل شيعى واحد يثاب بثواب قتل سبعين مسيحيا ، وبناءً على نفس هذه الفتوى سفكت دماء أربعين ألف شيعى فى منبحة عامة بالأراضى العثمانية " من ص ١١٢ من كتاب سيمائى آسيا لرينيه جروسيه " وعلينا ألا ننسى أن ضعفى هذا العدد من أهل السنة قتل فى ايران " المترجم: أكثر من هذا بكثير فقد كان الشيعة فى ايران قبل الصفويين لا يزيبون عن عشرة فى المائة من تعداد السكان وبالقتل والهجرة والتغيير الجبرى للمذهب لا يبلغ أهل السنة الآن فى ايران أكثر من عشرة فى المائة أغلبهم من الكرد والبلوش . " بقية هامش المؤلف : ومن المؤسف أننى سمعت أن مزار الشهداء فى اربيل والذى كان المدفن العام لكبار الجند الإيرانيين فى موقعة چالديران قد أزيل منذ فترة ، وكالمعتاد بنيت فى مكانه مدرسة جديدة .

ولكن ألا يعنى هذا أن نكون الآن دولة من الدول المحتلة بالغرب ؟ وثانية : ألم يحدث أننا منذ بداية الإسلام وحتى ستة قرون أو سبعة من عمره أننا كنا على نفس الصورة؟ وفى حين أننا كنا فى الظاهر ولاية من ولايات خلافة بغداد ؛ أى كل حملناه على أكتافنا مع كوننا جزء من هذا الكل ؟ وألم يحدث أننا فى أشد سنوات سلطة الأمويين سوادا ، ألم نكن نحن الذين - استنادا على القومية وما كنا قد أعطيناه للإسلام من الصبغة الإيرانية - ألم نكن نحن الذين حملنا لواء العباسيين الأسود من خراسان حتى بغداد وصبغنا الإسلام بصبغة الحضارة الإيرانية وشعاراتها ، بحيث أن المستشرقين المبتدئين لا يزالون عاجزين عن تحديد كم فى المائة من الحضارة الإسلامية يجب أن تكون عناصر غير إيرانية قامت بها ؟

هدفى من كل هذا أن نتميز بسعة الصدر وننظر إلى أنه نتيجة لمثل تلك السياسات التى تثير الفرقة ، وإشعال تلك النيران الدموية غير الحاسمة والتى لم تصل إلى نتيجة ، والتى استمرت بالمساعدات الخفية للهيئة الدينية آنذاك ، وباستحسانات السفراء الغربيين المسيحيين الذين كانوا يوسعون فى نطاق الخلافات السنية الشيعية ، أية بلايا حطت على أم رأس الشرق أو على رؤوسنا نحن كلنا الذين يسمينا الغرب بسكان الشرق الأوسط ، وأية خسارات مزمنة فى الدماء ورثناها عن ذلك العهد ، وانظروا إلى الكاتب الأوربى يتحدث عن هذه السياسة التى تثير الفرقة ، والتى تضعف الشرق ، بأى فخر يملأ أردانه ، وأى تدليس بالنسبة لنا ، أجل يقول نفس السيد رينيه جروسيه : (وهكذا تجد إيران مكانها فى صف الدول العظمى التى التى تدير أمور العالم ، وأول علاماتها علاقات بلاط اصفهان من ناحية بخان المغول الأكبر " المقصود بالطبع امبراطور المغول التيموريين فى الهند " ومن ناحية أخرى بالقوى الغربية ، وهذه العلاقات مع الغرب ذات أهمية قصوى على وجه الخصوص من وجهة نظر تاريخ العالم ، ذلك لأنها خلافا للإمبراطورية العثمانية حولت إيران إلى صورة الحليف الطبيعى للعالم المسيحى ، وبسبب هذه المسؤولية التاريخية كان أن توجه السياح الأوربيون الكبار فى القرن السابع عشر إلى بلاط اصفهان ، فى البداية الأخوة شارلى هؤلاء المغامرون الإنجليز المدهشون الذين صاروا أصدقاء شخصيين للشاه عباس ، ومن بعدهم تافرنبيه وشاردان الخ) (١)

1) La Face de L'Asie , PP. 116 - 117 .

والآن دعوني أعطى القلم مرة أخرى لابن خلدون مصداقا للقول الشائع " أنا لا أشكو من الغرباء الخ " يقول هذا السيد عن شخصية تيمور " يعتبره بعضهم صوفي المسلك ، ويعتبره بعضهم رافضيا ، لأنهم رأوه يقول بأفضلية لآل على (١) وها أنتم ترون أن اللفظ قد بدأ قبل الصفويين بكثير ، ثم ماذا فعل هذا التيمور الرافضي ؟ قام مرة أخرى بتدمير العالم الإسلامي ، بحيث لم يبق عن الكرامة علامة ولا منها أثر ، وإذا كان هولاكو المغولي سنة ٦٥٦ هـ. كتم الخليفة العباسي باللباد حتى خنقه ، وذلك خوفا من زلزلة الأرض والسماء والغضب الإلهي ، فإن هذا البلطجي الثاني - أي تيمور - وضع يلدرم بايزيد " أي بايزيد الصاعقة " الذي كان آخر سلاجقة تركيا (٢) في قفص وعرضه كالiber راقصا أمام المسيحيين غير المسلمين ، ويعد هذه الأحداث تساوت الدويلات المتنازعة في القرن الثامن الهجري في الرعب والخراب والعجز ، بحيث أن الصفويين كانوا يستطيعون عدم الالتجاء إلى المذابح لأخذ البيعة .

والغرض من كل هذا التحليل ليس التأوه أو التأسف على ما مضى أو الفخر الأجوف من قبيل : أنا رستم الوحيد الفريد كان في سجستان أو لم يكن ، بل هدفى هو. أن أعلم كيف دب الدود في الشجرة نفسها ، بحيث أن سعدى الإنسان الصادق يقول قبل مقتل خليفة بغداد وفي معمعة غارة المغول :

في تلك الساعة التي طاب فيها وقتنا كان قد مر على الهجرة ست وخمسين سنة وستمائة .

وابن خلدون الذي جاب غرب العالم الإسلامي كقاض ووزير وكاتب لجلسات الأمراء ، وكتب مثل كتابه هذا في فلسفة التاريخ ، كيف استسلم هو نفسه للقضاء ، وفي الهمود الناتج عن الصراعات الداخلية لأمراء المسلمين في الأندلس ، كان قد بلغ من اليأس والإحباط مبلغا بحيث كان ينتظر مع مختلق الأخبار بشوق همجيا موحدا للعالم ، حتى وإن كان هذا التوحيد في الخراب .

(١) نفس كتاب ابن خلدون عن تيمور لك ص ٧٣ .

(٢) المترجم : لم يكن السلطان بايزيد الملقب بيلدرم أو الصاعقة آخر سلاجقة تركيا بل أحد السلاطين العثمانيين .

٦- أول أنواع العفن

وهكذا ففي شرقنا الأوسط المعاصر لبزوغ عصر النهضة في الغرب ، كان شيطان محاكم تفتيش العقائد في العصور الوسطى يرفع رأسه ، وكان أوار تتور الخلافات والحروب المذهبية يزداد ، وكما رأينا في الصفحات السابقة ، علاوة على أن هذه المنطقة من العالم كانت آخذة في الخلو من القوافل التي تحضر البضائع ، وتقع لهذا السبب في خلوة فقرها وتصوفها ذي الطابع الصفوي . ومن هنا كما قال السيد فريد بدأنا نحن من حيث انتهى الغرب تماما ، وعندما استيقظ الغرب في بعثه الصناعي ، استغرقنا نحن في نوم أهل الكهف . دعنا من هذا ، فلدينا نفس لعبة الميزان هذه في فترة التنوير التي بدأها الغرب في القرن الثامن عشر الميلادي ، وبدأناها نحن في أوائل القرن العشرين " الثورة النيابية " حين بدأت أوروبا تميل إلى الاشتراكية والنظم الموجهة في الاقتصاد والسياسة والثقافة .

ولتأخذوا مذكرات سفر كل أولئك الأشخاص الذين جاءوا إلى هذا الجزء من العالم طوال العصر الصفوي كسواح أو تجار أو سفراء أو مستشارين عسكريين ولتقرأوها ، وأغلبهم من اليسوعيين الجزويت ^(١) ترون كم كانوا من المشجعين لكل هذا التخريب ، وكم من التبريرات ، وكم من اخفاء القبيح بالملق ، والزينات التي وضعوها على تعطش الشاه عباس الصفوي للدماء ، أو بلاهات السلطان شاه حسين . وحقيقة أننا منذ ذلك الوقت وأذانتنا رهن باستحسانات الأوربيين الجالسين على حافة المستنقع ، وهم في الحقيقة المربون الأصليون لأمرائنا ورجالائنا في الثلاثمائة سنة الأخيرة ، وكل صيحات الاستحسان هذه مثل رقية في أذن حارس شيخ متعب ، لكي ينام مستريحاً حتى يسرق الآخرون القافلة .

هؤلاء هم الينابيع الأصلية لهذا السيل من الابتلاء بالتغريب ، ولسوء الحظ لا

(١) أسماؤهم تملأ بفترا ، وأفضل مصدر من أجل التعرف عليهم جميعاً كتاب " زنكي شاه عباس = حياة الشاه عباس " لنصر الله فلسفي في ثلاثة مجلدات والمهم أن أول وأغزر مادة لعلم الاستشراق هي مذكرات هذه الرحلات ، وأغلب المستشرقين أنفسهم هم من صغر الأبدال إلى جوار هؤلاء الأقطاب .. اقرأوا كتاب نصر الله فلسفي لتعلموا ما أقول .

تزال آذاننا معتادة على هذه الاستحسانات المغرضة لموظفي وزارة الخارجية الذين يأتون كل بضع سنين إلى هذه الناحية في رداء مستشرق أو سفير أو مستشار ، وفي النهاية يعدون بفترا جالبا للوهن من قبيل : أجل رؤوسكم رؤوس أسود ، وذيولكم ذيول فيلة ، ونحن - أي نفس أولئك المصابين بماليخوليا التعاطم الكاذب منذ عهد خسرو انوشيروان وتفتتنا المجاملة - على ما نحن عليه ، وفي أثر هذه الزيارات والترددات من النوع الجديد ، يعرف الأوروبيون أخلاقنا وطباعنا ، ويتعلمون كيف يحتفظون بنا وأيدينا على أفواهنا ، وكيف يمنحون القروض ثم يسيطرون على الجمرك في مقابلها ، أو كيف يكسرون في أسواق منافساتهم احتكار الحرير في الدولة ، والذي كان في يد الملك آنذاك " في عصر الصفوية ، وعندما تستقر أحوالهم ، يريحون بالهم من ذلك البطل الصفوي المزعوم على أيدي الغلجيين الأفغان ، بحيث يصير بالتدريج مخيفا يقدر ما يخيف الملواح " خيال المائة " ، وي بعدها أيضا يأتي نادر ويهاجم الهند بذلك القدر من الغباء ، وتاما في نفس الوقت الذي كانت فيه شركة الهند الشرقية - أي الاستعمار الغربي - منهمكة في دق خيامها ومعسكراتها في جنوب الهند ، كان من اللازم أن يكون رأس بلاط محمد شاه في شمال الهند مشغولا ، وبعد أن تدق رأس نادر أسفل الجدار ، تكون قصة " تركمان چاي " ١٢٤٢/١٨٢٨ التي كانت آخر نهيق من ذلك الغافل الذي يرتدى جلد الأسد ، ثم بعدها قصة محاصرة هرات " ١٢٧٣/١٨٥٧ " وحصار واحد لمدينة بوشهر نتف آخر صوفة من هذه اللحية والمسن ، وهكذا ووريت جثة هذا البطل في القراب .^(١) وفي هذه الخمسين أو الستين سنة الأخيرة ، عندما ظهر النفط ، ووجدنا ثانية شيئا ما كسبب للوجود ، ونتيجة لنفس تلك

(١) المترجم : يمر المؤلف مرورا عابرا على أحداث مهمة في تاريخ ايران المعاصر معلومة لدى قرائه في ايران ويربطها ربطا شديدا بتقديم النفوذ الغربي وبالتالي نقشى داء الابتلاء بالغرب ، وأي كتاب من كتب تاريخ ايران المعاصر يمر على هذه الأحداث دون أن يلقي بالا إلى ما ورائها ، لكن على كل حال من يريد أن يعرف تفاصيل هذه الأحداث كأحداث ليرجع إلى : دونالد ولبر: ايران ماضيها وحاضرها - ترجمة عبد النعيم حسنين - ط٢ ١٩٨٥ - صص ٨٦-١٠٢ أو تاريخ ايران بعد الإسلام - تأليف عباس اقبال - ترجمة محمد علاء الدين منصور - دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة - صص ٦٣٩ - ٨٥٥

التمهيدات والسوابق ، جرت الطواحين بكثير من المياه ، بحيث سقط مصير سياستنا واقتصادنا وثقافتنا دفعة واحدة فى أيدي الشركات والحكومات الغربية ، أما الهيئة الدينية التى كانت آخر أبراج المقاومة وأسوارها فى مواجهة الأوربي منذ عهد الثورة النيابية ، فقد غاصت داخل أصدافها فى هجوم تباشير الآلة ، وأغلقت باب العالم الخارجى أمامها ، ونسجت شرنقة حول نفسها ، ربما تتمزق يوم الحشر ، وذلك لأنها تقهقرت خطوة بخطوة .

وأن يُعلق أحد رجال الدين فى الثورة النيابية على المشتقة لأنه مؤيد " للمشروعة " (الشرعية فى مقابل الدستور) أمرٌ فى حد ذاته يعد دليلا على هذا التأخر والتقهر ، وأنا أوافق الدكتور تندر كيا الذى كتب أن الشيخ الشهيد نوري قد شق ليس لأنه من أعداء الدستور بل لأنه مدافع عن الشريعة^(١) وأنا أضيف : وباسم مدافع عن شمولية التشيع الإسلامى ، ولنفس السبب قبح الجميع عند مقتل ذلك الشيخ منتظرين فتوى من النجف . وأيضا فى نفس ذلك الزمان الذى كان فيه أئمة الفكر عندنا هما ملكم خان المسيحى وطالبوف الإشتراكي الديموقراطى " الشيوعى " القفقازى^(٢) ، وعلى كل حال منذ ذلك اليوم رسموا على جباهنا صورة التغرب كأنها الوسم ، وأنا أعتبر جثة هذا العظيم على المشتقة مثل راية (تدل على سيطرة التغرب بعد مائتى عام من الصراع) نصبت على سطح قصر هذه الدولة .

(١) نقلا بالمعنى عن " شرح حال شيخ شهيد نوري = سيرة الشيخ الشهيد نوري " بقلم دكتور تنديركيا - فى مقدمة آخر شاهين - ط . تهران سنة ١٣٢٥ صص ٢١٠-٢١٩ . المترجم : وعن ملايسات المجلس النيابى الأول وظروف مصرع الشيخ فضل الله نوري أنظر للمترجم : الثورة الإيرانية الجنور والأيدولوجية - ط٢ - الزهراء للإعلام العربى - القاهرة ١٩٨٨ - صص ٨٢-٨٦ .

(٢) المترجم : كتبت رسالتان للدكتورة ، قدمتا إلى جامعة القاهرة فى العامين الأخيرين ، إحداها عن ملكم خان والأخرى عن طالبوف ، وكتاهما دليل على الغيبة الكاملة عن لب الموضوع ، ومجرد نقل من المصادر الشاهنشاهية ، ولم تذكر كلمة التغرب مرة واحدة ، ولم يذكر جلال آل احمد مرة واحدة أو شريعتى ، ناهيك عن عشرات المصادر الفارسية والأوربية " !! " التى تحلل وتذكر الراى الآخر . والرسالتان مع ذلك أجيّزتا بمرتبة الشرف "!!!!" .

والآن تحت لواء هذه الراية ، نشبه قوما غرباء عن أنفسنا ، فى ملابسنا ومسكننا وطعامنا وأدبنا وصحافتنا والأخطر من كل هذا فى ثقافتنا ، نُربى كمتفرنجين ، ونبحث عن حل لكل مشكلة كمتفرنجين . (١)

وإذا كان الخطر فى صدر الثورة النيابية كان تحت أذانتنا ، فقد استقر الآن فى أرواحنا ، بداية من ذلك القروى الذى هرب إلى المدينة ولن يعود ثانية إلى القرية ، لأن الحلاق المتجول فى قريته لا يوجد " بريانتين " فى حقيبته ، ولا توجد سينما فى القرية ، ولا يستطيع أن يشتري " ساندوتش " ، حتى ذلك الوزير الذى يصاب بالحساسية من الغبار والتراب ، فيتسكع فى السنة اثنتى عشرة شهرا فى أركان العالم الأربعة . ولماذا صار الحال هكذا ؟ لأنهم جميعا هذان الجيلان أو الثلاثة الذين وجدوا لأنفسهم حيثية بين الحثيات بعد الثورة النيابية ، وصاروا معلمين وكتابا ووزراء ونوابا ومديرى عموم ، ولم يتخصص أى انسان فى أى مهنة أو حرفة إلا الطب ، كلهم إن لم تكن أعينهم متوجهة مباشرة إلى انحرافات عهد شبابهم الذى كانوا قد قضوه فى باريس ولندن وبرلين ، فعلى الأقل لا تزال أذانهم رهن " سه مكتوب = الخطابات الثلاثة " لأقا خان الكرمانى ، وخطاب إلى جلال الدولة ، وإلى بقية متغربى

(١) انظر " تسخير تمدن فرنگى = سيطرة الحضارة الغربية " لسيد فخر الدين شادمان ، ط تهران سنة ١٣٢٦ ، وله فضل السبق على ، إذ نهض قبل سنوات من كتابة هذه الأوراق لعلاج " التأرب " ، واقترح التعليم الجدى للغة الأم ، وترجمة الأعمال الفلسفية والعلمية والأدبية للغرب ، وبالرغم من أنه كان واعيا ، إلا أنه لم يكن يملك وصفة مجرية ، وذلك لأننا منذ ذلك الوقت وحتى الآن ترجمت آلاف الكتب الغربية ، وكل منا قرأ معلومات عامة أوربية ، لكننا نميل إلى التأرب يوما بعد يوم . وذلك لأن هذا التأرب أو بتعبيرى أنا " الإنحراف " هو فى حد ذاته أحد الأعراض البسيطة لمرض أكبر هو التغرب ، وربما كان الذى أكتشف الطريق قبل الجميع للسبب الأسمى لهذه المشكلة هو الدكتور محمد باقر هوشيار ، وبالرغم من أنه كان مشهورا بالبهائية إلا أنه كتب سنة ١٣٢٧ " لقد رأيت من فرجة الباب أن الأوربيين كلهم متعلمون ، لكنكم لم تروا رسوخ تقاليدهم ورسومهم ، ولا تعلمون أن جهاز التعليم عندهم من روضة الأطفال حتى الجامعة قائم على الكنيسة ، ومنذ فترة قمتم بالقضاء على هذا الأساس فى بلدكم وكنتكم إناء أكثر حرارة من الحساء [مجلة أموزش وپروزش = مجلة التعليم والتربية - سنة ١٣٢٧ من مقال تحت عنوان أموزش همگانى ورايگان = التعليم العام والمجانى] .

الصدر الأول للفترة النيابية على ألسنة ملكم خان وطالبوف والآخرين وأقلامهم (١) وإلى مدى رأى كاتب هذه السطور هؤلاء السادة الذين يرى كل منهم أنه "مونتسكيو" وطنه ، وقد افترض كل منهم فى ناحية ، وإلا ربما اتفقوا جميعا فى هذه النقطة ، وأحسوا عن فهم أو غير فهم أنه لا طاقة لمجتمعنا القديم وتقاليدنا للمقاومة فى مواجهة هجوم الآلة والتكنولوجيا الإجبارى ، وكلهم سقطوا فى هذه المتاهة التى هى "الأخذ بالحضارة الغربية نون التصوف الإيرانى" (٢) ولكن علاوة على هذه الوصفة غير المجربة ، ذهب كل منهم إلى طريق مختلف بحثا عن علاج للداء ، كان أحدهم يسعر النار تحت قدر أرز السفارة ، والآخر مقلدا للغرب ظن أنه ينبغى أن تدخل "اللوتريه" ، وبإصلاح دينى يمكن أن ينقث الروح فى التقاليد القديمة ، والثالث دعا إلى الوحدة الإسلامية فى وقت كانت منبجحة الأرمن والكرد قد نقت طبول فضيحة العثمانيين على رؤوس أسواق الدنيا .. عفوا إن كنت أتحدث بالكنايسة ، فالموضع ليس موضع صراحة .

فى هذا الصدر الأول للفترة الدستورية "١٩٠٦-١٩١٢" ، كانت الركيزة الأساسية فى أعمال زعماء القوم هى أن الموافق والمعترض كانوا يظنون أن "الإسلام = الشريعة = المذهب" كان لا يزال يتسم بهذه الشمولية الجامعة ، بحيث يكون حافظا أو سدا فى مواجهة نفوذ الآلة والغرب ، ومن هنا قام أحدهم للدفاع عنه ، وقمعه آخر . ومن هنا فوجئنا بأن الدستور والشريعة مفهومان متناقضان عن عدم التدين والتدين ، ومن هنا أظن أن كل هؤلاء السادة قد نفخوا

(١) فى رسائل "اسلام ، أخوند وهاتف غيب = الإسلام والشيخ وهاتف الغيب" و "هفتاد ودم ملت = ثقتان وسبعون أمة" و "رساله يك كلمة = رسالة كلمة واحدة" و "سياست طالبى = سياسة طالب" و "سياحتنامه ابراهيم بك = كتاب سياحة ابراهيم بك" .. الخ ، وكلها دعاية للتغريب ، وقامعة للخرافات باسم الدين .. وفى رأى أنهم كانوا ممهدى الطريق للتغريب .

(٢) عبارة ملكم خان بنصها . من مجموعة أعماله طبعة محمد محيط طباطبائى - تهران ١٣٢٧- وانظر أيضا "فكر آزادى = فكر الحرية" لفريدون آدميت - طهران ١٣٤٠ ، وهو بمهارة خاصة ينكر جماعة منهم كماسون ويبرى جماعة أخرى ، فى حين أننى أعد الماسون جميعا نسخة واحدة ومثال واحد .

فى البوق من طرفه المفتوح ، وبالرغم من اننا لو كنا نعيش فى ذلك الزمان لكرنا
تخبط الفريقين ، ولما كنا موجودين الآن لنسجل مثل هذا الحكم الصعب ، وذلك لأن
هؤلاء السادة على كل حال كانوا أقرب منا إلى زمان ميرزا الشيرازى الكبير ، الذى
قام عن طريق فتوى بسيطة بطل دفترا امتياز الدخان الذى أعطى للشركة
الإنجليزية رجبى (١) ، وبين أية قاعدة تكون للهيئة الدينية وأى خطر ، وعلى كل حال
كان هؤلاء الرجال الطيبون فى بداية الحركة النيابية غافلين عن أن إله التقنيّة فى
أوربا نفسها ، وأنه منذ سنوات يتحدى من فوق عروش البورصات والبنوك ، ولم يعد
يتحمل بعد إلها آخر ، ويسخر من لحيّة كل التقاليد والأيدولوجيات ، أجل .. هكذا
كان أن قمع الدستور كرائد للآلة رجال الدين ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، أبعدت
المدارس الدينية فى فترة عشرين سنة إلى مدينة أو مدينتين ، وقطع نفوذها عن
أجهزة العدل والإحصاء ، ومنعت من ارتداء زيها ، بينما لم تقم الهيئة الدينية فى
مواجهة كل هذه الضغوط بعمل ما كرد فعل فحسب ، بل ظلت فى اسار علوم المقدمات
ومقارنات الصلاة ، أو فى اسار النجاسات والطهارات أو حائرة بين الشك والوسوسة ،
وعندما اهتمت كثيرا حرمت الراديو والتلفزيون اللذان كانا قد انتشرا ، ولا يستطيع أى
رستم " بطل " ان يقف فى مواجهتها ، بينما كان على الهيئة الدينية ومن حقها أن
تتسلح بسلاح العدو ، وتقوم من خلال محطة ارسال إذاعية تلفزيونية خاصة بها من
قم أو مشهد - كما يفعلون فى الفاتيكان - بمقاومة تغرب محطات الإرسال الحكومية
ونصف الحكومية . لأحدث كناية .. لو أن الهيئة الدينية كانت تعلم أنه بالمبدأ القائل
" بعدم إطاعة أولى الأمر " أية جوهرة ثمينة تمتلكها كأنها النطفة فى مواجهة حكومة
الظلمة والفاسقين ، واحتفظوا به حيا فى قلوب الناس ، ولو كانت تستطيع أن توضح
الماهية الخاصة لأولياء الأمر هؤلاء للناس بوسائل الإعلام الخاصة بهم " الصحف
والإذاعة والتلفزيون والأفلام وغيرها " ، وأن تنقل أحكام الأمور العامة إلى الأمور
الخاصة ، ولو أنها كانت تستطيع عن طريق التردد على الأوساط الدولية
الدينية أن تمنح عملها حركة وحياة ، لما كانت قد وقفت قط على هذه الجزئيات ،

(١) المترجم : تفصيلات أنظر : الثورة الإيرانية الجذور والأيدولوجية للمترجم صص ٥٧-٧٤ .

ونتيجتها الغفلة التامة ، والعزلة عن ساحة الحياة .^(١) دعنا من هذا ، وكشاهد ومثال أخير ، أشير فحسب إشارة واحدة إلى الدور الذي لعبته شركة واحدة فحسب من شركات النفط في سياستنا ومجتمعنا في هذه السنين الأخيرة ، ثم اترك كل هذا المبحث التاريخي .

ولقد منح امتياز النفط بالتحديد في السنة الأولى من القرن العشرين ، أعطاه الشاه القاجارى لويليام فوكس دارسى الذى باع فيما بعد حقوقه إلى الشركة المعروفة . ونحن تماما منذ سنة ١٩٠٦ ونحن مشغولون بضجة الحركة الدستورية .. وأين كان مجال الإتفاقية ؟ السفوح الجنوبية الغربية لجبال البختيارى ، ولا تزال أول بئر للنفط باقية في مسجد سليمان ، إننى ينبغي أن تحفظ السفوح الجنوبية الغربية

(١) فى الفترة ما بين الطبعة الأولى والطبعة الثانية لهذا الكتاب ، صدر كتاب اسمه " مرجعيت وروحانيت = المرجعية والهيئة الدينية " - ص ١٢٤١ - طهران - شركة انتشار . يحتوى على الثروة المعهودة عن الهيئة الدينية ، لكنه يدل على إحساس ووعى نسبيين بهذه القضايا والمسئوليات ، ويحتوى على حلول ، خاصة فى مقالات المهندس بازركان استاذ الجامعة وسيد محمود الطالقانى إمام مسجد هدايت اللذين اقترحا أن يكون هناك بدلا من مرجع تقليد واحد أن تكون هناك لجنة تضطلع بمهام الفتوى ، ولو اعتبرنا هذا الكتاب برغم كل نقائصه نوعا من التنبؤ بأحداث ١٥ خرداد ١٢٤٢ " المترجم : ثورة الخمينى الأولى فى ٥ يونيه ١٩٦٣ " ، فأننا الآن وقد مر عام على هذه الأحداث أجد فى نفسى الجرأة على أن أعرض على الهيئة الدينية ما يلى :

أ- إذا كان قد تقرر أن تتخلى الهيئة الدينية عن مبادئها والتي أوردت أحدها

ب- وأن ترضى بالجزئيات كذلك وبتحريم ذلك الشيء أو تكفير هذا وذاك

ج- وتنسى أنه بالإستناد على مبدأ الاجتهاد والفتوى فإن الطريق أكثر انفتاحا بالنسبة لقبول تطورات العصر أمام أقدام الشيعة أكثر مما هو مفتوح أمام أقدام أهل السنة " فى نفس الوقت فإن فتوى حرية المرأة أصدرها الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر وليس علماء الشيعة)على كل حال ، إن لم تستطع الهيئة الدينية بالإهتمام بلأوضاع العصر أن تمرق الشرقة المحيطة بها منذ الصدر الأول للحركة النيابية ، فلا محيص إلا أن تقبل أن هذه الجبهة الأخيرة للدفاع فى مواجهة الابتلاء بالتغرب ، قد فقدت تفاعل الحياة وضجيجها ، وتبدلت إلى متحجرات لا مكان لها إلا المتاحف ، أو على الأكثر صارت واحدا من آخر ملاجئ كل القوى الرجعية .

لجبال البختياري خالية من المنتج الشتوي لقبائل البختياري حتى يستطيع حفارو آبار النفط أن يحفروا أرض "مسجد سليمان" وجبلها وصحراها ، ومن هنا تتجه قبائل البختياري^(١) لمساعدة مجاهدي تبريز ورشت لفتح طهران^(٢) وإذا كانت حركتنا الدستورية متسببة ، فلنفس هذا السبب وهو أن الخانات الإقطاعيين قد هبوا لمساعدة حركة تعارض الإقطاع في الأصل . نعم ، من هنا تُشغل رؤوسنا بالدستور والاستبداد حتى تشتعل الحرب العالمية الأولى ، فالشركات قد وصلت إلى النفط ، والبحرية الإنجليزية - وهي رسميا صاحبة امتياز نفط الجنوب - تمتلك آنذاك ما يكفيها من الوقود .

تلاحظون أنني لا أقوم بكتابة التاريخ ، بل استنبط ويسرعة شديدة ، أما الأسباب والأحداث ، فابحثوا عنها أنتم أنفسكم في كتب التاريخ .

انتهت الحرب سنة ١٣٠٠ بتقويمنا " ١٩٢٠ " ، وأصبح أصحاب الشركات منتصرين الآن ، وخمد أتون الحرب ، ولا بد من أن يقل الاستهلاك الخارجي للنفط ، ولا بد أن يوجد " زيون " له في الأسواق الداخلية ، ومن ثم يجب أن تكون هناك حكومة مركزية قوية على رأس الأمر ، حتى تؤمن كل الطرق ، وترفع جميع العقبات ، وتستطيع شاحنات النفط أن تذهب بيسر حتى قوجان وخوى ومكران ، وينبغي أن تبني محطة بنزين في كل قرية نائية ، وأهم من كل هذا لما كان صاحب

(١) تذكروا أن أحد المساهمين في شركة BP. للنفط كان سردار أسعد البختياري نفسه وايضا مشير النوله " نصر الله خان " ، وإذا كان سردار اسعد قد أعدم في عهد رضاخان ، ألا تظنون أنه لابد قد ادعى - كما فعل الشيخ خزعل في ادعائه ملكية أرض خوزستان - ملكية أراضي مشتى البختياري الغنية بالنفط وسبب المتاعب لحكومة ذلك الزمان ، تماما كما ادعت عشائر الحياة داودية ملكية خارك ويسببها أعدموا بالرصاص ؟ للكشف عن هذه القضايا أنظر " طلال سياه يا بلای ایران = النهب الأسود أو بلاء ایران " لأبي الفضل لسانی .

(٢) المترجم : المقصود زحف مجاهدي تبريز ورشت على طهران بعد أن قصف محمد علي شاه قاجار المجلس النيابي الوليد بالقنابل ، وقبض على الأحرار وأعدمهم بالرصاص في باغشاه ، بينما لجأ القوميون إلى السفارة البريطانية في ٢٣ يونيو سنة ١٩٠٨ لمطومات أكثر أنظر للمترجم : الثورة الإيرانية الجنور والأيدولوجية ط ٢ صص ٨٢-٨٤ .

الإمتياز الآن هو البحرية الإنجليزية ، ولم يعد لديها الصبر بعد على الفوضى الداخلية والمساومة مع الخانات والمجلس والصحافة ، وتريد أن تتعامل مع شخص واحد فحسب ، كان أن حدث عندنا الانقلاب العسكرى سنة ١٢٩٩ هـ ش. " وحكومة عسكرية استبدادية من بعده ، وتهجير للکرد واضطهاد لسميتقو^(١) وإعدام للشيخ خزعل ، الذى لو كان قد تصرف بتعقل قليلا ، لكان لدينا ثانيا لشيخ البحرين فى خوزستان .

ثم وفى سنة ١١٢١ " ١٩٣٢ " تكون مدة امتياز دارسى قد جاوزت منتصفها وفى سبيلها إلى الإنتهاء ، فلا بد أن يستغل صاحب الأصلى للإمتياز أى البحرية الإنجليزية - هذه السلطة المتمركزة الموجودة ، وكل أحاديثها من المجلس ومجلس الوزراء وحتى الجيش والأمن العام يتقوه بها شخص واحد ، وما دام القرن ساخنا ، تجدد الإمتياز . ، وهنا يصير " نقى زاده " من جديد أداة الفعل ، ويصوت مجلس الأراجوزات ، ويلغى امتياز دارسى فى البداية ، ثم يُعقد من جديد ، ويكل هذه الأبواق والمزامير ، بحيث لم يفهم حتى شيوخ القوم أية خدعة جرت فى الموضوع ، أو إن كانوا قد فهموا لم ينبسوا ببنت شفة ، ذلك لأننا لم نر من واحد منهم حتى شكوى من القضية ، حتى يمنع على الأقل إداة التاريخ من وسم جبهة مصيره ، اللهم إلا فيما بعد عندما دارت مجريات الأمور ، وعلى رأس جسر السنوات التالية لسنة ٢٠ " أخذوا كل حمار " أى اتهموا كل إنسان " . ولا جدال ينبغى أن تزين هذه الصورة القبيحة بشكل استعراضى يناسب الزمان ، أى إخفاء الواقع .. ويأى شكل ؟ بهذا الشكل الذى يصل إلى توحيد زى الناس بضرب الشوم ، ورفع اللبد من فوق رؤوس الرجال والحجاب عن النساء كآخر التطورات الراقية ، ومد طريق حديدى شامل ، ليس يدخل النفط ، بل بحصيلة ضرائب السكر ، والذى اكتشفنا أخيرا أكبر سبب لإنشائه وهو توصيل المساعدات إلى مؤخرة جبهة ستالينجراد فى سنوات الحرب العالمية الثانية .

(١) المترجم : اسماعيل سميتقو ، زعيم طائفة من كرد أنرييجان ، ثار على رضاخان ، وشرقت طائفته واضطهدت ، قتل سنة ١٣٠٩ . ١٩٢٠ انظر فرهنگ معين - جلد ٨٢ .

ثم وفي سنة ١٣٢٠ من تقويمنا " ١٩٤١ " تكون الحرب في اوربا ثانية ، وخطر رشيد عالي الكيلاني ، والغزل الذي كانت تتبادلته حكومة ذلك الزمان مع محصور " روما - برلين " ، وهي تظنه علامة بلوغ ، وهو خرف شيخوخة . وفي النهاية فإن أبقار حظيرة واحدة وإن لم تتآلف إلا أنها تكتسب نفس الرائحة ، ومما لاشك فيه أن هذا الأمر لم ليؤخذ على سبيل الهزل ، ورأينا جميعا ماذا حدث ، كل هذه السلطة والجبروت والجيش والركن الثاني والشرطية تفسخت في يوم واحد ، ولا شك مادام نابليون وهو قائد فرنسي قد رضى في عصر ما بجزيرة سانت هيلانه ، فمن الواضح أن قائدا ايرانيا سوف يعتاد على جزيرة موريس . ثم الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت قد تحركت حول نفسها قبيل الحرب العالمية الأولى ، وينبغي أن تستطيع أن تجعل سفنها المسلحة تأخذ النفط من الخليج ، ولو كنتم مكانهم : هل كنتم على استعداد لأن تدفعوا دولارا واحدا من جيوبكم في مقابل وقود السفن التي كانت تطوف الدنيا في سبيل الإنتصار على الفاشية أى نجاة الروس والإنجليز ؟ وأيضا لشركة النفط الإنجليزية ؟ أجل : من هنا تبدأ أرضية تدخل امريكا في قضية نفط الجنوب ، وبخاصة أنه في أزمة أذربيجان كان وزن السياسة الأمريكية هو الذى حرك هيئة الأمم ، فأجلت القوات السوفيتية من أذربيجان ، ولا بد أن يوجد التوتر والمطالبة بالحرية والحديث عن امتياز نفط الشمال أيضا ، مثل ملواح لا يريد الإنجليز أن يسلموا ساحته إلى أمريكا . وهذه الحرية المحدودة حتى سنة ١٣٢٩ " ١٩٥١ " حيث يؤمم النفط ، و" تكش " امريكا ، وتتغير قطع الشطرنج واحدة بعد الأخرى ، ينبغي أن " تكشش " إحداها ، وتمضى الأخرى إلى صندوق العدم . وهذه هي قصة الانتفاضة القومية في ٢٨ خرداد سنة ١٣٣٢ " ١٩٥٣ " (١)

وهذا هو معنى ما نسميه بالتبعية بين السياسة والإقتصاد ، وتبعية الغرب وشركات النفط والحكومات الغربية ، وهذا هو الحد الأقصى لمظاهر الابتلاء بالغرب في عصرنا ، وبهذا الشكل تغير علينا الصناعة الغربية وتحكمتنا وتمسك في قبضتها بمصيرنا ، واضح أنك ما دمت قد أعطيت زمام اقتصاد بلد ما وسياستها إلى

(١) المترجم : المقصود عودة الشاه بعد إسقاط مصدق على أيدي المخابرات الأمريكية .

الشركات الأجنبية ، فإنها تعلم ماذا تباع لك ، أو على الأقل تعلم ماذا عليها ألا تباع لك ، ولا جدال تريد أن تكون البائعة الدائمة للبضائع التي صنعتها ومن الأفضل ألا تستطيع أنت أبدا أن تستغنى عنها .. وليحفظ الله منابع النفط ، فهم يحملون النفط ويعطونك في مقابله كل ما تريد ، من لبن العصفور إلى روح الإنسان وحتى القمح . وهذا التبادل الإجبارى موجود حتى فى القضايا الثقافية ، وفى الأدب والشعر ، هيا تصفحوا الصفحات المعنودة للصحافة الأدبية ذات الوزن : أى خبر عن هذا الجزء من العالم موجود فيها ؟ أو عن الشرق بوجه عام ؟ عن الهند أو اليابان أو الصين ؟ كل الأخبار عن نوبل وتغير البابا وعن فرانسواز ساجان وجوائز كان وآخر مسرحيات بورنواى وأحدث أفلام هوليود . أما المجلات الملونة فأمرها منته . وإذا لم نسّم هذا بالابتلاء بالتغرب ، فماذا نسميه ؟ !

٧- مجموعة المتناقضات

والآن ، نحن والتشبهه بقوم غرباء ، وبتقاليد غير معلومة ، وبثقافة ليس لها فى أرضنا ولا فى جونا جنود وبالتالي لا تنتج فروعاً أو أوراقاً ، فى الحياة اليومية وفى السياسة وفى الثقافة ، ولهذا السبب فكل شيء عندنا أبتـر . ومن تكون فى الأصل هذه الـ " نحن " ؟ شيء يشبه من ١٩ إلى ٢٠ مليون إنسان ، ٧٥٪ منهم يعيشون فى الريف وتحت الخيام والأشخاص - بتقاليد عهد بداية الخليقة - فى غفلة تامة عن القيم الجديدة ، محكومون بتقاليد المالك والأجير ، ولم يرو آلة ، يستخدمون أدوات بدائية ، وطعامهم ووقودهم وملبسهم ومسكنهم كما هو خـلق يبدو : أى المحراث وخـبز الشعير وروث البقر والدمور والأكوام على التوالى ، والشيء الوحيد الذى تسـلل من عالم الغرب إلى هذا الريف التجنيد الإجبارى والترانزيستور ، وكلاهما أسوأ تأثيراً من الديناميت .

والتطور الالى إلى الحد الذى يحول " الكرسي = المدفأة الإيرانية التقليدية " إلى مدفأة متطورة هو الخطوة الأولى ، لكن فى هذه الأرياف التى عندنا لا يعرفون حتى الفحم ، فما بالك بالنفط ، ونحن دولة منتجة للنفط ، ونجاهد كثيراً من أجل نشر استخدام النفط ، ومع ذلك فإن معدل استهلاك البنزين والنفط عندنا هو ٢٥٠ لتر فى السنة للفرد ، طبعاً مع كل هذه السيارات المهترئة التى تستهلك كثيراً من البنزين فى المدن كما ترتكب حوادث كثيرة ^(١) وبهذا القدر من البنزين لا يمكن طبخ " عجة واحدة . هذا فى حين أن التغريب يستوجب أن نلقى بهذه القرى بظروفها التى عدتها تحت رفسات التراكتورات متعددة الأصناف ، والتى نحن مضطرون إلى شرائها بضمان أموال النفط أو فى الأصل فى مقابل النفط .. وماذا يفعل هذا الجرار إنن ؟ يخط كل الحدود والنظم بين الأراضى التى وضعها الأجداد ، تعال وانظر أية مذابح حدثت بسبب هذا الجرار الأعمى المنتسب إلى القرن العشرين ، وكيف سرق ثلاثة أشبار من

(١) الاستهلاك الكلى لمنتجات النفط " غير القار والأنوية الكيميائية المشتقة من النفط " سنة ١٩٦٣-١٣٤٢ فى كل أنحاء إيران ٥ مليون طن ليتري ، وإن قسم بين ٢٠ مليون يكون للفرد ٢٥٠ لتر فى السنة ، أى أكثر قليلاً من نصف لتر فى اليوم .

ارض " كل مدولى " وأدخلها فى أرض " كل عباسعلى " ، ولقد أعددت أرشيفا من هذه المصادمات الدموية ورؤوس القرويين التى شجت بالقؤوس ، وذلك من أجل كتابة رواية . وأخيرا من قبل هذه الأوضاع والأحوال ، اعتبروا آخر وسائل التطور فى القرى هو تقسيم الأراضى وتوسيع نطاق طبقة الملاك الصغار ، أى تبديل كل أرض صالحة للزراعة إلى نسيج عنكبوت من الحدود والترتيبات الفردية ، بحيث تخنق كل آلة فى سداها ولحمتها ، وتسلب منها القدرة على العمل ، ثم تعال وانظر أية جبانة تحولت إليها مزارع المملكة للأشلاء المهترئة لهذه الجرارات ، فلا محطة للصيانة فى متناول أيديهم تشرف على عملها ، ولا أفق مفتوح ، ولا أرض واسعة حتى يمكن أن تجذب منها عملا ، ولا طريق بحيث تستطيع أخذها إلى المدينة لإصلاحها .. ومع هذا فإن أهالى كل قرية يقضون ثلاثة شهور فى السنة عاطلين تماما ، ضحايا للبرد والسيول وقلة الماء والجفاف والجراد .. ومتى يمكن حلها كلها ؟

وإذا كان طعام سكان بولة ما صناعية ومتقدمة يكفله عدد فى حدود من ٩٪ إلى ١٥٪ من سكان تلك البولة ، فقد خصصنا نحن ٦٠٪ من السكان عندنا لخدمة بطوننا ، وفى النهاية نستورد كل سنة القمح من أمريكا والسكر من فورموزا ، نحن الذين نعيش فى بولة اصطلح على أنها زراعية !! وإلى جوار هذا : ففى تلك الشهور التسعة التى يعمل خلالها أهل الريف الغيرون .. ماذا يعملون ؟ جمع الأعشاب لعلف الحيوان ، تجفيف الروث فى الشمس ، وأخذ البقر والخراف للشرب من الجدول ، أو إقامة مراسم صلاة الاستسقاء ، وإن لم تجد هذه الصلاة ، فالترانزيستور يقول لهم ، أنهم يجمعون النقود فى المدينة بالجاروف ، فضلا عن وجود سهرات لياالى الأربعاء ، إنن فلنأخذ الطريق إليها ، وعلى هذا النسق يهربون إلى المدن زرافات ، إلى المدن التى كانوا يحملون إليها فيما سبق الشبان الناضجين البالغين من أجل الجندية وشغل الفعلة أو للتصدير ، إلى المدن التى يعيش فيها الـ ٢٥٪ الباقية من الأهالى الغيورين تحت سقوفهم الطينية ، وخلف جدرانهم العالية السميكة مصونين من آفات الدهر ، إلى المدن التى أغلبها قرى انتفخت أو بتعبير صديقى حسين ملك : كل واحدة منها عقدة ظهرت فى مكان ما من الطريق الذى يشبه الحبل ، ثم إن كل واحدة

من هذه المدن سوق مكس للصناعات الأوربية ، فإنتاج الدراجات لمدة خمسين سنة من مصنع " رالى " الإنجليزى يمكن أن تراه بأكمله فى يزد ، وإنتاج شهر من مصانع " متسوبيشى " فى تربت حيدريه ، وإنتاج عشرة سنوات من فورد وشيفروليه وفيات فى تهران ، فى نفس الوقت الذى لا يمكن أن تحصل فيه على الزبد فى مدينة كرمان ، وفى تبريز ينبغى أن تأكل العلب المحفوظة الأسترالية ، كل هذا جريته بنفسى .. نعم ، نهرب من تلك القرى إلى هذه المدن .. إلى غابة المدينة المتشابكة المتراسة ، ولأى عمل ؟ للعمل كمندى سيارات أو بيع أوراق اليانصيب ، أو إذا كنا نشطين جدا نشغل فعلة .. وكما يكون الأجر ؟ عندما يكون الغذاء فى العمارة فاليومية من سبعة إلى عشرة تومانات ، أجر يعطى للفعلة فى الدول الصناعية مقابل ساعة واحدة من العمل .

حقيقة أن هذا النوع من الحياة الحضرية أخذ فى التوسع عندنا ، لكن فى أى عهد سمعتم عن مدينة تستطيع أن تعيش بلا قرية ؟ وهكذا فسرعان ما تكون لدينا فى كل أنحاء الدولة تلال من بقايا السيارات ويحجم مدينة طهران شبيهة بالجبال الأمريكية للسيارات .. وفى النهاية فإن السيارة لا يمكن وضعها كالمذفع الجبلى فوق بغل ، لتصبحها القبيلة التى ترحل ، من هذا الجبل إلى هذا التل ، للمحافظة عليها والاطمئنان عليها . حتى إنك إذا اشتريت سيارة " بيجو " فلا بد وأن تعد من أجلها مكانا للمبيت ، وإلا فإن البرودة سوف تفجر الرادياتير ، وأنداك كيف سيمكنك دفع أقساطها ؟ ومن هنا فلدينا سائقون كثيرون فى المدن يقضون الليل فى نزل على سرير بتومانين ، بينما سيارتهم الأجرة فى " جراج " كذا بتومان فى الليلة .

أجل ، حتمية استهلاك الآلة ، تؤدى إلى حياة الحضر ، وحياة الحضر كما مر نتيجة للإقتلاع من الأرض ، من أجل أن تهاجر إلى المدينة ، ينبغى أن تقنع نفسك من أملاك آبائك وأجدادك ، أو أن تهرب من مالك القرية ، أو أن تمل تشرد القبيلة وتفر ، وهذا هو أول التناقضات الناتجة من التغرب عندنا . من أجل أن تستجيب لدعوة الآلة للعيش فى المدن ، ترسل الناس من القرى راسين إلى المدينة التى لا عمل فيها بالنسبة للقائمين الجدد ، ولا مسكن أو مأوى ، فى حين أن الآلة نفسها قد اتخذت طريقها إلى القرية ، وإلا فإن كل آلة تحل محل عشرة أشخاص و" ثور حراثة " ،

لكن فى القرية لا تستغنى الآلة أيضا عن الخدمة والعامل الفنى .. ومن أين تأتى بهما ؟ ترون أن الأمور تزداد تعقيدا بشكل سيء .

وهناك تناقضات أخرى عندنا من هذا التقرب ، فلأعدها :

أول خطوة يخطوها ساكن المدينة هى أن يسد حاجة بطنه ، ثم مابون بطنه ، ومن أجل سد الحاجة الثانية يهتم بمظهره ^(١) ، ولما كنا فى القرية لم يكن ثمة طريق للحصول على كل هذا ، ومن هنا فإن أول مصادر بورجوازي محدث يكمن فى الصناعات الغذائية " صناعة السكر والبسكويت والسمن النباتى والكمبوت واللبن المبستر " وصناعات مواد البناء " صناعة الأسمنت والبلاط اللوكس والموزايكو .. إلخ " وصناعات الملابس " النسيج والتريكو والموضة العامة .. إلخ " ومع مثل أنواع القحط التى أصابتنا والفقر الغذائى المزمّن الذى دام عشرة قرون ، وإن كنا هكذا ببساطة ، تعد هذه خطوة إلى الأمام .. مثل هذا القحطان الذى قضى عمرا فى القرية يأكل الخبز والمخيض ، عندما يقوم فى المدينة بإشباع بطنه بساندويتش ، يذهب إلى الحلاق والخياط ، ثم ماسح الأحذية ، ويعدّها إلى بيت الدعارة ، فالأحزاب والجمعيات ممنوعة ، والنوادى وما يشبهها .. ماذا أقول ؟ ، والمساجد والمحاريب نسيت بدورها ، وإن لم تُنس فمحرم ورمضان يكفيان . وبدلا من كل هذا هناك السينما ^(٢) والتلفزيون والصحافة التى تنشر كل يوم فنون إغراء نجمة السينما فلانة على رؤوس وفى وجوه آلاف من الناس الغيورين من سكان المدن . وأتذكّر : من

(١) تثبت الإحصائية الدقيقة أن إيران من ناحية محال الزينة والحلاقة الدولة رقم ١٦ فى العالم ، فى طهران ٢٢٠٠ حلاق رجالي ونسائي بترخيص و ٢٥٠٠ حلاق بدون ترخيص ، بالمقارنة بلندن التى تحتوى على ٤٢٠٠ حلاق رجالي ونسائي وموسكو وفيها ٣٩٠٠ حلاق يعملون ، يمكن أن نقفهم إلى أى حد فى الكم سنة الأخيرة يعطى أهل طهران أهمية للحفاظ على مظهرهم . نقلا عن ص ٢ من مجلة فريوسى الأسبوعية - السبت ٢١ خرداد ١٣٤٢ هـ . ش .

(٢) السينما فى عداد المواد المخدرة والسجائر فى إيران ، ملاذ الفارين من القلق والمسكن والأميرة ، والفارين من المدرسة والحرمان الجنى وأنواع الحرمان الأخرى ، وفى طهران وحدها يذهب الناس ٣٣ مليون مرة إلى السينما وفى سبيل هذا يدفعون ٥٠٠ مليون ريال " نقلا عن مجلة مسايل إيران أترماه ١٣٤٢ من مقال سنما ومرم از يكيگرچه ميخواهند =

أين ينبغي أن يأتى طعام كل أولئك الناس ؟ من القرى ، والقرى قد خلت ، والبقر قد ذبح ، والقنوت قد طمست ، ومسمار البريمة نمره ه لموتور البئر العميق قد كسر ، وسن محراث الجرار قد أصابه الصداً وانكسر ، كما ردت الشركة بأن قطع الغيار لن تصل قبل سنة ، وفى النهاية لا يمكن أن تشبع مدينة كاملة باللبن المجفف المهدى من أمريكا أو استراليا .

هناك تناقض آخر : التمدن أو الاستقرار يتطلب الأمن سواء فى المدينة أو القرية ، وقد رأينا أنه علاوة على أن القرى تخلو ، فإن أغلب هذه القرى وكثيراً من المدن تعد معبرا للعشائر والقبائل عند الرحيل ، ورحيل العشيرة هو الذى يدوس المزرعة ويرعى فيها ، ويخرب الجداول ويلقى بالكلاب الميتة فى القنوت ويسرق الدواجن ، ويجر عدم الأمن معه حيثما حل ، ولهذا السبب فحسب بقينا بلا أمان فى مدنتنا الصغيرة ، فما بالك بالقرى ، ولنفس هذا السبب يعيش الناس فى هذه الديار على التقية ، ويون أننى ثقة فى الآخرين ، والموارة ، مختلفون خلف الجدران الطينية أو الخراسانية العالية من مصائب الزمان ، وإذا كان السور العالى حول المدن فى بعض العصور كان يغنى عن الجدران حول كل منزل ، فاليوم وقد هدمنا أسوار المدن وبواباتها كجواز لشق الشوارع - معبر البولدوزات والجرارات والشاحنات - فلا بد لكل منزل من سور حوله .. وأية جدران عالية !! إن بلدنا هى بلد الصحارى الحارقة والجدران العالية . الجدار الطينى فى القرى والمبنى من الطوب والأسمنت فى المدن ، وليس هذا فحسب فيما يحيط بالناس ، بل إن فى داخل كل إنسان توجد مثل هذه الجدران قد شمخت إلى السماء ، كل إنسان اعتصم داخل سور من التشاؤم واعوجاج الفكر وعدم الثقة والسير منبتاً .

=السينما والناس ماذا يريد كل منهما من الآخر ؟ " وفى نفس المقال بضع عبارات منقولة من " كتاب ايران " وهو تقرير كتبه ستة عشر متخصص امريكى عن ايران " ١٩٥٧ " فى نفس قضية السينما هذه " فى الفيلم يجد الإيراني الميال إلى الغرب الحضارة الجديدة التى وعدوه بها فى تربيته وتعليمه الجديدين لكنه محروم منها فى الحياة ، والسينما بالنسبة له مفر فى مجتمع ملئ بالحرمان وملجأ إلى عالم خيالى تتحقق فيه قيمه الغريبة " .

ومن ناحية أخرى ، أشرت إلى أن احد سكان المدن أو الفلاحين الساكنين فى قرية عامرة ، إما أنه فر من مالك الأرض أو فر من القبيلة ، او اعتزل قليلا فى ركن بعيدا عن معبر العشيرة السنوى الذى يخفى معه الغارة والتخريب ، وذلك لكى يعد لنفسه فى المدينة أو فى قرية كذا العامرة مكانا آمنا ، وهو غافل عن أن نفس هذا الخان العشائرى قد يصل بعد عشرة سنوات إلى الحكم ويكون أسرة " اتابكة كذا " (أنظر إلى حكومات العشائر لا إلى حكومات الأسر عندنا) ، وبعدها تدخل المدينة أو البلدة التى اتخذها مأمنا له ، أو القرية التى أعاد قناتها إلى العمل فى التزام الخان فلان ، ثم من جديد رزق يوم بيوم ، وآخر تقسيم الالتزامات عندنا تم منذ عصر الثورة الدستورية ، ومع هذا الإقطاع والعشائر الرحل التى لدينا ، يعلم الله حتام نطل ضحايا لعواقبها من انعدام الأمن والتشرد والتشاؤم واليأس من الغد .. وهذا كله فى أى عصر ؟ فى عصر لم تعد الآلة فيه أعظم خان فحسب ، بل وجلست على مسند الخان الأعظم .. لكنها تطلب الأمن ، ورفع الحدود وهدم الجدران والبساطة " أو من الأفضل أن أقول الغفلة " والطاعة والثقة فى الآخرين والثقة فى الغد .

وهناك تناقض آخر : عندما تدخل الآلة وتستقر فى المدن والقرى ، سواء كانت فى صورة طاحون ذى موتور أو مصنع للنسيج ، فإن عامل الصناعات المحلية يصير عاطلا تجعل طاحون القرية يتعطل ، والمغازل بلا انتاج ، تعطل نسيج السجاد والأكمة وصنع اللباد ، هذا ولدينا فى هذه الصناعات اليدوية والمحلية وفى نسيج السجاد والأكمة ، وفى صناعة القيشانى والقماش المقلم والأخفاف القماشية سوق صغيرة ، رائجة إلى حد ما ، ونحار متسائلين : لماذا كسد سوق السجاد ؟ لماذا تعرضت تجارته الخارجية للخطر ؟ غافلين عن أن هذا هو أول العشق ، وعندما امتدت قدم الآلة إلى القرية ، وبهذا الشكل أمامنا مصائب أخرى .. لقد رأيت بنفسى أن كل الطواحين الهوائية بين قاين وكوناباد قد تعطلت مثل شياطين الأساطير التى سقطت من الاعتبار ، أو كالحراس الشيوخ الذين راحوا فى النوم فى القرى والبلاد ، ورأيت فى زفول فحسب بكل مصانع بلاطها الجميلة وتخطيطها النموذجى ما يقرب من مائة طاحونة مائية معطلة ، ومادامت الآلة قد دخلت إلى القرية ، فكل ملحقات اقتصاد

الرعى والاقتصاد القروى سوف تتفسخ أى كل صناعة محلية ويدوية .. وما أجمل هذا .. وحتى لا تضيع كل هذه الأعين والأيدى والصدور لشباب الريف تحت أنوال السجاد ، ومن أجل أن تتزين بيوت الأرستقراطية . وأعظم ميزة لدخول الآلة إلى المزارع والقرى ليس فحسب التحطيم الإجبارى لتقليد المالك والأجير ، وتفسخ تقاليد الرحيل والتنقل والعشائرية والخان خانية ، بل وإلى جوار ذلك أنها أيضا تقضى أيضا على الصناعات المحلية ، أو تحميها إذا كانت ذات تخطيط وبرنامج ، تستطيع أن تعطيههم نقودا أكثر وقيمة أكثر ، لأنها تستطيع أن تجد مشتريا جديدا للصناعات اليدوية ، لأنها تستطيع أن توسع سوق الأخفاف القماشية ... إلخ .

وهناك تناقض آخر : عندما تكون أنوات الحياة بدائية من محراث ومدفأة إيرانية وخف قماشى وكلوب ، حتى المنجل والمغزل ونول السجاد ، فإما أن تجلب معها نمط تفكير بدائى أو العكس . والاعتقاد فى الخرافات والدق على الطسوت عند الخسوف والكسوف ، والتوسل بالأدعية والأحجية ومضادات الحسد من أجل الهروب من المرض ومن الآفة ^(١) وتعاليم كتاب كلثوم ننه ^(٢) كلها من هذا القبيل ، ولا جدال فى أن الآلة وقد دخلت ، لا بد وأن يمضى أيضا هذا النسق من التفكير ، لكن لا تتصوروا أن يتم الأمر بهذه السرعة ، لأن هؤلاء البشر المؤمنين بالخرافات ، والذين يتبعون تعاليم كلثوم ننه ، هم فعلا الذين تقاطروا على المدينة ، وصاروا عبيدا للآلة ، أو يسوقون فى تلك القرى البولدوزرات والجرارات ، لن نأتى بالبشر من السماء أو نستوردهم مع الآلة ، ولكى تروا هؤلاء البشر الذين نشأوا اليوم معتادين على الآلة ، تلزم بورة تعليمية واحدة على الأقل . ولقد رأيت بنفسى سائق بولدوزر كان يكتس " خارك " وقد علق تميمة ضد الحسد فى عجلة قيادة سيارته المهولة ، وسيارات الأجرة عندنا مليئة بهذه الطلاس ، والحوانيت مليئة بالأدعية والشتائم والأشعار القائلة :

(١) رأى صهرى منوچهر دانشور فى نوروز سنة ١٣٤٠ صلاة استسقاء فى أغاجارى إحدى مراكز استخراج النفط ، كل واحدة من النسوة حملت حملا أو شاة على يدها ، واتجهت إلى السماء وأخذت تقول : يا الهى إذا كنا منبئين فأنى ذنب ارتكبته هذه العجماوات ؟!

(٢) المترجم : كتاب رائج بين العوام يحتوى على كثير من الوصفات البلية والتعاليم لعلاج كل داء ومواجهة كل مصيبة .

تجاوز عن هذه أيضا و هذه أمانة لدينا من أجل الرزق . فى مثل هذه البيئة التى نفاجأ فيها بأن صاحبنا قد يخرج فى لباس رعاة البقر ويسطو على بنك ، فإن الرجل البدوى الذى جاء إلى المدينة ، وعقد الحزام لخدمة الآلة بكل بلادة ذهنه ، وتكاسل حركاته ، وبكل قدريته ، ينبغي أن يسرع خطوة بخطوة مع الآلة ، أو أن يبدى أمامها ربود فعل عكسية ، هذا الرجل الذى يقوم بالإستخارة والذى يقدم العقيقة ويأكل الأغذية الفذرية ، يتعامل مع الآلة ، التى لا هى تفهم شيئا عن القدر ، ولا تعمل مكابحها بسرعة أكثر بسبب الخروف الذى تقدمه كأضحية كل شهر ، وإلا كان موتورها أكثر بطئا . وهكذا فعندما لا تجدى أضحيتك كل شهر فتبلا ، وتكثر حوادثه ، ينقد صبره دفعة واحدة ، ويخرج عن كل شيء ، ويصير مجرما أو غير مؤمن بشيء أو استغلايا نفعيا .

وهناك تناقض آخر : فمن واجبات التغرب أو مستلزماته منح الحرية للمرأة ، ولا بد أننا أحسنا أننا محتاجون إلى مقدرة هذا النصف للقدرة البشرية فى المملكة بحيث أوصينا بأن تكنس الطرق وترفع العوائق ، لكى تصل قافلة النساء .. لكن بأى شكل قمنا بهذا الأمر ؟ وهل تتساوى حقوق المرأة مع الرجل فى كل الأمور ؟ لقد قنعنا فحسب بأن نرفع الحجاب عن رأسها بضرب الشوم ، وفتحنا عددا من المدارس أمامها ، ثم ؟ لا شيء قط ، يكفينا هكذا ، فالقضاء لا يتأتى من المرأة ، والشهادة لا تستطيع أن تؤديها ، والتصويت وعضوية المجلس أمور افتضحت منذ فترة ، بل ولا حق للرجال أنفسهم فيها ، ولا رأى لهم فيها أصلا ، والطلاق موكل برأى الرجال مصداقا ل (الرجال قوامون على النساء) وما أجمل تفسيرنا لها . إذن ماذا فعلنا فى الحقيقة ؟ أعطينا المرأة حق الظهور فى المجتمع فحسب .. الظهور فحسب ، أى الاستعراض ، أى سحبنا المرأة وهى حافظة التقاليد والأسرة والنسل إلى التسيب ، أخرجناها إلى الشارع ، ودفعناها إلى الإستعراض والتسيب بحيث تزين شعرها ووجهها ، وتضع كل يوم على وجهها سحنة بُرجة جديدة ، وتضيع ، وفى النهاية أهناك عمل لها فى المجتمع ؟ شخصية ؟ أبدا!! حتى الآن هو وهق نسائى من هذا النوع . وما لم تصبح قيمة الخدمة الإجتماعية لعمل الرجل والمرأة سيين ، وقيمة عملهما " أى اجرهما "

متساوية ، وما لم تتعهد المرأة بأن تكون كتنفسا إلى كتف مع الرجل في إدارة ناحية من نواحي المجتمع " غير المنزل وهو أمر داخلي ومشترك بين الرجل والمرأة " وما لم تحقق المساواة بمعناها المادى والمعنوى بينهما ، فإننا في أمر الحرية الصورية للمرأة ، لن يكون لنا هدف حتى سنوات قادمة ولا غرض إلا زيادة أفواج المستهلكات للبيرة وأحمر الشفايف من إنتاج الغرب .. وهذه صورة أخرى من الابتلاء بالغرب . ولا جدال أن هذا الكلام عن المدن ، الحديث عن قيادة الدولة ولا مكان للمرأة فيها ، وإلا فإن المرأة في العشيرة والقرية ، تحمل منذ قرون حمل الحياة أصلا على كاهلها .^(١)

وهناك تناقض آخر وهو معقد جدا ولا يلتفت إليه أحد : إن ٩٠٪ من سكان هذا الوطن لا يزالون يعيشون حتى الآن بقيم ومعايير مذهبية ، أقصد أن هؤلاء التسعين في المائة كلهم قرويون ، بالإضافة إلى طبقات الحرفيين في المدينة وأهل السوق وصغار الموظفين والمجموعة التي تشكل الطبقتين الثالثة والرابعة في الدولة . وهذه الطبقات بالنسبة لفقرها تستطيع فحسب أن تتحمل حياتها بالاستناد على معتقداتها المذهبية ، ولأنها لم تجد سعادتها اليوم ، فهي تبحث عنها في السماء وفي الدين وفي الآخرة ، وما أسعد حالهم !! أحيانا يشربون العرقى لكنهم يتمضمضون ويقفون للصلاة ويتوبون في شهر رمضان ، ويقدمون الأضحيات لإمامزاده داود . وفلان القروي بمجرد أن يرتفع محصوله من سبعة مكابيل إلى عشرة ، يأخذ بأيدي أهله وعياله ويذهب لزيارة مشهد أو على الأقل قم ، وإذا كانت العلاقات طيبة مع الجيران يذهب إلى كربلاء ، وبمجرد الاستطاعة يذهب إلى مكة . وكلهم ينتظرون إمام الزمان ، وكلنا ننتظر ، والحق معنا ، الفرق أن كلا ينتظر بطريقته ، لأنه لا توجد حكومة قط من الحكومات العاجلة قد نهضت للوفاء بأقل وعد وعدت به أو عهدت به ، ولما كان الظلم وأكل الحقوق والاختناق والتفرقة أمورا قائمة ، فإننا لنفس

(١) في الفترة ما بين صدور الطبعة الأولى والطبعة الثانية لهذا الكتاب ، جرت أحداث وأحداث في هذا البلد ، منها منح الحرية الإسمية لصاحبات العصمة ، حتى في مجلس أراجوزات الشيوخ والنواب يشترك النسوة أيضا ، لكن هذا المنح للحرية في حكم حك الأبواب والجدران بالجير في طريق عبور الملك ، أجوف ، مجرد كلام ، مجرد مظهرية ، وأيضا لخداع السياسات الخارجية ، ومع كل هذا ألا تظنون أنهم حطموا سدا ؟!

هذه الأسباب نقيم في ١٥ شعبان ^(١) احتفالاً يموت منه النوروز حسداً ، وبناءً على نفس هذه العقيدة فإن ٩٠٪ من الأهالي الغيورين في هذا البلد يعتبرون الحكومة من عمال الظلمة ، وغاصبين لحق إمام الزمان " صاحب الجلالة ولي العصر عجل الله تعالى فرجه " ، ومن ثم فلا حق عليهم في دفع الضرائب ، ويخدعون منسوب الدولة ، ويتهربون بألف حجة من التجنيد الإجباري ، ولا يقدمون معلومات صحيحة إلى أي إحصاء . وبالرغم من أن الصحف مليئة بالتهاني من أهل " مزلقان چاي " لموظف السجل المدني الذي وصل حديثاً ، إلا أنه لا يوجد أحد من الأهالي الغيورين في نفس البلد يعرف جهازاً يسمى الحكومة ، اللهم إلا الجاندرمه والترانزيستور ، ولا يزال هناك مثل سائر يقال في بوشهر ويندر عباس هو " لا يجب النوم تحت جدار العجم " ^(٢) والمقصود بالعجم الحكومة .. الموظف الذي يأتي من طهران ، أي لا ينبغي على أحد أن يكون في خدمة الحكومة ، ولا ينبغي أن يثق في موظفيها أو مؤسساتها ، ولنفس هذا السبب فإن كل المؤسسات المذهبية : من السبيل أسفل الممر ، والمسجد على رأس الحارة ، إلى موضع الزيارة خارج البلد ، كلها مغطاة بهذه المظاهر المختلفة لعدم الثقة في الحكومة وفي أعمالها ، وكلها مملوغة بالإشارات إلى انتظار فرج المهدي الموعود صاحب الجلالة ولي العصر الذي تدعو بصدق قائلين : عجل الله فرجه على السنة الناس وفي اللافتات على الجدران ، وعلى السنة الوعاظ ، وفي الصلاة والأذان والتضرع ، وفي قصائد الشعر ، في المظاهر الواسعة لاحتفالات النصف من شعبان ، وعلى بطاقات الدعوة إلى حفلات العرس . في كل مكان نعيش في ظل توجيهات ولي العصر . كل هذا صحيح . بينما - ومن أجل نفس هؤلاء الناس - تقوم الحكومة بمؤسساتها ومدارسها وتكئنتها وإداراتها وسجونها ومزامير أذاعتها وأبواقها تبشر بالحكومة القومية ، وتعزف من أجل نفسها لحناً آخر ، ومن نفس هؤلاء الناس تطلب الضرائب بالإلحاح الشديد ، وبالقوة تأخذ الجنود منهم ، وفي كل مكان تربي أكلا

(١) المترجم : ذكرى مولد الإمام الحجة المنتظر إمام الزمان محمد بن الحسن العسكري ، المهدي الموعود عند الشيعة الإثني عشرية .

(٢) نقل شفوي عن صديقي العزيز اسماعيل راين وهو من أهالي هذه المنطقة .

للرشوة ، وسفاراتها أكثر السفارات فسادا، وهى تدعو لصاحب جلالة آخر ، وتصم
آذان الفلك من الحديث عن مفاخر آلاف آلاف السنين المتزايدة ، ودائما ما توجه
مدافعها وينادقها إلى وجوه الناس . ومن نفس هذا التناقض ، فإن كل طفل فى
المدرسة الابتدائية بمجرد أن يحفظ النشيد الشاهنشاهى على أنه النشيد الوطنى ،
تضيع الصلاة من ذاكرته ، وبمجرد أن يصل إلى السنة السادسة الابتدائية يفر من
المسجد ، وبمجرد أن يذهب إلى السينما يضع الدين فى زاوية النسيان ، ومن هنا
فإن ٩٠٪ ممن دخلوا المدرسة الثانوية عندنا لا دينيون ، لا .. ليسوا لادينيين .. لكن فى
حالة من عدم الإهتمام بالدين أصلا ، وهم معلقون فى الفضاء ، لا تستقر أقدامهم
على أى شيء ، فلا يقين قط ولا إيمان قط ، عندما يرون أن الحكومة بكل فيهمقتها
ومؤسساتها وميزانياتها والمساعدات الخارجية التى تتلقاها والمدافع والدبابات التى
تملكها ، ليست قادرة على حل أتعفه مشكلة إجتماعية وهى بطالة حملة الشهادة
الثانوية ، وفى نفس الوقت يرون كيف أن عقيدة دينية قديمة تعطى كل هذا الملجأ
والملاذ بالنسبة للعجزة والمساكين والفقراء ، وكم يفرحون فى الخامس عشر من شعبان
، وكم يقضون أوقاتا سعيدة ، ومن هنا يحارون ويعجزون ... الراديو تحت أنه ينفث
السحر دائما ، والسينما تفتح أمام عينيه عوالم الجان .. لكن هناك هذا الواقع
أيضا : واقع محتوى الإيمان الدينى ، وإلا فإلى أى مدى يمكن أن يفكر
ويأكل من نفسه ؟ أو يهتم بكشف الحقيقة ؟ ولماذا لا يترك كل هذه الأمور ويصير مثل
الآخرين ويتلون بلون الجماعة ؟ إذن لنمض ، ولنصبح جميعا لا مباليين ، فلا دين عندنا
ولا إلحاد عندنا ، ولا حياة لنا ، ولا مستقبل لنا .. اغتتم اللحظة !!^(١)

وفى نطاق التعليم، من المشهور والجميع يعلمون ذلك ، أن مدارسنا تصنع
الموظفين أو تخرج حملة الشهادات المتوسطة العاطلين ، ولا مجال للمناقشة هنا ، لكن
ما هو أكثر أساسية ولم يُقل بعد ، أن مدارسنا تصنع المتغرب ، تصنع رجالا كائهم

(١) كان خليل ملكى أول من انتبه منا إلى إنعدام الملامح عند الشباب . إنظر إلى محلة " مهرگان "
الأسبوعية سنوات ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ ، وفيما بعد مجلة " علم وزندكى " عامى ٢٨ و ٢٩ فى مقالات متكررة
تحت نفس العناوين .

نقش على ماء ، تخرج أرضيات مستعدة لقبول التغرب ، وهذه هي أعظم مخاطر مدارسنا وثقافتنا ، وسوف أتحدث في فصل مستقل عن سمات هذا الإنسان الذى يتخرج من مصانع صنع التغرب عندنا ، لكن ما ينبغى أن أنكر به أنه خلافا لرأى مؤرخينا نوى اللحن والشوارب ، فإن حركات الشعبوية السياسية والمذهبية لم توصلنا إلى شيء قط ، وأقصد الحركات المغالية فى القومية أو فى المذهب ، وإن كانت قد وصلت إلى شيء ، فقد وضعت حجراً فى بناء وصلوا به فى العصر الصفوى إلى شرفاته فحسب ، أى كان فى ذلك الزمان أن دخلت الحكومة القومية والدين ، أو السلطنة والهيئة الدينية فى خرقه واحدة ، وكل منهما أخرج يده من أحد كميتها . وفى بدايات هذا الكتاب أشرت إلى النتائج التاريخية والعامة لهذا التكاثر ، ولتذكروا بينكم وبين أنفسكم أننا كنا فى نفس هذا الوضع فى العصر الساسانى ، وإنتهى بحركتى مانى ومزدك ثم بظهور الإسلام ، أما اليوم وقد تمزقت تلك الخرقه الواحدة ، ولكل واحد من هذين المتنافسين تشكيلاته وسلاحه وتقاليده ورسومه الخاصة ، فقد صارت أمورنا أكثر خراباً من هذين العصرين ، فقد أدى الفراق بين الدين ومنافسه الأصل إلى أن حكوماتنا - إستناداً على التغرب وإصراراً على التشبه بالغرباء - تخطو فى هذا الطريق خطوات أكثر فى كل يوم ، هذا الطريق الذى ليس له من نهاية إلا البوار والإنحطاط والإفلاس . ومن ناحية أخرى فإن المذهب بكل مؤسساته وأدبياته يستند بقدر ما يستطيع على الخرافات ، ويلجأ إلى العهود الماضية والتقاليد المتهترئة القديمة ، وفى القرن العشرين يفكر بمعايير القرون الوسطى ، وفى هذه الأيام بنفس القدر الذى تقوم به الحكومة الوطنية من أجل تثبيت نفسها بالتعلق بأذيال الغرب ، فإن الحكومة الداخلية المذهبية قد وقفت فى الناحية المقابلة ، ومن أجل نوامها تنظر أكثر وأكثر إلى الوراء وتميل إليه .^(١) وفى الأصل عندما ترى الحكومة أن ٩٠٪ من الأهالى لا يعطون أذاناً لتعاويذها ،

(١) فى المجادلات الأذاعية للشاه مع أئمة الدين " أسفند ٤١ - فروردين ٤٢ " ظهرت صحة إبداء هذه النبوة ، وحتى بعدها فى منبحة خرداد سنة ١٣٤٢ الهىبة التى سماها رابيو موسكوقمع إنتفاضة رجعية ، وأبدى السرور .

ويهتئون بعضهم البعض فرحين بذكرى ميلاد صاحب الجلالة ولي العصر ، أى عندما ترى أن المذهب قد أغتصب ألقابها الرسمية ولا يقبلها ، وبهذه المناسبة عندما ترى ما تحت قدمها واهيبا ورخوا ، تلقى بنفسها فى أحضان الغرب ، وتعتمد على مساعداته العسكرية ، على المدافع والدبابات المهداة من أمريكا ، على الصحافة الأوربية .. على صحفها ومراسليها وعلى رجال السياسة فيها ، ربما يزداد عمرها يوما أو يومين ، وهكذا تقوم حكوماتنا بالدعاية للحكومة القومية بينما تقمع فى الخفاء الحكومة الخفية المذهبية .^(١) ومن أجل التفرير بالناس ترفع دعوى إستعادة البحرين ، بينما بقيت دعوى هيرمند وشط العرب بلا حل منذ مائتى سنة .. وهذا كله فى أى عهد ؟ فى العهد الذى قلت عنه أن الآلة تتطلب عدم وجود حدود ، وتحطيم كل الأبواب والسدود ، وتتطلب تدويل كل شيء وكل مكان ، تتطلب أسواقا مشتركة وحدودا مفتوحة وجمارك مغلقة وفى يدها راية الأمم المتحدة ، وتنطلق إلى حيثما تمد بينزين الشركات ، ونحن ثانية فى عصر وضعنا فيه رؤوسنا فى جيب ثوب الحكومة القومية ، وحدودنا المشتركة مع جيراننا اللاصقين أطول من سور الصين وأكثر سمكا منه ، ودائما ما نحن فى خصام مع العراقيين والباكستانيين والأفغان والروس ، وكل منا لا علم له بأحوال الآخر ، بينما تضرب الآلة العظمى لشركات استخراج الماس والنحاس فى قلب كاتانجا همرشلد بالرصاص وهو فى الجو !! وفى مثل هذا العصر نريد نحن مع هذه المدارس وهذا النشيد القومى وجهاز الأمن هذا وهذه المساعدات الأجنبية وهؤلاء الرجال المصنوعين من المقوى ، نريد أن ندعو إلى الحكومة القومية ، فى مثل هذه الأيام التى تحدد فيها الحدود فى كل أنحاء العالم حدود الشركات المختلفة فحسب

(١) ومن التاريخ المذكر آنفا "١٥ خرداد ١٣٤٢" تقوم بقمعها علنا فى حين أن السلطنة والمذهب كليهما من تنكارات القرون الماضية ، وعلى كل حال لاتوجد مؤسستان تحتاج كل منهما إلى الأخرى مثلهما ، والمهم أن المواجهة بين هذين المتنافسين صارت مرة ثانية علنية بعد ثلاثمائة سنة من تجاهل الخلافات فيما بينهما ، ومن المسلم به أن هذا يمثل بداية مرحلة أخرى ، مرحلة سوف تنتشر فيها الثقافة ويتسع تحرر الفكر ويأخذان الدور من هذين المتنافسين ، وهذه المواجهة التى انتهت فى عهد ميرزا الشيرازى باغتيال الشاه ، وفى فترة الدستور بخلع محمد على شاه وتغيير النظام .. إلام ستنتهى اليوم ؟ جواب هذا السؤال عند المفكرين . المترجم : إنتهت بكسب الهيئة الدينية لجولة فى ١٣٥٧-١٩٧٨ .

، بحيث يكون حتى هذا المكان لجنرال مونتورز ، وحتى ذلك المكان لسوكونى فاكوم ، وحتى المكان الآخر لشل أو پريتش پتروليوم ، ومن هنا إلى هنا لبران أمريكان أو " أجيب ميناريا " . فى هذه الأيام ، أصبحت الأمم واللغات والأجناس والمذاهب ، إن لم تكن العوية بين أيدي المستشرقين - وسوف أتناول موضوعهم ، فهى على الأقل موضوعات مختبرات بالنسبة للعلماء والباحثين ^(١) ، ومن أجل هذه القضايا ، لا يلجأ أحد فى القرن العشرين إلى التلويح بالقوة ، لكن إذا كنا أنا والأفغانى لا يعرف كلانا شيئاً عن الآخر برغم اشتراكنا فى الدين واللغة والعرق ، وإذا كان التردد على الهند والعراق أصعب من النفاذ خلف الستار الحديدى ، وذلك بسبب أننا منطقة نفوذ هذه الشركة ، والأفغان منطقة نفوذ أخرى . فى مثل هذه الأيام نشكل نحن حدوداً قومية مغلقة إلى أبعد الحدود وتقاليد عرقية بأكثر ما نستطيع ، وأنواعاً من الغرور المفرقة فى القدم نأخذها بكل جدية ، وحللاً وحراماً مذهبيين نافذى الأمر إلى أقصى درجة ، غيابة الجب الأكثر عمقا للشعوب والبشر ، وإلا : أى حدود وبلاد تعرفها غير قابلة للنفاذ أمام البيبسى كولا ؟ أو فى مواجهة تردد سماسرة النفط ؟ أو فى مواجهة فيلم لبريجيت باربو ؟ أو أمام مهربى الهيروين ؟ أو فى مواجهة المستشرقين المربين وهم السماسرة الرسميون للإستعمار ؟ والنموذج الأسمى لهذه الحدود أى أكثرها عرياً وأكثرها توحداً بين الظاهر والباطن ، يمكن أن تطلبه اليوم فى أفريقياس . كانت هناك أيام سيطرت فيها فرنسا على الكامبيرون وتشاد والصحراء الوسطى فى نقاط ثلاثة مختلفة من أفريقياس ، ولإنجليز بجوار كل ولاية من هذه الولايات ولاية أخرى ، واليوم وقد ذهب الإنجليز والفرنسيون ، وبرزت الدول الأفريقية المستقلة ، تركت كل منها حدودها تماماً على نفس النقطة التى كانت حدود مستعمرات الدولة الأجنبية ، وما أكثر الأقوام والأجناس والمذاهب الأفريقية التى تشتركت بهذا الأسلوب ، ومزقت شر ممزق بين الدول المستقلة الأفريقية .. دعنا

(١) أطلس علم اللغة فى إيران وأفغانستان يقوم الآن إثنان أو ثلاثة من الجامعيين فى السويد بإعداده . خبر جيد أو غير جيد ؟ على كل حال ما يخص الأفغان قد تم ، لكن ما يخص إيران لم يتم بعد ، لأسباب لا مجال هنا لنكرها .

من هذا . ربما كان من أجلنا كلنا ، أنه في النضال الوطني لتأمين النفط ، فإن أئمة القوم من ذلك الجناح الديني ، أي من الحكومة الخفية للدين ، أحسنوا إستغلال هذا لنفع أهداف النضال .. لأحدث بشكل مستور : كان قادة تلك الفترة يقرون أنه بترتيب أمور النضال بشكل يمكن مع مساعدة أئمة الدين ، يستطيع كل عامي لم يذهب إلى المدرسة أن يرى عمال الظلمة في جسد الحكومة التي تعطى النفط للشركة ، وتوجه البنادق إلى الجماهير ، وهذا هو أعظم درس يمكن أن يتعلمه المفكرون المستثمرون والقادة من هذه الواقعة .^(١)

وكأخر تناقض ناتج عن الإبتلاء بالتغرب وأشدها خطراً ، أتحدث عنه أيضاً على المستور تماماً . إننا نقع في نقطة من العالم ، تحدث أعلى أذاننا تماماً أحداث جسام ، نظل نحن اضطراباً غير عالمين بها ، وعلينا أيضاً أن نضطر إلى عدم التأثر بها ، وإذا تأثرنا فليكن هذا في الظاهر فحسب من أجل تأجيل الواقعة ، في حين أن كوبا وهي على بعد حوالي ثلاثين كيلومتر من أمريكا نفسها تتقبل تأثيرات من هذه الأحداث ، ويبقى الوضع هادئاً تماماً ، وربما بسبب أن حصار حدودنا ضخم إلى هذا الحد ، وأن حكوماتنا بون أن تنتبه إلى الحكومة الباطنية المذهبية " وهي في حد ذاتها حصار داخل ذلك الحصار وحكومة داخل حكومة " ، وهي تزيد يوماً بعد يوم في قطر هذا الحصار باستنادهما على الغرب وإصرارها على عبودية أكثر للغرب ، وربما تتصور أن الوسيلة الوحيدة في مواجهة مثل هذا الخطر المجاور هو الإلتجاء إلى

(١) أريد مرة أخرى أن أستعين برينيه جروسيه الباحث الفرنسي ، ومن نفس الكتاب أي " وجه آسيا " ص ١٢٢) في الحركة التي قامت بها إيران ضد شركات النفط ، أثارت في وقت واحد تأييد أفغانستان وباكستان وجامعة الدول العربية ، وهذه هي المرة الأولى التي ينضم فيها التشيع الإيراني إلى وحدة إسلامية ، وكان على مر القرون مثل سد يحول بون تعاون الدول الإسلامية . لماذا ؟ لأن ذلك الزمان الذي اضطرت فيه ملوك الصفوية حماية المذهب الشيعي إلى التحالف مع أوروبا ضد السلطان العثماني خليفة أهل السنة قد مضى) وأنا أقول أي أنهم تعرضوا لعملية نصب وتهديد من أوروبا . على كل حال هل هذا خبر طيب بالنسبة لنا آسيوي الشرق الأوسط ؟ أو إعلان خطر لكنسريوم النفط الذي لا يملك الفرنسيون فيه أسهما كثيرة ؟ مهما كان من أمر ، فذلك الذي تركته أنا مستورا أكثر من مرة ، تحدث عنه هذا الأستاذ بصراحة أكثر قليلاً .

شرنقة ألوان التعصب والجمود والغفلة وأحقاد العصور الوسطى ، وفى حين أن مصير الحكومات والأعلام والحدود فى العالم يتحدد اليوم على مائدة مباحثات الدول العظمى، أما حكوماتنا فقد قنعت فحسب بأن تكون حارسة حدود الشركات ، ومن هنا ولنفس هذا السبب ، ففى أن حكوماتنا تقوم بقمع الدين واللجوء إلى اللادينية والتفرنج ، لما كانت تحتاج أيضا إلى خداع العوام ، فإنها أيضا تتعامل فى الأعم مع الدين والهيئة الدينية معاملة تجاهل العارف ، بل وتغازل غزلا لا يصل إلى نتيجة مع الهيئة الدينية وشخصياتها ، وهذه هى كلها حركات المذبوح ، ونحن إن لم نقم إزاء هذه الأحداث العظيمة بهز أنفسنا من الداخل ، ولا نعالج هذه الخلافات الكيفية من جهة ما ، وكثيرا ما يحدث أن نقوى حدودنا ونغورنا القومية ، وكثيرا أيضا ما يحدث بخداع الأوساط الدينية أن نقوم بالحيلولة لئون عالم المذهب من أن يفتت هذا الحصار من الداخل ، وفى النهاية سيحدث ذات يوم بناء على قانون يعرفه الأطفال هوقانون الظروف المساعدة أو المحيطة ، أن مستوى الماء سوف يرتفع من هذا السرداب ، وسوف يجرف السيل كل قصورنا الواهية ، ليس الحديث عن التهديد والتخويف ، فقد نكرت فى بداية هذا الكتاب إلى أين إنتقل مركز هذا التخويف والتهديد . الحديث عن التناسق مع المجتمعات الإنسانية المتقدمة . وإعذرونى إذا كنت أتحدث على المستور .

٨- السبيل إلى حل الطلسم

نحن الآن نقف كأمة نامية فى مواجهة الآلة والتقنية . ولا محيص لنا من ذلك ، أى أننا إستسلمنا للقول المأثور " كل ما يأتى به الله خير " ، فما الذى ينبغى علينا فعله ؟ هل ينبغى علينا أن نبقى على ما كنا عليه مجرد مستهلكين ؟ أو ينبغى علينا أن نغلق أبواب الحياة فى وجه الآلة والتكنولوجيا ونمضى هارين إلى قاع رسومنا العتيقة ونقاليدنا القومية والدينية ؟ أو أن هناك طريقا ثالثا أمامنا ؟ لنتناول هذه الأسئلة الثلاثة واحدا واحدا .

والبقاء مجرد مستهلكين للآلة ، والإستسلام التام لقدر القرن العشرين ، هو الطريق الذى قطعناه حتى الآن ، الطريق الذى إنتهى بنا إلى ما نحن فيه .. عصر الإبتلاء بالتغرب ، عصر إنتظار الغرب وأيدينا على أفواهنا ، لكى يأتى وكل بضعة سنوات يقدم إعتماذاً أو مساعدة لنشتري مصنوعاتهم أو نشتري من جديد الآلات التى إستهلكنا . حقيقة أن هذا الطريق سهل ، وتمخض عن كثير من أنواع الكسل والتبلة وعدم الكفاءة والبطالة ، ولو كان هذا الطريق يفضى إلى نتيجة ، لما كانت هناك كل هذه الفوضى فى أعمالنا ، ولما كان كل خطر الإفلاس القائم هذا ، وعلى الأقل لما كان هناك داع لكتابة هذه الأوراق .

أما أن نهرب داخل شرانقنا ، فلم توجد حشرة فعلت هذا ، ونحن على كل حال أمة نخطو فى طريق التطور ، وإذا كنا قد ابتلينا بمثل هذا الإضطراب فى معايير الحياة والفكر ، فذلك لأننا آخنون فى تمزيق الجلود القديمة من أجسادنا ، وكأنا ونحن مشغولون بقراءة إذن الدخول ، أصاب الخوف من قرب الآلة أجسادنا بالردة هكذا ، ولنفرض أن الأمر ليس هكذا ، وبقينا كذلك فى أسار التقاليد متعصبين لها ، وعدنا إلى وسائل الحياة البدائية - وأغلب أهل الريف عندنا على هذا الحال - ألا يحدث أنه إنصياعا إلى حتمية السياسة والإقتصاد وإرتباط المصالح مع الجماعات البشرية الأخرى ، نكون قد تركنا نصف أراضى الدولة تقع تحت سيطرة فئوس وحفارات الشركات الأجنبية ؟ وذلك من أجل أن يأتوا ويفحصوا ويحفروا ويستخرجوا ويأخذوا؟ فإلى متى يمكن الجلوس على جانب الطريق ومشاهدة القوافل ؟ أو على

شاطيء النهر ومشاهدة مرور العمر ؟ حتى أشد الناس تعصبا قد إستسلموا لتطور الآلة ، إذن فطريق العودة أو التوقف مغلق أيضا .

أما الطريق الثالث - ولا محيص عنه - فهو حبس روح شيطان الآلة هذا في الزجاجة ، هو السيطرة عليه ، ووضع أحمالنا عليه وإستغلاله كدابة . ومن الطبيعي أن الآلة بالنسبة لنا هي منصة إنطلاق نقف عليها وبقدرة " سوستها " ننطلق إلى أبعد ما يمكن . ينبغي أن نصنع الآلة ونتملكها ، ولا ينبغي أن نبقى في أسارها ، ولا ينبغي أن نصبح ضحاياها . الآلة وسيلة وليست هدفا . والهدف هو القضاء على الفقر ، وتيسير الرفاهية المادية والمعنوية للخلق .

عندما كنا نمتطي الجياد ، كان لدينا المراعى والمرايح ، كلها جميلة خضراء وربيعها دائم ، وكنا نربى فيها أجمل الجياد من أعرق الأصول ، وكانت لدينا المياسم نسم بها الجياد بميسم الإمتلاك والإستيلاء البشرى ، وكان لدينا الإصطبلات لتستريح فيها الجياد وتنمو وتتوالد ، وكان لدينا محطات القوافل لنغير فيها مطايانا ، ولدينا مسابقات السباق والرماية لكى نتدرب عضلات الحيوان . وهل الآلة شيء غير الجواد ؟ وألم تدربها أيدي بشرية من أجل خدمتها ؟ وألم تكن لنا أيدي في إستيلاء الجواد والتشكل الأصلي لهيكله نحن أبناء البشر ؟ وفى جنين الآلة خبأ البشر أنفسهم فى الأسطوانات والبساتم . ومن هنا يلزمنا فى البداية إقتصاد جدير بصنع الآلة وإستخدامها ، أى إقتصاد مستقل ، ومن بعدها تعليم وفصول وأسلوب ، ثم أقران لجعل المعدن ليناً وتهيئته لدور الإرادة البشرية ، ثم العمال المتخصصون الذين يشكلون هذه المعادن فى صور مختلفة ، ثم المدارس التى تعلم هذه التخصصات عمليا ، ثم المصانع التى تحول هذه المعادن إلى آلات ومصنوعات أخرى ، ثم سوق فى المدن والقرى حتى نجعل الآلة فى متناول أيدي الناس .

لا تطلبوا منى بعد أن أدخل فى التفاصيل ، فلست أهلا لهذا العمل ، ولا هذه الصفحات مسئولة عن هذا العمل .. من أجل السيطرة على الآلة ينبغي صنعها ، فما صنعتها أيد أخرى - حتى إذا كان تعويذة أو طلسم لمنع الحسد - يحمل معه بالطبع شيئا من المجهولات ومن عوالم الغيب ، من العوالم المخيفة الخارجة عن عالم

البشر ، وهناك سر مخفى فيه ، ومن لديه هذا الطلسم لا يكون مالكا له ، بل يكون مملوكا له إلى حد ما ، وذلك لأنه يعيش فى ظل حمايته ويلجأ إليه ، ويكون دائما فى خوف ورعب خشية أن يكون قد أبدى عدم إحترام للطلسم ، وخشية أن تكون السماء قد رأت لونه أو أن يكون أحد قد داس عليه ، لكن نفس الطفل الذى علق عليه هذه التعويذة عندما يكبر ، وعلى سبيل الفضول يفتحها ذات يوم ، ورأى أى شيء تكون ، وعلى الخصوص إذا استطاع أن يقرأ ما هو مكتوب على الورقة المزينة من مثلثات ومربعات ونجوم وكلمات " يا قدوس ويا بدوح " ، وإذا فهم معنى الكلمات ومفهوم الأعداد أو على الأصح إنعدام المفهوم والمعنى فيها ، هل سيبقى إحترام لها أو خوف ورعب منها فى قلبه ؟ والآلة نوع من الطلاسم بالنسبة لنا نحن المبتهلين بالتغرب ، نلوذ بظل حمايتها ، ونصون أنفسنا فى حماها من شر آفات الدهر ، غافلين عن أنها مجرد طلسم علقه الآخرون على صدورنا لتخويفنا وحلبنا . لنكن فضوليين ، ولنكبر قليلا ، ولنفتح هذا الطلسم فى النهاية ، ولنحصل على سره .

ولا جدال أنه من الممكن أن يسأل أحدهم : إذا كان الأمر بهذه البساطة ، فلماذا لم يصل حتى الآن إلى أذهان عقلاء القوم ؟ وإذا كان قد عن لهم ، لماذا لم ينقل حل هذا الطلسم من حيز الفكر إلى حيز العمل حتى الآن ؟ وجوابا على هذا السؤال ، أكتفى ببيان سببين ، وخنموا أنتم بقية الأسباب .

السبب الأول أن هذا الرعب والتقديس لا يزالان موجودين فى قلوبنا ، ونحن نعلم أن أصل " الحرام " و " التحريم " هو " الحرمة " و " الإحترام " ، والرعب من الآلة يشبه تماما الرعب من الطلسم ، وإذا كان من لمس الطلسم وفتح حراما بالنسبة لنا ، فحرام أيضا تتبع سر الآلة ومعرفتها . ويعلم الله أن نفس هذا الرعب هو نتيجة للابتلاء بالتغرب وسبب أيضا من أسبابه ، نحن مبتلون فحسب بهذا الرعب الناتج عن التقديس . تماما مثل قضية هل كانت الدجاجة أولا أو كانت البيضة أولا . دعنا من هذا .. ولنتحدث مفترضين أننا نعيش الآن فى عهد الأربعين حرامى فى بغداد ، قد وقفنا خلف جدار ورأينا من شق فى الباب أن اللصوص قد أتوا ، وقرأوا تعويذة أو وردا وكرروها

ثلاث مرات وانفتح الجدار كئنه باب ، وباب بعد باب ، وكم من الكنوز المخبوة !! ولكن حتى الآن فإن أعظم همة قمنا بها أننا قلنا أسلوب قراءة اللصوص التعويذة . لقد تعلمنا التعويذة بمشقة ، وأخذنا نكررها كالبيغاء ، وانفتح الجدار ، لكن الماكربين كانوا قد أخذوا الكنز الذي كان موجودا خلف الجدار !! وإذا تركنا وسواس ذلك الكنز وتلك التعويذة ، وفكرنا فحسب في موضوع السبب في أن الجدار ينحسر ، وسعيينا لكي ندرك سر حركة ذلك الباب وكيفية تأثير تلك التعويذة ، نكون آنذاك قد عرفنا الأسلوب العلمي ، وصرنا جديرين بكشف طلسم الآلة .

ووضعنا بالفعل على هذا النسق : إننا نستخدم الآلة من الصباح إلى المساء ، بل ونطبخ فيها غذاغا اليومى ، لكننا تماما مثل ذلك الطفل الذى تضع أمه قدرا فى رأسها ، وتخوفه على أنها " عفريت " ، نخاف من الآلة ، ونظنها " العفريت ابو قدر " وهو مكون من نفس القدر الذى نطبخ فيه طعام الطفل اليومى ، ونفس تلك الأم التى يعد حضنها الدافئ ملاذه .. وإزاء هذا الرعب ، فإن أكثر طلابنا فى أوربا إما يدرسون الطب أو علم النفس أو غيره من العلوم الإنسانية ، أو بسبب عدم وجود أرضية فى بلدنا لطلب التقنية ، كم لدينا من المهندسين الزراعيين الذين يعملون الآن مثمنى أراضى فى بنك الرهونات ، وكم لدينا من الكيميائيين يشتغلون مديرى عموم ، وكم لدينا من خبراء المعادن يشتغلون مقاولين . حقيقة أننا فى مدارسنا نتعب أفكار أولاد الناس وأذهانهم بالقواعد والمعادلات الفيزيائية والكيميائية والرياضية ، وألغينا الفلسفة والآداب وعلم الأخلاق على وجه التقريب من برنامج كل المدارس الثانوية والجامعات ، وصار مخ كل من دخل مدرسة جعبة من القواعد والقوانين والمعادلات الرياضية .. لكن ما النتيجة ؟ لأنه لا توجد أية تجربة معينة بعد الفرضيات والمعادلات ، ولم نحول الفكر إلى عمل فى أى مختبر من أجل التلاميذ ، وما زلنا مضطرين إلى الذهاب فى طلب المختبر الأوربي من أجل تقييم أى حجر أو تراب أو قطعة من القار . كذا !! نحن الذين كنا فى الفنون المحلية ؛ فى نسج السجاد وصناعة القيشانى والتطعيم والمنمنمات فى غاية الدقة إلى هذا الحد وما زلنا أيضا ، ومما يثير الدهشة لماذا نحن مهملون إلى هذا الحد فى أمور الآلة ؟ وألا تظنون

أن هذا الإهمال فى أمور التقنية والآلة والصناعات الجديدة يعد نتيجة لثقتنا فى دوام عمل آبار النفط عندنا ؟ وأن الآلة لا بد وأن تلتى فى مقابل ثمن النفط وبضمانه ؟ والأطرف من هذا كله أنتى سمعت أن هناك من زعماء القوم من يقومون بتدبيج النظريات حول هذا الأمر .. قائلين : أجل (والآن ونحن دولة منتجة للنفط ، والأوربي فى مقابل هذا النفط يعطينا كل شيء من لبن العصفور إلى روح الإنسان على طبق الإخلاص ، لماذا نوجع رؤوسنا بصدا ع بناء المصانع والصناعة الثقيلة ومشاغلا من تربية لمتخصصين وتحمل لعدم جودة المصنوعات فى البداية والتعقيدات الناتجة عن الخلافات بين العامل ورب العمل ، والتأمينات والمعاشات ... إلخ)؟؟ وفى الحقيقة فنحن بالفعل نطبق الأمر هكذا ، وهذه النظرية الجديدة جدا هى منذ سنوات أساس العمل فى هذه البلاد ، وهى نفسها إحدى علل إبتلائنا بالغرب ، أو واحدة من نتائجها الأساسية .. ثانية نفس حكاية هل البيضة أولا أو الدجاجة .

ثم إننا إذا كنا فى أمور الفنون الجميلة القومية والمحلية نتميز بالدقة ، ولسنا هكذا فى شئون الآلة ، فلأنه فى هذه الأمور ، وإن تم الأمر بشكل شفوئى ، إلا أن الآباء كانوا يعلمون أبناءهم فنا من الفنون على مدى سنوات ، وتظل التلمذة والأستانبة لسنوات ، والقريبة المهنية والعملية والنظرية إلى حد التربية فى الفنون الجميلة فى حد ذاتها ، وجدت تقاليدها وأسست أصولها وفروعها ، وترجع إلى عمق السنين . لكن الآلة القادمة إلينا من بعيد ، لا تقاليد عندها ، ولا توجد تربية أو فصول بالنسبة لها ، ولم تحدد مراتب أستاذيتها والتلمذة فيها حتى الآن . وفى مثل هذا الوضع يبدو معقولا أننا إذا بنينا سدا كبيرا ، أو اشتعلت النار فى آبار نفطنا أى آبار نفطهم " نتوسل بفلان الخبير الأجنبى فهو مجرب فى العمل ، وعنده خبرة فيه أكثر منا . لكن ما يدعو إلى الأسف أننا لا نتوسل بالخبير الأجنبى فى هذا النوع من المجالات الإستثنائية فحسب ، بل وفى كثير من الأعمال الأخرى أيضا ، واليوم من أجل إنشاء مصنع للسكر أو الأسمنت أو المنسوجات أو الغزل أو مفارش البلاستيك ، لا نقوم فحسب بإستيراد الآلة بالتمام والكمال من أوربا وأمريكا ، بل ووراء الآلة قائمة طويلة عريضة من الأوربيين من العامل العادى وحتى المهندس

والباشمهندس ، وذلك بمرتبات هائلة تصل إلى أرقام فلكية ، ونستقبلهم لمدة ثلاث أو أربع أو حتى عشر سنوات فى منطقة كذا ليتكاثروا ويكثروا ، حتى تشتعل أفران الأسمنت أو تبيض عجينة السكر ، أو يتم خيوط الغزل والصوف . ومما لاشك فيه أننا لو تميزنا بالدقة لما عجبنا من هذا الأمر ، لأنه ليس لدينا من يحل محل هؤلاء السادة ، وإن كان لدينا ، فلا فائدة ، لأن هؤلاء الذين يبيعون لنا المصنع ، وضعوا فى عقود البيع بندا فحواه أنهم يضمنون فحسب صحة عمل الآلة فى حالة ما إذا قام خبراءهم بتركيب الماكينات والإنتاج .. أجل ، هذه هى حتمية الإقتصاد المتخلف المتقرب .. وإذا كنت أنت نفسك تستطيع أن تعترف جيدا ، فخذ واعترف ، إصنعه بنفسك حتى تركبه بنفسك ، وأنا الصانع ينبغى أن أفيد خبيرى وراء الآلة برحلة إلى الجنوب والدفء للنزهة ، لتجربة جيدة بيد أكثر كرما وأفق أكثر إتساعاً فى هذا العالم المستهلك للآلة .

وأما السبب الثانى ، وهو أيضا ناتج عن السبب الأول أو مكمل له ، أنه ما بمننا مشترين للمصنوعات الغربية ، فإن البائع لن يستطيع التفريط فى هذا المشترى المطيع ، وطالما نحن فى عالم الأخذ والعطاء مجرد مشترين - أو مجرد مستهلكين - فلا جرم أن الصانع هو البائع ، ويعلم كيف يرتب ظواهر الأمور وبواطنها حتى تظل هذه العلاقة من طرف واحد محتفظة بتعادلها ولا تتفسخ هذه العلاقة ، أى علاقة البائع والمشتري ، ومن هنا فمن الإنصاف أن نقول أنه للغرب الحق فى أن لم يسمح لنا " أى يعطينا إمتياز أو يمانع بانتظام " فى أن نكون نحن أيضا ذات يوم من صناع الآلة .. نفس هذا الغرب الذى من أجله تتظاهر حكوماتنا بالديموقراطية وتشكل مجالس مختلطة من الرجال والنساء ، نفس هذا الغرب الذى ينصب حكوماتنا ويحلها ، ويحفظها واقفة على أقدامها ، ويخفى قبحها بنفاقه ، ويعقد من أجلها مؤتمرات المستشرقين ، ويمجد فيها فى صحفه وأذاعاته ويمدحها مرة كل أسبوع أو كل شهر ، وقد سمعوا فى النهاية أن أذان الأمة رهن بهذا " السرح " الذى تقوم به أوربا .

ومن وجهة نظر المصالح الإقتصادية لصناع الآلة - أى من وجهة نظر الإقتصاد الدولى ، أنه من الأفضل كلما وصلنا إلى الآلة والتقنية أكثر تأخرا. واليونسكو أيضا يقول هذا ويعمل به وال A.K.F.H. وال F.A.O. وحتى هيئة الأمم نفسها تعمل نفس الشيء ، وكل أنواع الخراب والدمار والفوضى عندنا تنبع من نفس هذه النقطة : إنهم على النطاق العالمى أجبرونا على رعاية المصالح الإقتصادية لصناع الآلة ، وإذا كانت سياستنا فى هذين القرنين أو الثلاثة قرون الأخيرة تابعة لمتغيرات الغرب ، فبسبب أن اقتصادنا فى هذه الفترة كان تابعا لنفس هذا الإقتصاد الذى كان متغيرا . أظن أننا أستطيع أن أضرب مثلا من هذا القبيل فى مسألة النفط .. دعنا من السنوات ٣٠-٣٢ * ٥١-٥٣ سنوات حكم الدكتور مصدق " التى وجدت خلالها حتى اللوبياس سوق تصدير ، وفى تلك الفترة كان المبدأ الإقتصادى العام قائما على إدارة الدولة بون أى انتظار لدخل النفط .. وكم كان الأمر فى محله ، وهذه قصة يمكن دائما أن نقصها من البداية ،

لكن ما دامت عجلة النفط تدور اعتمادا على دخله ، وباعتبار الطفيليات التى يربيهها ، فسوف يظل الوضع على ما هو عليه مما يبينه جدول معدل الصادرات والواردات المذكور فى الصفحة التالية :

جدول الصادرات والواردات في عشرة سنوات من ١٣٣١ إلى ١٣٤٠

نقلا عن (Iran-Alma) ١٩٦٣-٢٩٨ ص - طبعة طهران

السنـوات		الصادرات		الواردات	
بالوزن بالطن		بالريال "الألف"		بالوزن بالطن	
				بالريال "الألف"	
١٩٥٢-٥٣ (١٣٣١)	٢٥٤/٠٧٩	٥/٨٣١/٥٢٨	٢٣٢/٢٣٦	٥/٠٣١/٣٩٤	
٤-١٩٥٣	٤٤٣/٧٦٤	٨/٤٢٥/٦٢٢	٤٢٤/٤٤٥	٥/٤٢٤/٢٦٦	
٥-١٩٥٤	٤٦٠/٤٧٨	١٠/٢٨٨/١٧١	٥٠٣/٢٢٦	٧/٢٢٥/٠١٥	
٦-١٩٥٥	٥٠٧/٨٧٣	٨/٠٣٣/٧٢٦	٦٣٧/١٣٢	٩/١٢٥/٤٣٩	
٧-١٩٥٦	٤٦٣/٥٢٩	٧/٩٣٠/٦٩٠	٧٤٤/٨٧٦	٢٠/٩٨١/٢٨٨	
٨-١٩٥٧	٤٣٦/٦٤١	٨/٣٥٢/٩٢٢	٧٤٣/٧٨٤	٢٥/١٢٩/٣٤٢	
٩-١٩٥٨	٤٤٥/٣٩٨	٧/٩٤٠/٦١٥	٩٨٦/٠٩٢	٣٣/٤٥٨/٢٦٠	
٦٠-١٩٥٩	٣٩٧/٢٣١	٧/٧٠١/٠١٧	١/٢٠١/٩٥٠	٤١/٦٣٠/١٣٥	
٦١-١٩٦٠	٤٤٦/٣٠٧	٨/٣٥٩/٨٧٠	١/٩١٣/٥١٤	٥٢/٦٥٧/١٣٩	
١٩٦١-٦٢ (١٣٤٠)	٥٥١/٣٨٤	٩١/٥٩٣/٤٥٠	١/٦١٩/٢٣٤	٤٧/١٧٠/٧٠٧	

وميزوا أنتم أنفسكم بين الأرقام ، فأنا خجلان ، وبدلا من ذلك سأنقل خبرا من مقدمة مجلة " بانك ملي ايران " العدد ٢٥٤ بقلم السيد خوش كيش من خبراء البنوك " في ظرف مدة حوالى ٣٢ سنة ، كان هناك في ايران ١٢ بنك فحسب تعمل مع فروعها بالطبع ، ولكن من سنة ١٣٢٥ إلى سنة ١٣٣٩ " فترة الانفتاح " وفي ظرف ثلاث سنوات فحسب افتتح ١٤ بنك آخر مع بضع شعب وممثل ومؤسس ، وكان عملها دفع أجور العمال الذين يعملون في المصانع الأجنبية ونشترى بضائعهم ، فلا جرم أنه في ست

سنوات من ٣٣ إلى ٣٩ ارتفعت وارداتها من ٧ مليار ريال إلى ٥٢ مليار و ٦٠٠ مليون ريال أى أنها تضاعفت ثمان مرات .

فالنفط يستخرجه الغربى نفسه ، وهو نفسه الذى يصفيه ويحمله ويحسبه ، ويضع لنا مثلا أربعين مليون جنيه استرليني سهما لنا فى حسابنا كرصيدين أجل مصنوعات هو نفسه فى بنوكه هو نفسه ، ونضطر نحن إلى الشراء منه بما يساوى هذا الرصيد .. وما المقصود به هو نفسه ؟ أربعون فى المائة لأمريكا وأقمارها وأربعون فى المائة لبريطانيا ومن تبعها ، وما تبقى لفرنسا وهولندا وأمثالهم ، ونحن فى مقابل هذا النفط الذى يحملوه ينبغى فحسب أن نستورد الآلة ، ووراء الآلة المتخصص ، ووراء المتخصص الآلة ، متخصص فى علم اللهجات والأدب والرسم والموسيقى "!!" ، ومن هنا فإن "موريسون تستورد كل ما تريد من أمريكا من البولدوز حتى الأسلاك والمسامير والصواميل ، و أجيب مينراليا " من ايطاليا ، وجان مولم معبدات الطرق من انجلترا ، و " أنتروپوز " من فرنسا ، والأكثر طرافة الصفقات التى تتم من تحت الغطاء أثناء ذلك . وافتضحت " جان مولم " ، وللمت " فرشها " ومضت ، لكنها ليست ممن يقلع ، ومشغولة فى نفس الأمور . وأين ؟ فى مجلة " تايم " ، وتقوم بالدعاية على نفس النسق لرئيس هيئة الخطة الذى انطلقت قدمه فى هذه الولاية ^(١) ومن كان رئيس شركة جان مولم هذه فى طهران ؟ سعادة بيتر آفرى المستشرق الإنجليزى العالم بالفارسية ، وهو إنسان جذاب جدا ولطيف ومعلم اللغات الشرقية "!!" فى جامعتى كمبردج وميتشجان ، وقد ذهبت لرؤيته فى كمبردج فى شتاء ١٣٤١ ، كان قد طلب رؤيتى ، ووضعت السيدة المبجلة المرافقة لقائه ضمن البرنامج ، وحملت نسخة من الطبعة الأولى من نفس هذا الكتاب تحت إبطى وذهبت إليه ، قال تفضل .. ثم كلام وحديث واستقبال ، وقلت له من خلال حديثى عن بعض الموضوعات ، قلت له : تعلم سيادتكم أن انوارد براون الذى صار انوارد براون لم يصبح رئيس جان مولم فى طهران ، وغلبه البكاء ثم قال : لقد كان غنيا وأنا فقير ، ومن هذه الكلمات

(١) ارجعوا إلى مجلة تايم الأمريكية عدد ٢٨ فبراير سنة ١٩٦٤ ص ٢٠ ، العمود الأخير بشأن السيد ابتهاج .

رأيت أن البشر في كل أنحاء العالم صغار بنفس القدر ، بينما كتب هذا الرجل كتابا تحت إسم " ايران الحديثة " وتناولني بشكل ما قائلا " صدر كتاب أخير بشأن مرض الابتلاء بالتغرب ، وشاء القضاء أن يصابر ، والذين يفكرون في ايران مثل مؤلف الكتاب ربما كانوا قلة من بين الإيرانيين المتعلمين ، لكن التاريخ دلنا على أنه لا توجد نهضة فكرية في ايران مهما كانت صغيرة في البداية يمكن تجاهلها " (١) أجل ، أصحاب السعادة منتبهون إلى الأمور إلى هذا الحد . ، فشركات فورد وروكفلر لها مؤسسات ثقافية ، وتعطى مساعدات لهذا وذاك من أجل نشر الثقافة ، حسنا جدا ، واعتمادا على نفس تلك الأموال ، تقام " مؤسسة ايران " ، وتقيم مستشفى وجامعة في شیراز ، لكن اذهبوا وشاهدوا أية قاعدة أقاموها للأرستقراطية ، وكيف تكون اللغة الرسمية للجامعة تحت أذان سعدى وحافظ هي الإنجليزية ، وأى مرصد لرصد حركات الأقمار الصناعية الأمريكية ، وكيف استوردوا من المسمار والصامولة حتى القدور وحاملات القدور والأبواب والجدران من أمريكا دفعة واحدة ، ونفس فورد وروكفلر يعطون أموالا لفرانكلين في طهران لتطور الكتب المدرسية وتجميلها ، اذهبوا وانظروا (٢) أية شركة عظيمة أقاموها ، وأى احتكار للكتاب المدرسي قاموا به ، وكيف قصفوا رقبة كل ناشر من الوطنيين .. وذهبت إلى فيروز آباد وكازرون وشيراز في جولة صحراوية " في نوروز ١٣٤١ مع المهندس سيحون وفرخ غفارى والمهندس مقتدر " ، وسمعنا أن سعادة " جيرشمن " يواصل حفريات في سابور كازرون ، قلنا لنمض فنسلم ونسأل ونبحث ، ولم يكن موجودا ، أو كان نائما ، ولم يسمحوا لنا بالمثل ، لكن على نفس حفائر سابور كازرون كانت خيامه ومخيماته قائمة ، وفي كل موضع شعار كونسرسیوم النفط وعلاماته ، على الخيام والبضائع والآلات ، وماذا يعنى هذا ؟ يعنى أن حفريات علم آثار سابور كازرون طفيلية على صناعة النفط ،

1)-Modern Iran .By Peter Avery ,Ed Ernest Benn -London 1965, P.488.

(٢) ارجعوا إلى " بلبشوى كتابهای درسى = فوضى الكتب المدرسية " فى " سه مقاله بيگر ثلاث مقالات أخرى " لمؤلف الكتاب .

وهكذا يمكن فهم كيف أن حضرة جيرشمن يريد بضرب الشوم أن يثبت أن " خارك " كانت قاعدة للمسيحية .. ومسائل أخرى ^(١) ماعلينا !!

وعلى هذا النسق ، يذهب النفط ، وفى مقابله تأتى الآلة بكل ما يتفرع منها من المستشرق والمتخصص حتى الأفلام والآداب والكتاب ، ولأن يعود الكسب فى هذه الصنفقة ؟ فى البداية يعود إلى الشركات " ودخل كل رأسمال يستثمر خارج دولهم معاف من الضرائب " ، ثم إلى السماسرة والوسطاء ، ومن يكون هؤلاء السماسرة والوسطاء ؟ غير أولئك الذين نكرتهم ، خمنوا أنتم من يكونون !! ومن هنا لدينا وزراء ونواب فى المجلس وحكومة ، وتهتز حكوماتنا فى أثر هذه الصفقات ، وتأتى الحكومات وتذهب ، وهكذا يرشد الغرب ساستنا ، إما يدوسها بقدمه ، أو يغنى من أجلها أناشيد الاستحسان ، ولا محيص من أن السياسى عندنا له الحق فى أن تكون عينه وأذنه على رويتر أو اليوناييتدبرس أو التايم ، أكثر من أن تكون على الغرفة التجارية فى طهران أو لجنة هدف التعليم أو مجلس مدينة بيرجند إذا كان مثل هذا المجلس موجودا فى تلك المدينة .. وعندما يكون اقتصاد الدولة على هذا الوضع فى أيدي الآخرين ، وهؤلاء الآخرون هم صناع الآلة ، وواضح أنه يجب أن نظل محتاجين دائما مشترين دائما ، ومن حسن الحظ أنه ولما ينته قسط الآلة والجرار والبلدوزر بعد ، تكون الآلة نفسها قد تحطمت أو صدئت ، كما أن الشركة لم تضمن أكثر من خمس سنوات ^(٢)

(١) ارجعوا إلى " جزيرة خارك " لمؤلف هذا الكتاب ، وأيضا إلى المقال الذى كتبه جيرشمن عن نفس هذه الجزيرة ، وتذكروا أن وجود النفط فى خوزستان كان قد انتبه إليه واحد من نفس هذا النوع من المستشرقين أو علماء الآثار هو دى مورجان الفرنسى الذى اكتشفه حتى قيل دارسى ، وكان قد جاء إلى ايران كعالم للحفريات فى شوش ، وقد نشر نتيجة حفرياته فى مجلة " المعادن " طبعة باريس " وبألها من ضجة . وارجعوا أيضا إلى " پنجاه سال نفت بر ايران = خمسون سنة من النفط فى ايران لمصطفى فاتح .

(٢) اتهم المفكر اللبنانى شارل مالك الرئيس السابق لهيئة الأمم المتحدة "!!" الرأسماليين الغربيين أنهم يملكون فى جعبهم الوسائل المادية فحسب للدول النامية أى الطرق والسدود والدقة فى التقنية وابتسامة السادة ، هذا هو ما يعطونه للدول النامية ، لكن لا خبر هناك عن الفكر والحرية والسعادة والحقيقة البشرية ، ناهيك عن أنها أيضا إلهية " مترجمة عن ص ٧٧ من نفس مجلة تايم الأمريكية عدد سبتمبر ١٩٦٢ - من تقرير عن مباحثات المؤتمر الدولى الثالث عشر للإدارة . وقد انعقد هذا المؤتمر بمشاركة ٤٢٠٠ شخص من ٨٤ دولة فى مانهاتن .

ومن الطريف أنه عندما تنهار هذه النسبة في مكان ما من العالم ، فإن أول أوراق التقرير يكتبها مراسلو رويتر ويونايتد برس ، ثم يأتي صوت الصليب الأحمر معلنا إن اثنين من مرضاته قد جرحتا ، ثم يعقد الأجانب المقيمون في ذلك المكان حقائبهم ، ثم يقيم بابا روما قداسا يسأل الله فيه أن يرفع البلاء عن ذلك المكان ، ثم تهبط الأسعار في بورصتي لندن ونيويورك ، ثم تبدأ التايمز والنيويورك تايمز في كتابة المقالات ذات الخبيء وتبيان الطريق من البئر للقوى المحلية ، ثم تقطع العلاقات الدبلوماسية ، ثم ينهمر الجنود المرتزقة ويتحرك الأسطول السابع في البحر المتوسط أو في الخليج الفارسي أو في مياه الصين أو سواحل افريقيا ، ولقجربنا هذا الأمر مرات عديدة ، في تأمين النفط وفي أزمة قناة السويس وفي كوبا وفي الكونغو وفي فيتنام .

لكن ينبغي علينا أن نكون منصفين ، ونقول أن سياستنا واقتصادنا أثناء ذلك لا يبقيا عاطلين تماما ، فهناك متخصصون متغريون يجلسون ويبحثون ، ومستشارون أجانب يأتون ويروحون ، وفجأة ترى مصنعا لتركيب السيارات الجيب أو الفيات يفتح ، أو مصنعا لصناعة البلاستيك ، أو صناعة البطاريات للجيش ، وحتى الآن هناك عدد من قادة الجيش يعيشون في السجن بسبب ما حولها من فضائح ، هذا فحسب ، ويأتي افتخارات واجراءات واحتفالات وشرائط ذات ثلاثة ألوان ومقص وأبهة وعظمة .. لكن ما هو واقع الأمر ؟ إنه لا يهم ولا يكلف شيئا أن ترسل لنا الشركة القماش والشيت والبفته والبطاريات والأباريق التي لا تنكسر ، إنها تبخل فقط في تصدير الآلات الثقيلة ، ثم إن الشركة الأجنبية إذا استطاعت أن تصدر قطعاً منفصلة لإحدى الآلات كقطع غيار فإنها سوف تدفع جمارك أقل ، وسوف تكون نفقات تخزينها وحملها ونقلها أرخص ، ثم إن أجر التركيب في بلد مثل ايران أرخص من اوريا وأمريكا . ولهذا وجدت مصانع تركيب الجيب والفيات وأجهزة الراديو والبطاريات والصناعات الأخرى الوسيطة التي لا جنور لها في الدول النامية سوقاً رائجة ، وينبغي علينا ألا ننسى أن الأمر بالنسبة لدولة متخلفة يعد خطوة على كل حال ، وإن لم تكن خطوة صحيحة ، فعلى الأقل يمكن أن تكون مجالا للفخر

والاستعراض ، ويمكن آخر كل سنة اصدار تقرير رسمي فحواه : أجل ، زاد عدد العمال هذا العام كم في المائة ، وزادت رؤوس الأموال المحلية كذا في المائة ورؤوس الأموال الأجنبية كذا في المائة ولنقدم الجدول التالي عن حقيقة الموضوع :

الولايات والاقاليم	عدد الوحدات الصناعية	عدد العمال "بألف فرد"	رؤوس الأموال بألف ريال
آذربيجان الغربية	١٥٢	٢٦٧٦	٩٠٢/٤٧٣
كرمانشاه	٣٦٦	٤٠٦٢	٨٤٤/٣٧٣
خوزستان	٢٧٢	٣٠٤٤	١/٤٦٥/٠٢٥
فارس	٣٤٧	٤٦٤٢	١/٩٨٧/٨٣١
كرمان	٢٠٨	١٩٦٣	٦٨٢/٠٩٣
خراسان	٨٤٣	١١٠٦٩	٣/٢٧٨/٠٨٧
اصفهان	٨٩٩	٢٤٠٠٦	٥/٨٤٢/٨٣٨
سيستان وبلوشستان	٨٩	٣٠٤	٦٢/٠١٠
طهران	٢٨٤٤	٤٨٥٥٦	٢٢/٢٩٧/٢٧٤
جيلان	٨٥٦	٧٦٥٩	٢/٨٠٢/٢٣٣
مازنداران	٨٨٣	١٦٥٠٤	٤/٦٢١/١٨٩
آذربيجان الشرقية	٣٩٣	٦٢٢٩	(١)٧٢٨/٣٦٣

أى أن نسبة العمال لمجموع السكان فى النوبة ١٣٠ ألف عامل فحسب من عشرين مليون نسمة .

وفى اثر هذه الكلمات نعقد السمنارات ، ونضع خطة البرنامج الثانى والثالث ، ويستمر تردد المستشارين

(١) من ص ٤٠٥ Iran - Almanac سنة ١٩٣٦ طبعة طهران .

الأجانب ، لكن إذا أردتم حقيقة الموضوع ، فهذه كلها ملحقات لصناعة الغرب ، وعلى كل فإن تركيب الآلة شيء فى مستوى القيام بإصلاحها ، ليست صناعة ، ليست صناعة للآلة .

وينبغى علينا أن نضع فى الحسبان ، إنه إذا كانت هناك حاجة إلى خطة ثانية وخطة ثالثة ، والبنك الدولى يضغط ، والرأى العام فى أمم الغرب "!!" فهذا يعنى أن مديرى الشركات عندما يوافقون حكومة ايران على أن تضع فى الظاهر برنامجا أكثر تفصيلا وطولا وعرضا ولعانا ، فإن ذلك فى الأغلب لأن صناعة الغرب ينبغى أن تعلم كم يتقبل السوق الإيرانى فى السبع سنوات أو الخمس سنوات القادمة من صناعاتهم وكم يتحمل ، وما هو مقدار استيعاب مشترىه ، فليست أمورهم عشوائية مثلنا ، إنها تتم طبقا لخطة ، وكلنا نعلم أن فائض الإنتاج يسبب أزمة ، ويحى غول البطالة ، ويؤكد خطر تغيير النظام فى نفس ذلك المكان ، وفى النهاية فإن للسيد ديجول مطالب^(١) والسيد ماكميلان لم يصل بعد إلى سن المعاش والرئيس كنيدي لا يزال فى شرح الشباب ، وعلى كل حال ينبغى أن يعلم الغرب كم يستطيع هذا المشتري المطيع الهادئ أن يجلب خلال الخطة الثالثة ، وكم فى المائة من أسهمه النفطية سوف يحتفظ بها ، ويرسل إليه فى مقابلها الثلاجة والراديو والقدر سريع الطبخ .

ونعلم فى النهاية أن المشرف الأسمى على كل هذه اللجان والسمنارات ولجان الاستشارة الثقافية والصناعية مستشارون غربيون^(٢) عندهم أهداف معينة وأغراض محددة . ولا تواجهونى بحيايد مستشارى هيئة الأمم واليونسكو وموضوعيتهم، إذ لم تعط شركة الذهب والماس فى الكونغو لرئيسهم الفقيد همرشلد أى وزن أو قيمة . رأينا كيف فلجأتنا هذه الهيئة المحترمة بأنها حامية مصالح نفس شركات الذهب والماس البلجيكية والإنجليزية .

(١) لا يغيب عن الذهن أن أول طبعة للكتاب كانت سنة ١٢٤١ ١٩٦٢ .

(٢) ليس عندي احصائية رسمية ، لكن الشائع أنه يوجد الآن ١٢٤١ ثلاثون ألف خبير ومهندس و متخصص أجنبى يعملون فى هذا البلد . المترجم : كان عدد المستشارين الأمريكين فقط قبيل الثورة الإيرانية ١٢٥٧ أربعين ألفا .

ولا جدال فى أن إيرانيين يشتركون فى هذه السمينارات ولجان التخطيط ، أى زبدة المفكرين عندنا ، ونخبة المتغربين لدينا .. لكن على أية صورة ؟ أعتذر إن كان فى الأمر وقاحة ، لكنى أظن أن المشاركين الإيرانيين فى لجان التخطيط هذه لا يتجاوزون حدود الترجمة ، لأنهم إن تجاوزوها وقدموا وجهة نظر، فهى أولا غير مقبولة ، وثانيا سوف يسلب منهم حق القيام والقعود مع العظماء ، ومن هنا فإذا كنا قد رأينا سياستنا واقتصادنا تابعين لسياسة الغرب واقتصاده ، فلأن أغلب مفكرينا - تلك الجماعة التى سلكت طريقها إلى هيئة قيادة المملكة - فى آخر تحليل ، تعد الترجمة أعظم مسئولياتهم الوجدانية والنفسية ، وهم مجرد مفسرون ومترجمون لأرائهم وأهدافهم .. وإلا ألا نعرف نحن أنفسنا كم قرية نائية لدينا ، وكم مساحة الأرض الصالحة للزراعة ، وكم من الأنهار لا يستفاد منها ، وكم من القنوات البور ، وكم من الآلاف من العاطلين أو الأميين أو المحرومين من المدرسة والخدمات الصحية؟^(١) هذا فى حد ذاته لا يحتاج إلى التشبث بأذيال المستشارين الأجانب خطوة بخطوة ، وليت هذا التشبث يحل عقدة واحدة من عقد حياتنا .. وليت يوما يحل لا نحتاج فيه إلى هذا الجيش من المستشارين .

والآن اعتمادا على نفس هؤلاء المفكرين المتغربين المشتركون فى الحكم ، فإن ممثلى سياسة الغرب وجماعة المستشارين يتصرفون معنا بنفس الطريقة التى كان سفراء الإنجليز والروس يتصرفون بها مع اتابك وأمير كبير ، حتى إذا كان المفكر المتغرب عندنا جديرا بالمقارنة مع هذين العظمين ، فإن الفرق أنه إذا كان

(١) كمثال أقدم بعض الإحصائيات عن الحالة الفعلية الآن ١٣٤١ من ناحية الخدمات الصحية : بدلا من ٩٥٠٠ طبيب نحتاجهم لدينا منهم ٥٩٥١ وبدلا من ٢٨ ألف ممرضة ومولدة لدينا ألف وبدلا من ١٩٠ ألف سرير فى المستشفيات لدينا ١٩ ألف . وفى التعليم : بدلا من ٩٥٠٠ مدرس ثانوى من حملة الليسانس فى التخصصات المختلفة لدينا ٤٢٠٠ فحسب، ومن ٥٠ ألف بلد فى المملكة - واعتبر الرقم الأعلى هو الصحيح - لدينا من ٧ آلاف إلى ٨ آلاف بلد تحتوى على مدرسة .. والخبر الطريف أنه مع كل هذا = الفقر التعليمى ، أغلقوا فى سنة ١٣٤٢ كل مدارس المعلمين العليا والمتوسطة على أساس أن طلاب الداخلية يكفون نفقات زائدة ومن هنا أغلقت ٤٢ مدرسة للمعلمين فى أنحاء البلاد .

السفراء فحسب في ذلك الزمان هم الذين يقدمون الرأي ، فالمستشارون الآن جيش، وإذا كان الأتابك وأمير كبير هما المتلقين في تلك الأيام وكلاهما كان شيخاً مجرباً متربعا على قمة عمر من التجربة والتقاليد والمعايير الشرقية عنده ، وقدمه مقيدة بقيد العقائد والرسوم والآداب الموجودة في هذا الجزء من العالم ، فإن المتلقى الآن من المستشارين الغربيين جماعة من المفكرين المتغربين ، فلا شخصية الأتابك أو أمير كبير عنده أو حتى كفاءة حاجي ميرزا أغاسي الذي لا أدرى لأي خطأ اشتهر بعدم الكفاءة ^(١) وهكذا صار أن تحكم أمة على هذا النسق ، أمة تركت لقدر الآلة وقيادة المفكرين المتغربين عن طريق هذه السيمنتارات والمؤتمرات والخطط الثانية والثالثة ، أو اعتمادا على المساعدات " التي لا ترد " ، ويترك الرأس مالية المسخرة في الصناعات الوسيطة التي لا جنور لها .

ولقد مر الكلام عن قدر الآلة بما يكفي ، والآن لنر هؤلاء الزعماء للقوم - هؤلاء المفكرين المتغربين - ما هو شكلهم وأية سحنة لهم .. حقيقة أنتى سوف أطلق بعض الأحكام الكلية ، لكن ضعوا أنتم الاستثناءات جانبيــــــــــــــــا .

(١) عبد الله مستوفى : شرح زندگانی من = سيرة حياتى - صص ٤٥-٥٠ حيث حيث دافع فيه عن هذا الشيخ ، وأبدى أن أغراض قائم مقام هى التى كانت سببا فى هذه الشهرة . المترجم : حاجي ميرزا أغاسي وقائم مقام وامير كبير وميرزا خان اتابك هم الصنوبر العظام عند الملوك القاجاريين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

٩- حمار فى إهاب أسد أو أسد علم ؟

الإنسان المتغرب الذى هو عضو فى جماعة القيادة فى الدولة إنسان قدمه فى الهواء ، نرة من الغبار معلقة فى الفضاء .. تماما مثل قذى فوق سطح الماء ، قطع علائقه مع عمق المجتمع والثقافة والتقاليد ، لا علاقة له سلفية كانت أو تقدمية ، ولا خط فاصل بين القديم والجديد . هو شيء لا علاقة له مع الماضى ولا أى إبراك له عن المستقبل ، نقطة لا توجد فى أى خط ، لكنه نقطة افتراضية على سطح صفحة فى الفضاء ، نفس تلك الذرة المعلقة . ولا بد أنك سوف تسأل : إذن فكيف وصل إلى قيادة القوم ؟ أجيب : بحتمية الآلة ويقدر السياسة التى لا حيلة لها إلا متابعة السياسات العظمى ، وفى هذا الجزء من العالم وبخاصة فى البلاد التى تنتج النفط ، فإن العادة أن كل من كان أخف يطفو على سطح الماء ، فإن أمواج الحادثات فى هذا النوع من مخازن النفط تأتى فحسب بالقذى والقش إلى سطح الماء ، ليس لديها القوة التى تمكنها من طمس زبد البحر ، وطرح الجواهر جانبا . ونحن فى هذا الابتلاء بالتغرب والآلام الناتجة عنه ، نتعامل مع أولئك الذين وضعتهم أمواج الحادثات على السطح ممن لا وزن لهم ولا قدر .. وبالنسبة لرجل الشارع العادى ، لا حرج عليه ، فليس كلامه مسموعا ، ولا ننب له ، فهو يدور فى أى طريق تديره إليه ، ويتشكل بالشكل الذى تربيته عليه ^(١) وإذا أردت الحقيقة فلأن رجل الشارع فى الأصل ليس مؤثرا فى مصيره ، أى أننا لا نسأله أن ينطق كلمة واحدة فى تحديد مصيره ولا نستشيريه ، وبدلا منه نستشير المستشارين الأجانب .. ومن هنا فالأمور خراب إلى هذا الحد ، وهكذا سقطنا فريسة لقادة مبتلين بالتغرب ، ربما يكونون قد درسوا أيضا ، وربما كانوا قد أقاموا فى أوربا أو أمريكا ، وليت تعاملنا يكون مع جماعة

(١) اعترضوا على قائلين : لماذا تجاهلت فى هذا الكتاب نضال الناس فى الأحداث السياسية منذ الحركة الدستورية إلى الآن ؟ ، أنا لم أتجاهل هذا النضال ، لكنى مررت به صامتا ، وذلك لأنه لو كانت القيادة فى هذا النضال صحيحة " بكل خسائرها من السجون والمذابح والنفى " لكانت أحوالنا أفضل ولكان زماننا أحسن ، ولا جدال أنه لم يكن هناك ننب للناس فى كل هذه الهزيمة ، القيادة فحسب فى هذا النضال المستمر هى التى أدت إلى كل هذه العواقب .

القيادة قاصرا على اولئك الذين ذهبوا إلى اوربا فحسب واولئك الذين درسوا ، بل الأمر ليس كذلك ، وبلغ الحال كما أراه وأقوله على المستور أنه بمقتضى نفس ما مر ذكره فى بول هذا الجزء من العالم قد جرت العادة أن التافهين والحثالة من كل حرفة وجماعة يكونون على القمة ، أى العاجزين والعاطلين وفاقدى الإرادة ، فأكثر التجار إفلاسا وعدم اعتبارهم الذين يديرون السوق والغرفة التجارية ، وأقل أهل التعليم عملا وانتاجا هم مديرو التعليم ، وأشد الصرافين إفلاسا أصحاب بنوك ، وأكثر الناس انفلاتا وتسييبا هم أعضاء المجلس النيابى ، وأكثر الناس ضلالا هم زعماء القوم .. قلت لكم من وجدتموه استثناءً من القاعدة فنحوه جانبيا ، فالحكم العام فى هذه الديار هو منح من لا جنور لهم أجنحة وقوائم أى لمن لا شخصية لهم ، إن لم أقل للسفلة والأدنياء . وكل من له حق أو يتحدث الحق أو يرى رؤية صحيحة ويمشى مستقيما ، فلا مكان له فى هذه الجماعة ، ينبغى على الإنسان لى يصل هنا إلى القيادة بحكم التبعية للغرب أن يكون سهل القياد ، وألا يكون أصيلا وألا يكون أصوليا ، أن يكون بلا جنور ، لا قدم له ولا أساس فى ماء هذه الأرض وطينها ، ولنفس هذا السبب فإن قائدنا المتغرب يطفو على الموج ، وليس ما تحت قدمه صلبا ، ولنفس هذا السبب لا يكون صاحب موقف واضح أبدا ، إنه لا يستطيع أن يتخذ موقفا فى مواجهة أية قضية أو أية مشكلة . إنه مذهول ، كل لحظة فى مكان ، لا إرادة شخصية لديه ، إنه مطيع لكل أمواج الحادثات ، لا يناقش أى شيء ، ولا يصطدم بشيء ، يمر من جوار أضخم الصخور بملق ونعومة ، ومن هنا لا تشكل أية أزمة أو حادثة أى خطر بالنسبة لوضعه ، إذا ذهب هذه الحكومة فهناك حكومة بعدها ، إن لم يدخل هذه اللجنة ، فإنه يدخل هذه الندوة ، إذا لم يكتب فى هذه الصحيفة ففى التلفزيون متسع ، وإن لم يكن فى هذه الإدارة ، ففى ديوان وزارة كذا ، وإن لم يشغل سفارة ، فالوزارة جاهزة . ومن هنا يحدث كثيرا أن تتغير الأوضاع وتتغير الحكومات فى الظاهر ، وتذهب وتأتى ، وترى نفس القائد المتغرب فى مكانه ثابتا كأنه جبل أحد ، وهذا القائد المتغرب هو أيضا ماء تحت تين ، لأنه على أى حال يعلم فى أى مكان فى العالم يعيش ، يعلم أنه لا يستطيع أن

يتنفس ، يعلم أن الريح تهب كل آن من صوب ما ، ويون أن تكون فى يده بوصلة ، يعلم أين تكون جاذبية السلطة ، ومن هنا فهو فى كل مكان : فى الحزب وفى المجتمع وفى الصحيفة وفى الحكومة وفى اللجنة الثقافية ، وفى المجلس النيابى وفى نقابة المقاولين !! ومن أجل أن يكون فى كل مكان يجب أن يكون مع الجميع ، ومن أجل أن يكون مع الجميع ، لابد أن يكون ألوفاً ومؤدباً ، لا يجادل ولا يعاند ، مطيعاً ومستقيماً ، هادئاً ، يكتب أيضاً المقالات ضد الشغب^(١) ولا يكون أيضاً فاقداً للإطلاع على الفلسفة ، كما يتحدث عن الحرية ، ولنفس هذه الأسباب - وربما للاستعراض ليس أكثر- أحياناً يعن له أن يبدى شخصية ويقوم بعمل ، لكن لأنه يسير دائماً مع أمواج الأحداث ، حتى يأتى ويتحرك تكون الأحداث قد سبقته وتخلف هو ، وحتى من هذا يستفيد درساً ، وهو ألا يقوم مرة أخرى بعمل ما من شأنه أن يثبت له وجوداً .

المتغرب بالنسبة للدين لا مبال تماماً ، لا يؤمن بأى شيء ، لكنه لا يفتقد الإيمان بأى شيء تماماً ، هو إنسان إلتقاطى ، يأكل خبزه بسعر زمنه ، يستوى لديه كل شيء ، نفسه وأن يمر حماره من فوق الجسر ، لا يعنيه بعدها وجود الجسر من عدم وجوده ، لا إيمان لديه ولا هدف ولا اتجاه ولا عقيدة ، لا بالله ولا بالإنسانية ، لا هو فى هم تطور المجتمع أو فى اسار الدين أو اللادينية ، بل إنه ليس لا دينى .. إنه غير مبال ، أحياناً يذهب إلى المسجد بنفس الطريقة التى يذهب بها إلى النادى أو إلى السينما ، لكنه فى كل مكان مجرد متفرج ، تماماً كأنه ذهب ليشاهد مباراة كرة قدم ، دائماً إلى جوار الساحة ، لا يستمد من نفسه فى أى وقت قط حتى بمقدار نصف دمة فى موت صديق ، أو اهتمام بموضع من مواضع الزيارة الدينية ، أو تفكر فى ساعات الوحدة ، بل إنه أصلاً غير معتاد على الوحدة ، يهرب من البقاء وحيداً ، ولأنه يخاف من نفسه فى الأصل فهو دائماً فى كل مكان ، وهو لا بد أن يعطى صوته ، إن كان ثمة تصويت - وبخاصة إذا كان التصويت درجة -

(١) أنظر مجلة سُنْحَن = الكلام أو الشعر والألب - خردادماه سال ١٣٤٠

لكن لمن يرى فيه نفعا شخصيا أكبر له ، لا تسمع منه فى أى وقت صحيحة أو اعتراض أو إشارة أو مناقشة ، ثقيل ووقور ويتؤدة عند الكلام يبرر كل شيء ، ويبدى نفسه متفائلا .

الإنسان المتغرب مؤثراً للراحة ، يغتتم اللحظة ، لكن لا شك ليس بتعبير الفلاسفة ، مادامت سيارته منتظمة ، ومظهره كذلك ، فلا هم بعدها على الإطلاق ، وإذا كان " هم الأولاد والخبز والكساء والقوت " يمنع الشاعر الحكيم سعدى من التجوال فى الملكوت ، فهو ورأسه فى مزوده مشغولة ، لا هم له بأحد إلا بنفسه ، إنه لا يخلق المتاعب لنفسه ، ويهز كتفيه راحة ، وما دام قد ضبط حسابات نفسه ويخطو كل خطوة بحساب ، ويعتبر كل عمل نتيجة معادلة ما ، فلا دخل له بهموم الآخرين ، فما بالك بأن يحمل همومهم .

الإنسان المتغرب عادة لا تخصص عنده ، يقوم بكل عمل ولا عمل له ، لكن لما كان قد درس وقرأ بعض الكتب ، وربما لمدرسة فكرية ما ، فإنه يعلم كيف ينطق بعض الألفاظ الضخمة فى كل جمع ، وربما تخصص فى زمن ما فى شيء معين ، لكنه فيما بعد عندما رأى أنه فى هذه البلاد لا يمكن نفاق السلطات بتخصص واحد ، اضطر إلى مزاولة أعمال أخرى ، تماما كعجائز النسوة فى الأسرة ، نتيجة لطول العمر وتجربة السنين يعلمن بعض المعلومات المختصرة عن كل شيء ، ولا شك أن الخالات العجائز قد علمن المتغرب شيئا طفيفا عن كل شيء ، الفرق ما يتصل بالغرب ، ما يصلح للعصر ، ما يهم التلفزيون ، ما يصلح للجانب الثقافية والنوآت ، وما يصلح للصحف واسعة الانتشار ، وما يصلح أيضا للمحاضرات فى النوادي .

والمتغرب لا شخصية له ، شيء فاقد الأصالة ، سواء فى شخصه أو فى منزله ، ولا تفوح كلماته برائحة أى شيء ، بل تمثل فى الأغلب كل شيء وكل شخص . وليس ذلك بمعنى أنه " كوزموبوليتان " أى عالمى . أبدا ، إنه لا ينتمى إلى أى مكان ، ولا ينتمى إلى كل مكان ، خليط من التفرد فى الشخصية والشخصية الخالية من الخصائص ، وما دام لا يثق ، فهو يستخدم التقيية ، وبينما هو حسن

المجاملة وحسن اللقاء ، إلا أنه لا يثق في الطرف الآخر ، ولما كان سوء الظن مسيطرا على زماننا ، فإنه لا يفتح قلبه في أى وقت من الأوقات ، وربما كانت الخصيصة البارزة فيه التى يمكن لمسها ورؤيتها هى الخوف ، وإذا كانت الشخصية الغربية قد صارت فى الغرب ضحية التخصص ، فالمتغرب هنا لا شخصية لديه ولا تخصص .. لديه الخوف فحسب : الخوف من الفصل ، والخوف من فقدان الشهرة والمنصب ، والخوف من اكتشاف خلل المخلة التى تثقل رأسه وتسمى المخ .^(١)

الإنسان المتغرب فاسق . متصف بالأنوثية^(٢) يهتم بنفسه كثيرا ، ويواظب على مظهره دائما ، بل وأحيانا " ينتف " شعر حاجبيه ، يعطى حذاءه ومنزله أهمية قصوى ، يبدو دائما وكأنه خرج من الورق المذهب ، أو خرج من بيت أزياء أوروبى ، تتغير سيارته كل عام إلى طراز جديد ، ومنزله الذى كان ذات يوم يحتوى على إيوان وسرداب وحوض وظلة ودھليز ، يشبه الآن كل يوم شيئا آخر ، يشبه يوما الفيلات التى تقع على شاطئ البحر بنوافذ كثيرة " دايما يبور " ومليئة بلعبات الفلورسنت .^(٣) وفى يوم آخر شكل الكباريات ، ذا مظهر خلاب ومليئا بالمقاعد ، وفى يوم ثالث لكل جدار لون ، وقد غطى سطوحه بتلال من المثلثات من كل لون . وفى ركن

(١) لتأييد هذه النقاط انظر " ايران را از ياد نبريم = علينا ألا ننسى ايران " بقلم صديقى العزيز محمد على اسلامى ننوشن . من اصدارات مجلة " يغمما " اسفند ١٣٤٠ .

(٢) بشأن هذا الفسق أو التأورب انظر " تسخير تمدن فرنگى = سيطرة الحضارة الأوربية " بقلم سيد فخرالدين شامان - طبعة طهران ١٣٢٦ والذى أشرت إليه آنفا .

(٣) انتبهوا إلى هاتين العبارتين من إعلان ملون كبير التقطته من جريدة اطلاعات " ١٩ اربيهشت سنة ١٣٤٢ ص ١٢ " بشأن مدينة حديثة التأسيس فى منطقة طهران ومحاسنها " الميكنة الخاصة والمزايا المدهشة لهذه المدينة الصغيرة ، تنقل إلى داخل بلدنا حقيقة من أسلوب المعمار فى اوربا وأمريكا ، والفيلات الحديثة فى هذه المدينة الصيفية ، تجعل المفتونين بالحضارة الغربية " كذا " والذين تربوا فى ظلالها يقعون فى هواها ، لأنهم سوف يحسون دائما أنهم يعيشون فى اوربا أو امريكا " وهل يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر وضوحا من هذا ؟

يوجد راديوجرام " هاى فيديلتى " ، وفى ركن آخر تلفزيون ، وفى ركن ثالث بيانو للسيدة الصغيرة ، وفى ركن سماعات " ستريو فونيك " ، والمطبخ وكل شق ملىء بالبوتاجاز والغسالة الكهربائية ، وكل هذه " الكراكيب " . ومن هنا فالمتغرب أوفى مستهلك للصناعات الغربية ، وإذا استيقظ فى الصباح ذات يوم وعلم أى حلاق أو خياط أو ماسح أحذية أو محل إصلاح قد أغلق أبوابه لأصابته حسرة ، وتمدد ناحية القبلة ، بالرغم من أنه لا يعلم أين توجد القبلة ، فوجود كل هذه المشاغل والصناعات الأوربية التى ذكرتها أكثر ضرورة من وجود أية مدرسة أو مسجد أو مستشفى أو مصنع، من أجله لدينا مثل هذا المعمار النسبى وفاقد الأصل^(١) وهذا التخطيط للمدن المزور . ومن أجله كان أن تحولت شوارع المدن وميادينها بلون الفلورسنت الوقح والنيون إلى شكل محلات الحلاقة . من أجله يصدر كتاب عن الطبخ أى الطريق إلى البطن تحت عنوان " الطريق إلى القلب "^(٢) ملىء بالتفسير والتفصيل للأطعمة المليئة بالدهون واللحوم ، والتى لا يمكن تناولها أصلا فى مثل هذا الجو الحار الجاف ، أطعمة تعد فحسب لاستهلاك أفران البوتاجاز من صناعة الغرب . ومن أجله أيضا تهدم بواكى الأسواق^(٣) ، ومن أجله تهدم " تكية

(١) كنا قد ذهبنا لشراء منزل لأحد الأصدقاء فى " دروس " ، وكان المنزل نسخة من الكنيسة التى بناها كوربوزيه على طراز حديث وتعرف باسم " نوتردام دى هو . تنقص برجها فحسب ، لكن بكل تفاصيلها الدقيقة ، وكل طاقتها .. إلخ .

(٢) كتاب ملىء بالزخارف والمناظر وغالى الثمن جدا . بقلم أو ترجمة السيدة يوسفى - نشر ابن سينا .

(٣) ارجعوا إلى " چند كلمه با مشاطها = بضع كلمات مع المواشط " بقلم الكاتب فى مجلة " انديشه وهنر = فكر وفن " عدد آبانماه سنة ١٣٣٧ وفى نفس المجال مقال " كاروانسرای صفوى اصفهان را چگونه خراب کردند = كيف هدموا استراحة القوافل الصفوية فى اصفهان " بقلم عبد الحسين سبنتا فى عدد فروردین ١٣٤٢ من مجلة " ارمغان = هدية العائد من السفر " وعلاوة على هذا كان صديقى العزيز تقى فداكار يروى لنا من ذكريات طفولته التى كان شاهدا عليها كيف هدموا " مئذنة شهرستان " التى كانت فى اصفهان على رأس طريق يزد بجوار نهر " زاینده رود " ، وكانت مئذنة ذات شرفتين ، وتفاصيل ذات أهمية بالنسبة للتاريخ والمعمار ، ويطويها بنوا فى خرائي فرح آباد اصفهان ثكنة للجنود .. ويأمر من حدث هذا ؟ بأمر الجنرال

الدولة^(١) ، ومن أجله أيضا يُبنى مجلس الشيوخ بهذه الضخامة ، وأيضا من هذا القبيل ما يقوم به العسكريون من زينة وزخرفة فوق صدورهم واكتافهم وحمائل أحزمتهم بما يملأ مكان خراز من بضائع .

الإنسان المتغرب عنه على يد الغرب وفمه ، ففي عالم أنانيته الصغير ، لا شأن له بما يحدث في هذا الركن من الشرق ، وإذا صادف وكان من أهل السياسة ، فإنه يعلم أقل ميل إلى اليمين أو اليسار في حزب العمال البريطاني ، ويعرف سناتورات أمريكا أفضل من معرفته لوزراء بلده ، ويعرف اسم معلق التايم أو ال " نيوز كرونكل " وشكله عن اسم ابن عمته المقيم بعيدا جدا في خراسان وشكله . ويرى أنهم أكثر صدقا من البشير النذير ، وذلك لأنهم أكثر تأثيرا في كل أمور المملكة من أى سياسى أو معلق أو نائب محلى . وإذا كان من أهل الأدب أو الكلام، فهو مهتم فحسب بمعرفة من الحائز على جائزة نوبل هذا العام ، أو إلى من ذهب " الكونكور " أو ال " بوليتزر " . وإذا كان من العاملين في حقل البحث ، فإنه يضع يدا فوق يد ، ويتجاهل كل القضايا الجديرة بالبحث في البلد ، ويتابع فحسب ما قاله المستشرق فلان بشأن قضايا الجديرة بالبحث وما كتبه . لكن إذا كان من عوام الناس ومن هواة المجلات الأسبوعية والأوراق الملونة ، فقد رأينا أنه يحلج بطاقة عدة رجال .

على كل حال ، إذا كنا في وقت من الأوقات ، بذكر آية من القرآن أو حديث منقول بالعربية ، كانت كل الأفواه تغلق ، وكل جدل يخمد ، فإننا الآن في كل شأن نغلق كل الأفواه بنقل عبارة عن فلان الأوربى ، وفي هذا المجال بلغ الأمر حد الفضيحة ، بحيث أن النبوءات الغريبة للمتنبئين والمنجمين وقراء الفأل ، تحرك

= " جلوروب " السويدى الذى كان فى ذلك الوقت قائد الحامية أو ما يشبه هذا فى اصفهان . كان يقول : شمعوا المنئنة من ناحية ، وأخلوا ما تحتها من نفس الناحية ، ثم لفوا قواعد الأعمدة الشمعية بلحاف صبوا عليه النفط وأشعلوا النار ، وعندما احترقت الأعمدة الشمعية ، نامت المنئنة من نفس تلك الناحية . هذا فحسب .

(١) تطبيقا للشعار القائل " كل من أتى بنى عمارة جديدة " وابتكار المهندس " فروغى ها " ، لا لبنوا مكانها بل فى أقصى طرفها السوق المسمى بالبئك الملى .

الدنيا دفعة واحدة وتخيفها . والآن انتقل الوحي المنزل من الكتب السماوية إلى الكتب الأرضية ، أو إلى أفواه مراسلي رويتر ويونايتد برس ... إلخ ، هذه الشركات العظمى لصناع الأخبار المصطنعة وغير المصطنعة . حقيقة أن معرفة الأساليب العلمية وصناعة الآلة والتقنية وأصول الفلسفة الغربية يمكن طلبها فحسب من كتب الغرب ، لكن المتغرب الذي لا شأن له بأساس الغرب ولغته ، عندما يريد أن يعلم شيئاً أيضاً عن حال الشرق ، يلجأ إلى الكتب الغربية ، ومن هنا يتسلط مبحث الاستشراق في الدول المتغربة على العقول والأفكار ومن المحتمل القريب من اليقين أنه نبات طفيلي ظهر على جنور الاستعمار " ، والمتغرب بدلاً من أن يلجأ فحسب إلى وثائق الغرب ومصادره عند البحث عن أصول الحضارة الغربية ، يفعل هذا عند بحثه عما هو غير غربي فحسب ، مثلاً بشأن فلسفة الإسلام ، أو رسوم جوكية الهنود ، أو كيفية انتشار الخرافات في اندونيسيا ، أو الروح القومية عند العرب ، وفي كل موضوع شرقي آخر ، يعتبر الكتابات الغربية فحسب هي المصدر والمعيار ، وعلى هذا النحو فإن المتغرب يعرف حتى نفسه من ألسنة المستشرقين ، وينفسه - بنفس ذاته - يعتبر نفسه شيئاً موضوعاً تحت مجهر المستشرق ، ويعتمد على ما يراه المستشرق ، لا على ما هو عليه بالفعل ويحس به ويراه ويجريه ، وهذا هو أقبح مظاهر التغرب ^(١) : أن تعتبر نفسك لا شيء ، وأن تظن نفسك لا شيء ، وتفقد الثقة في نفسك وأذنك وبصرك ، وتضع زمام كل حواسك في يد كل قلم يمسك به عاجز كتب كلاماً أو قاله كمستشرق . وأنا في الأصل لا أعلم منذ متى صار هذا الاستشراق حتى الآن صار " علماً " ؟! إذا قلنا إن فلاناً الغربي عالم في الموضوعات الشرقية الخاصة باللغة أو اللهجات أو الموسيقى ، فهذا كلام معقول ، وإذا قلنا إنه عالم بالإنسان أو المجتمع فهو معقول إلى حدود .. لكن مستشرق بشكل عام يعني ماذا ؟

(١) كأحدث نموذج في هذا الشأن أرجعوا إلى مقال " بر محضر عارف إيراني = في حضرة عارف إيراني " بقلم يان ريبكا في الأعداد من الأول حتى الثالث من مجلة " راهنماي كتاب = دليل الكتاب " من فروردين حتى خرداد ١٣٤٢ ، وهو مقال يفيض بالتكريم عن الكشف الذي يتميز به الشيخ شمس العرفاء وكراماته .. إلخ . وتذكروا أن هذا المحترم يان ريبكا جاء إلى إيران كمترجم لخبراء شركة " اسكودا " التشيك ، وفيما بعد كتب أيضاً تاريخ أدب لنا .

يعنى عالم بكل خفايا عالم الشرق؟! هل نحن نعيش فى عصر أرسطو؟ هذا هو ما أسميه طفيليات نبتت على جنور الاستعمار . والطريف فى الأمر أن هذا الاستشراق أيضا مرتبط باليونسكو ، وله تشكيلات ومؤتمر كل عامين أو أربعة أعوام ، وأعضاء ، وهيلمان .. ويا لها من حكايات !!

ومنبع الشقاء هنا أن رجالنا المعاصرين ، وبخاصة من لهم يد فى السياسة والأدب (وبالمصادفة أن إحدى سمات السياسة وممارسة السياسة فى الدول المبتلاة بالتغرب أن أغلب السياسيين من الأبناء ، من الأبناء الكبار نوى اللحن والشوارب ، ولنفس السبب أن عكس القضية صحيح أيضا ، أى أن كل سياسى بارز ينبغى أيضا أن يؤلف كتابا) أغلبهم ممن روضهم هؤلاء المستشرقون الغربيون ، لأنهم كانوا يوما تلاميذ فى مدرسة هذا الأستاذ أو حضروا عليه ، والمستشرق الذى لأنه لم يتخصص فى أى شيء فى بلده ، وحرّم من أى نصيب فى أى فن وحرفة وتقنية ونوق ، ولهذا السبب بتعلمه اللغة شرقية دخل فى الخدمة السرية أو العلنية لوزارة الخارجية فى بلده ، وبعدها صُدّر إلى هذا الطرف من العالم وراء الآلة صناعة الغرب ، أو دليلها ، أو مع المتخصصين الفنيين فيها ، لكى يقوم أثناء بيع المصنوعات الأوربية بكتابة الشعر شديد الرقة ، وليسعد قلب ذلك المشتري الوفى ، الذى لا يفتأ يقول : أجل ، هل رأيت ؟ هل سمعت كيف أن فلانا يتحدث الفارسية بطلاقة ؟!! وبهذه الوسائل لدينا مستشرقون نوو كتب وأبحاث وحفريات وعلوم فى الشعر ومعارف فى الموسيقى .. ثم : فى تلك السوق الرائجة للحاجة إلى التطور الآلى .. ماذا يفعل المستشرق الأوربى ؟ يأتى ويكتب شرحا على ملا صدرا ، أو رأيه عن اعتقاده أو عدم اعتقاده فى امام الزمان ، أو يكتب بحثا فى مناقب الشيخ پشم الدين كشكولى^(١) ، ثم يأتى كل متغرب فى أى مكان ، فيعتمد على هذه الكتابات ، ليس هذا فحسب بل سمعت أن كثيرين على رؤوس المنابر وفى المساجد " التى تعتبر آخر حصار فى مواجهة الغرب والتغرب " يعطون الكلام حقه نقلا عن كارلايل وجوستاف

(١) المترجم :ملا صدرا هو حكيم ايران صدر الدين الشيرازى وإمام الزمان هو الإمام الغائب ، ويشم الدين كشكولى اسم ساخر بالطبع يقصد به جلال آل احمد كل مشايخ الطرق الصوفية فى ايران .

لويون وجويينو وانوارد براون وآخرين ، كآخر وثائق على أحقية فلان أو العمل كذا ، أو مذهب كذا .

ومما لاشك فيه أنتى أرى من المناسب جدا أن أنكر أنه لما كان الغرب مجهزا بالوسائل الجامعية والعلمية وبالمكتبات المليئة ، حتى فى معرفة لغة أو مذهب أو أدب شرقى ، له أيضا أسلوب علمى ويد أكثر انطلاقا ونظرة أوسع أفقا ، ولا محيص من أن نعتبر قوله ورأيه مرجحين على أقوال الشرقيين أنفسهم وآرائهم ، فليس لديهم هذا المنهج العلمى ولا هذه الوسائل ، ومكتبات ذلك الطرف من العالم وجامعاته ملئت عن طريق الإغارة على الآثار والتحف والمكتبات الموجودة فى هذا الطرف من العالم ، فلا محيص من أن تكون فى متناول يد الباحث الغربى فى مجال معرفة الشرق وسائل أكثر ، ومن هنا ينبغى البحث عن أغلب المصادر عن الشرق فى الغرب نفسه ، ربما لأن الشرقى نفسه لم يصل قط إلى هذه الآفاق ، أو ربما لأنه لا يزال فى أسار الحذاء والقلنسوة والخبز اليومى ، ولم يجد الفرصة للبحث فى اللاهوت والناسوت .. وربما لآلاف الاحتمالات الأخرى ، ولا بد أن أفترض كل هذه الاحتمالات . لكن : ماذا نقولون فى المجالات التى الشرقى فيها وجهة نظر وللغربي وجهة نظر أخرى ؟ وكلاهما يتبع أسلوبا واحدا لكن بعينين مختلفتين وينظرتين مختلفتين ويلفتين مختلفتين ؟ ألا تصدقون أنه فى نظر المتغرب يرجح رأى المستشرق أو الباحث الغربى بأى شكل يكون على رأى المتخصص الشرقى ؟ لقد جربنا بأنفسنا هذا الأمر مرات . وكآخر نقطة : إن المتغرب فى هذا البلد لا يعرف شيئا أصلا اسمه قضية النفط لا ، لا ينبس عنها ، لأن صلاح دنياه وآخرته ليس فى هذا الأمر ، وبالرغم من أنه يأكل خبزه من نفس هذا الطريق ، إلا أنه لا يوجع رأسه أبدا برائحة النفط ، فلا حرف ولا كلمة ولا إيماء ولا إشارة .. إطلاقا ، فى مواجهة النفط تسليم محض ، وإذا خطا قدما ، فلكى يقوم بأعمال الخدمة والسمسرة من أجل النفط ، يكتب من أجلهم المجالات " ارجعوا إلى مجلة كاوش = التتقيب " ، ويصنع الفيلم " شاهلوا موج ومرجان وخارا = الموج والمرجان والصوان .. " لكن : ولا كأنك رأيت شيئا ، ليس المتغرب بالذى يعيش فى أحلام اليقظة ، ليس مثاليًا ، إنه يتعامل مع الواقع ، والواقع فى هذا البلد : قم بالمرور بون التعرض لصداع النفط !! .

١٠- مجتمع متفسخ

لكن : ماذا عن المجتمع الذى يديره هؤلاء القادة ، أى مجتمعنا المتغرب ؟ لنر
إنن ما هى سماته .

رأينا من الناحية الإقتصادية والإجتماعية كيف أن مجتمعنا فريسة لجهاز غير
متناسق ومتفسخ يخلط من اقتصاد الرعى والمجتمع الريفى والمجتمع الحضرى الجديد
، مع تسلط القوى العظمى الأجنبية الشبيهة بالـ "تراست أو الكارتل " ، لدينا هذه
كلها مجتمعة . متحف حى للمؤسسات القديمة والحديثة ، وحتى الآن لا يزال حوالى
مليون ونصف نسمة من مواطنى الدولة من الرحل . هذه هى الإحصائية الرسمية ،
أى الإحصائية التى هذبت وأصلحت ، والعشائر بالفعل أكثر من ثلاثة مليون نسمة ،
وسل وزارة الدفاع وإدارة العشائر التابعة للبلاط ^(١) ، وهم ليسوا مرتبطين بالأرض ،
لكنهم عامل تخريب لكل عمران يكون فى طريقهم ، يعيشون على الرعى و٩٥٪ منهم
تجسيد للفقر والعوز والتشرد ، فهم مشربون طوال العام فى البحث عن أكثر نعم
الدينيا بدائية أى الماء ، من منازل الصيف إلى منازل الشتاء وبالعكس . لكن
طرف الخيط لكل التحريضات السياسية الداخلية والخارجية فى أيدي رؤسائهم ،
فهم رسميا حراس الحدود وأصدقاء للشاه ، وفى مقابل هذا يجوبون كل الإتاوات ،
وهم فى الواقع يسرعون خلف كل انعدام للأمن ، ويتركون من خلفهم الخراب والرعب ،
يشترك رؤساؤهم فى المراسم الرسمية ، وفى كل مناسبة يرسلون برقيات التهئة ،

(١) طبقا لتعداد ١٩٦٢ " نوفمبر " يمثل عشائر ايران ١٥٪ من السكان ، أما الباقي ٢٥٪ من
سكان المدن و ٦٠٪ من سكان القرى . ويسبب بعض العوامل التاريخية كان الإقطاع والنظام
العشائرى يتطوران فى ايران ، وكانت القوة الوحيدة التى يمكن أن تظهر فى نظام الإقطاع هى
القوة العشائرية ، وليست مصادفة أن كل الأسر الحاكمة التى وصلت إلى السلطة فى ايران
ظهرت من بين العشائر ، حتى فى عهد الثورة الدستورية ومصائبها ، اشترك رسميا فى
أحداثها عشائر البختيارى والملاك الكبار "سپهسالار تونكابونى وآخرون " . نقلا عن ص ٤١٩
من سالنامه صدای ايران = الكتاب السنوى لراديو ايران سنة ١٩٦٢ والذى ينشر فى طهران
بالإنجليزية تحت إسم وبصفة :

لكنهم تهديد مستمر لكل من يفكر فى عملية التعمير فى مناطق نفوذهم ، وخان " باشت " لا يزال يأخذ مبلغ كذا سنويا كإتاوة من شركة النفط ، وخان " حيات داودى " يدعى الحكم فى تسليم جزيرة خارك للكنسرسيوم وكان الحق معه ، أما خان القشقائى فقد جلس على العرش فى سويسرا منتظرا الفرصة للعودة وتحطيم الزمان والمكان " ورأينا فى نوروز ١٣٤١ كيف هدمت الحكومة قصرهم فى فيروز آباد وخربت حياتهم " ، وإذا كان البختيارى ساكنين ، فذلك لأن الكثيرين منهم من العصر الدستورى فما بعد ، وصلوا إلى مرتبة أصدقاء الشاه المقربين ، ونيابة المجلس ، ورئاسة مؤسسة الأمن ... الخ .

ومن أجل البدء فى أى أمر فى هذا البلد ، ينبغى فى البداية إسكان العشائر ، ولا شك بغير الطريقة التى كنا نتبعها حتى الآن .. ليس عن طريق القوة والترحيل الإجبارى على الإطلاق ، بل بطريقة دقيقة ومنطقية ومحسوبة بتحديد أرض صالحة للزراعة لكل فرد ، واعداد الوسائل الجديدة للزراعة لكل جماعة و قبيلة - بضمان شراء فائض الأغنام عندهم - وحث أفراد القبيلة على المشاركة فى بناء منازلهم القبلية ، وتأسيس المراكز الصحية والثقافية ومراكز الإصلاحات الفنية لكل قرية حديثة التأسيس .. على كل حال ، ما لم تبدل طنب الخيام العشائرية إلى أسس منازل قروية ، وما لم يكتشف رجال العشائر ونسائها المعرفة بالزراعة ، وما لم يجلس أطفال العشائر تحت سقوف المدارس للدرس ، فإن كل خطوة إصلاحية فى هذا البلد ، إما أنها أكنوية لخداع العوام ، أو إدعاء طفولى .. ومع هذا ففى مثل هذا الوضع ، فإن سياسة حكوماتنا بشأن العشائر عبارة عن : لتركهم لحالهم حتى يتلاشوا فى فقرهم ومرضهم المزمن ، ويرتعدوا دائما فى مواجهة الجذب ، وحتى لا يبقى فيهم رملق وبالتالي أثر لوجودهم .

رأينا أيضا أن ٦٠ أو ٧٠٪ من الأهالى الغيورين يعيشون فى القرى ، وفى مثل هذه الأرياف التى نكرت بعض أحوالها باختصار من قبل سواء فى هذا الكتاب أو فى " اورازان = اسم منطقة نائية فى الطالقان " و " تات نشين بلوك زهرا = المقيمون فى صحراء التات ببلوك زهرا " . أرياف فى حالة نحول يوما بعد يوم وتدهور ، حتى تكون

المدن الجديدة فى حالة انتفاخ ونمو يوما بعد يوم ، وقلت : تماما كنمو غدة سرطانية ، ذلك التوسع الحضرى لمدينة تغرس فى كل ناحية من الصحراء كالقطر ، لكن لاماعها ولا كهرباها ، ولا حاراتها ولا شوارعها ، ولا شبكة التليفونات والمجارى فيها نفدت من خطة مسبقة .. فكيف يمكن أن نسميها بشىء آخر إلا بالنمو السرطانى ؟ نقتلع الناس من تلك القرى ، ونأتى بهم إلى هذه المدن ، ولا فرق فى الحقيقة بين هذه المدن وتلك القرى ، إلا أنه يوجد عمل فى المدينة وبشكل نادر ، وإن وجد فهو موسمى وفصلى ، لكن لا عمل قط فى القرية ، وبهذا التطور الكاذب الذى أخذوا يلعبون لعبته فى العشرة سنوات الأخيرة آخذين فى زيادة طبقة صغار الملاك ، فقد زادت الأمور سوءا ، ولو كنا قد قويننا طبقة صغار الملاك منذ مائتى سنة ، لكان لدينا الآن على الأقل دستور محترم . لكن الحديث الآن عن " التعاون " ، وأصبح تقسيم الأراضى بصورة فعلية بهدف خلق صغار الملاك أمرا قديما ، فتقسيم الأراضى بهذه الصورة يعد أكبر حائل أمام الميكنة الزراعية ، فلا الآلة تتحمل الملكية الصغيرة ، ولا المالك الصغير قادر على إعداد الوسائل الآلية للزراعة الحديثة ، ومع الروح الانفرادية وأحادية السير الموجودة عندنا ، لا يمكن أبدا أن نصدق أن يتجمع أغلب أهل الريف معا ويمبادرة منهم ، ويجمعون رأس المال ، ويستوردون الآلات ، ولأقصر الحديث فى هذا المجال ، ولأتركه لأخى حسين ملك ، الذى قدم فى أعداد مختلفة من مجلة " علم وزندكى = العلم والحياة " خطة دقيقة جدا للزراعة ، وجعلها - فى وقتها - فى متناول يد الرأى العام.^(١)

على كل حال ، ما لم يرفع شر التجنيد الإجبارى عن رؤوس القرى ، وما دام وسواس المدينة قائما ، وما دام الخوف من مرور العشيرة باقيا ، فلن يعمر الريف ، وما لم تمتد الطرق إلى القرية وتصل إليها الكهرباء ، فلن تضاء منازل القرية ، وما لم تملك كل ثلاثين أو أربعين قرية مركزا لصيانة الآلات الزراعية ، فلن تكون

(١) ارجعوا إلى : علم وزندكى أعداد سنة ١٣٢٨ - الكتاب الرابع - الكتاب الخامس - الكتاب السادس " كلها خاصة بالإصلاح الزراعى - والمرة الأخيرة فى الكتاب العاشر من نفس المجلة أبان ١٣٢٩ - وكل هذا قيل وكتب قبل التقسيم الفعلى للأراضى .

هناك ميكنة زراعية ، وما دام الحديث يدور حول الملاك الصغار ، وما لم يقم إلى جوار كل مدرسة في القرية فصل لتعليم الميكانيكا ، ستظل الآلة غريبة عن القرية ، وإذا فتح الطريق لها إلى القرية ، فلن تصبح شيئاً إلا عامل تخريب وتحريض وفتنة .

أما المدن ، هذه الأعضاء السرطانية التي هي يوماً بعد يوم في حالة توسع وامتداد ، مع انعدام تناسق وانعدام أصالة ، ويوماً بعد يوم تطلب طعاماً أكثر من مصنوعات الغرب ، ويوماً بعد يوم تتوحد أكثر في الانحطاط وانعدام الجنور والقيح . كل منها ميدان يتمثال مطابق للنشرة وسط الميدان ، بواكى الأسواق المهدمة ، محلات متباعدة ، ويدون ماء أو كهرباء أو تليفون ، ويون خدمات اجتماعية ، وخالية من مراكز التجمعات والميكنة ، والمساجد المهدمة ، والحسينيات القديمة المنهارة والتكايا التي لا معنى لها ، ولا حزب هناك ولا ناد ولا منتزه ، وعلى الأكثر دار أو داران للسينما ، كل منها ليست شيئاً إلا وسيلة للإثارة الجنسية ، ويمكن فيها قتل الوقت فحسب أو التسلية التي لا رابط بينها ، فدور السينما عندنا لا هي تعلم ولا هي تساعد على التطور الفكرى عند الناس ، ويمكن أن نقول بجرأة أن السينما في هذا الجزء من العالم مجرد " حصالة " يضع فيها كل واحد من سكان المدينة كل أسبوع تومانين أو ثلاثة ، حتى يصير المساهمون الأصليون في " مترو جولدن ماير " مليونيرات ^(١) ، وصناع الفكر عند سكان المدينة عندنا هم هذه السينمات أو الأذاعة الحكومية أو المجلات المصورة ، وكلها تخطو خطوات تنتهى بالـ " كونفيرمزم " أى جعل الجميع نموذجاً واحداً ، فالبيوت يشبه بعضها البعض ، والملابس كلها على نسق واحد والحقائب ، والأطباق والأكواب البلاستيك ، والأشكال والبوزات ، وأسوأ من كل شيء أسلوب التفكير ، وهذا أكبر خطر للحياة في المدن الحديثة عندنا .

(١) يدفع سكان طهران ٢٢ مليون تومان للسينما كل شهر ، وصاحب السينما يكسب من الفيلم الواحد سبعة أمثال قيمته الأصلية . هذه المعلومة موجودة على رأس مقال نقلته مجلة " خواندنيها = ما هو جدير بالقراءة " - عدد ٩٦ - ٢٠ مرداد ١٣٤١ من زميلتها الأخرى " روشنفكر = المستير " .

وإذا كان " الكونفيرميزم " فى الفكر والحياة فى ظروف مجتمع متقدم يصنع الآلة خطرا إلى هذا الحد ، لأنه يجعل الإنسان فى خدمة الآلة ، فهو بالنسبة لنا الذين نستهلك الآلة مضاعف الخطر ، إنه يجعلنا بقوة مضاعفة عبيدا للآلة . فالغريبى خادم الآلة يعرف على الأقل شيئا عن الديموقراطية ، وذلك لأن الحزب وراء الآلة ، لكن نحن الذين ليس لنا حزب ، وهم يقللون من تجمعاتنا المذهبية التى هى المدارس الدينية يوما بعد يوم ، كما أننا فى أسر نظام حكم من عهد دقلديانوس ، فإذا كان قد تقرر أن ندخل جميعا فى خدمة الآلة ، وأن نكون جميعا نمونجا واحدا ، فواويلاه ، لن يبقى أصل بعد ولا فرع ، وفى مثل هذا البلد ، لا ينبغى أن تكون الأجهزة الكبرى التى توجه الأفكار تحت سيطرة الشركات "مثل التلفزيون ، فلسنا فى امريكا " أو تحت سيطرة أقوال الحكومات " مثل الأذاعة فلسنا هنا من نول ما وراء الستار الحديدى " ، وفى بلاد فى حالة نمو مثلنا ، ينبغى أن تكون مثل هذه الأجهزة لصالح المجتمع وتحت سيطرة المجتمع ، وتدار بمجلس منتخب من الكتاب والمفكرين دون أى غرض مادى أو دعائى خاص .

ثم ، منذ فترة وقد جرت العادة على أن يتحدث الجميع عن خطر الملكيات الكبرى فى الأراضى ، وخطر الملكيات الكبرى غير المنقولة ، غافلون عن أن الملكيات الكبرى للأراضى لا تكسب اليوم ، بحيث أنه بداية من الشخصية الأولى فى الدولة إلى الآخرين جميعا يفكرون فى توزيع أملاكهم ، وقد اعتبروا خطأ أن هذا الأمر هو الحل لكل المشكلات ، لكن ما يعد خطرا اليوم هو الملكيات الكبيرة المنقولة ؛ المال والأسهم والسندات ورؤوس الأموال التى وضعت فى بنوك الخارج كودائع ، والقوى الفردية التى وجدت القوة فى أمور الصناعة ، قدرة المساهمين الكبار والتراستات " التجمعات المالية " المحلية خاصة ما يمكن من بينها أن يقال عنه أنه يدير الصناعات الثقافية . ينبغى أن نفكر فى خطرها ، وأن نوضع خطة لتأميمها أو جعلها جماعية فى خدمة المجتمع .

ومن الناحية السياسية : نحن نعيش تحت لواء حكومة مستبدة لكنها فى نفس الوقت متسيبة ، بكل هذه المظاهر المتسيبة عن الحرية فيها كواجهة ، هى مستبدة من وجهة نظر أنه لا مفر هناك فى مواجهتها ولا أمل ولا حرية ولا حق ،

ومتسببة من وجهة نظر أنه مع وجود كل هذا ، من الممكن أن تتخفس وأن تصرخ في بئر نون أن تظهر صوتك .. هكذا كما ترون ، لأن كل رجل عادى داخل الحارة - حتى وإن كان يرتدى ملابس الخادم المسلح للحكومة ، أو صار من القائمين على الرقابة ، لا يزال في أعماق قلبه نفس الرجل غير المبال ، الخالى من التعصب ، والمؤمن "بالتقويت" ، ولم يصبح حتى الآن نظرا لاحتمية الآلة جافا متحجرا ومجرد صامولة أو مفتاح في يد التشكيلات ، وويل لنا يوم أن نفقد أيضا هذا الترجيح للتخلف والبدائية .

والجيش في هذا البلد مسلط على كل شيء ، والعامل الحاسم في كل الأوضاء ، والمستفيد الأول من كل مزايا البلد ، وتنفق حوالى ٣٠٪ من ميزانية الدولة على الحفاظ على الجيش ، وفي الحقيقة أو الباطن حوالى ٥٤٪ ، علاوة على كل المساعدات الأجنبية التى لا ترد والتى تنمى القوات المسلحة فحسب أمام وجه البؤس العام . دعنا من هذا . فإن التقنين في المملكة وهو منذ سنوات في همود ، قبل أن يبتلى بالفترة والهمود الفعلى . والسلطات القضائية والتنفيذية تتدخل كل منهما بشدة في شئون الأخرى ، والمؤسسات الإدارية لا تزال حول ارتقاء عهد الرعاية ركاب البغال ، كل هذه أعراض ، والسبب الأصلي هو ذلك الجسد الضعيف الذى لا يتحمل مثل هذه الرأس الضخمة المعطولة المليئة بالادعاء .^(١) وعندما تسأل : لماذا كل هذه القوات العسكرية ؟ يقولون : من أجل الدفاع عن الحدود وحفظ الأمن والوحدة

(١) انتقل النقاش حول القوات المسلحة في هذه الأيام " ١٣٤٠ " حتى إلى الصحف واسعة الإنتشار . ربما بسبب ضغط أجنبى . ارجعوا إلى مقالتي " ارزيابى نقش ارتش = تقييم دور الجيش " لداريوش همايون في عديدين من اطلاعات صابرين في ١٩ خرداد و١٦ تير سنة ١٣٤١- وهذا الـ " داريوش همايون " واحد من عدد من الكتاب هم زيدة جريدة اطلاعات " المترجم : وهو أيضا كاتب المقال البذئ الذى أدى إلى أحداث قم التى تطورت وأطاحت بالشاهنشاهية " وهذه هي بعض عبارات المقال الأول " إن المؤسسة العسكرية في ايران بالنسبة لمصالح البلد وامكاناته متضخمة بشكل لا يجعلها تتحى جانباً عن النمو الإجتماعى والإقتصادى .. ومقتضيات الدفاع في محلها من الأهمية ، لكن دور الجيش في مجموعه داخلى " وفي آخر نفس المقال " في بلد مثل ايران لا يمكن تجاهل فعالية القوات المسلحة ووسائلها في أمر بنية الدولة " . وهذه أيضا بعض العبارات من المقال الثانى " جيش ايران بما يقترب من ١٥٠ ألف فرد تحت السلاح ، والنصيب الكبير من ميزانية الدولة والدخل القومى ، وعشرات الآلاف من الرجال الذين ينضمون إلى صفوفه أو يخرجون منها ، مؤسسة اجتماعية لا تتجزأ ، ويمكن أن يعهد إليها بمسئولية حفظ الاستقلال والأمن . وهل لم يفهموا حتى الآن في بلدنا أن الاعتماد على الترتيبات الدفاعية الدولية ، يجعل قيمة جهازنا العسكرى في الحضيض ؟

القومية .. لكن فى الحقيقة ؟ رأينا كيف أن الحدود قابلة للاختراق تماما أمام الشركات، ورأينا كيف تفسخت الوحدة القومية من الداخل ، وفى الأصل : أى هجوم حدث حتى يكون الدفاع لازما فى مواجهته !!؟

من كل هذا العسكر ، وكل هذا السلاح ، لم يتأت عملٌ لا فى شهرير ١٣٢٠ "١٩٤١" ولا فى ٢٨ مرداد "١٩٥٣" ، والاحتفاظ بمائة وخمسين ألف شخص مسلحين حتى أسنانهم - ولا جدال فى أن هذا هو العدد الرسمى فحسب - من صفوة شباب البلد واطعامهم وتربيتهم ، هو مجرد منح الدوام والطمأنينة عن طريقهم لحكومة شخصية . هذا هو معنى التشكيلات العسكرية لحكومتنا ، تماما من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، وهى غافلة عن أنه فى هذه السوق الرائجة للتطور والتراكم فى البنية المنتظرة ، لا صلاح على الإطلاق فى أن تكلف هذه السواعد الفعالة باسم الخدمة فى الجيش بأعمال لا تساعد فى التنمية القومية أدنى مساعدة ، وفى الأيام التى نعيشها لا ينبغى - باسم التجنيد الإجبارى - إخلاء القرى إلى هذا الحد من القوى الحية للعمل ، لكى يأتوا إلى المعسكرات ، ويتعلموا فنون القتال مع عدو غير معلوم ، لا يمكن وضع اليد فوق اليد استسلاما ، أمام دفع - على الأقل - ثلاثمائة ألف ساعد متمرس إلى حمل السلاح والتدريب على أعمال ، لم تعد تهمنا منذ حادثة حصار هرات فصاعدا ، وهذا أيضا فى زمن عد فيه الدفاع الجماعى هو المطروح فى بداية برنامج الدول الصناعية المتقدمة .

وفى العصر الذى يحدد فيه مصير الحكومات والحدود النولية على مناضد المباحثات وليس فى ميادين الحروب ، فى مثل هذا الزمان يكون الحديث عن كسب جديد من المدافع المهداة باعثا على السخرية ، أو تكون العروض العسكرية فى ميدان " التويخانه " ، واعداد فرق المظلات والصاعقة ، تنفع فحسب فى قمع مظاهرات شباب الجامعة ، أو إسكات طلاب المدرسة الفيضية ، ومن أجل إخماد هذه المصائب الصغيرة، لا حاجة على الإطلاق لكل هذا السلاح .

ويصرف النظر عن الحب والبغض ، لتنظر إلى اليابان أو إلى ألمانيا اللتين استطاعتا فحسب بنزع السلاح الجبرى بعد الحرب العالمية الثانية أن يجدا القدرة

على خلق اقتصاديهما من جديد من قيعان خرائبهم ، ويقومان بهذا الأمر بحيث أنه بعد ما يقرب من عشرين سنة ، تدق أجراس خطر منافستهما الاقتصادية للدول المنتصرة على رؤوس كل أسواق العالم الآن ، ولو كانت كل واحدة من هاتين الدولتين تريد كما كانت قبل الحرب أن تهدر الجزء الأعظم من قدرتها البشرية والاقتصادية في سبيل التسليح ، هل كانت تستطيع أن توفق اليوم في تجديد البنية السياسية والاقتصادية عندها ؟ في مثل هذه الأيام التي اعتبر فيها آخر دواء لألم الجزائر بعد ثمانى سنوات من الحرب وسفك الدماء ، هو التنازل عن نقط الصحراء في مقابل الاستقلال ، بماذا يجدى الجنود والسلاح بعد ؟ اللهم إلا قتل الأشقاء ؟ وفرنسا ، بكل هذه القوة ، وكل هؤلاء المظليين والكوماندو ، لم تستطع أن تقمع عشرة مليون جزائري ، والآن من نواجه نحن بمائة وخمسين ألف جندي ؟ والصالح في أن نكتفى فحسب بالشرطة والجاندرمه ، وإذا لم يكن من الممكن بالفعل الموافقة على هذا الاقتراح الجريء ، فمن المحتم والمؤكد أن تبدل كل المعسكرات إلى مراكز لتعليم الصناعات والحرف التي يمكن أن تعمّر الريف ، من أجل تعليم جنود اليوم وهم سكان الريف في الغد بما هو لازم من الفن والتقنية والمعلومات العامة والخاصة في كل مجال .^(١)

(١) في الفترة ما بين الطبعة الأولى والطبعة الثانية لهذا الكتاب ، أعدت وزارة المعارف - بضجة ودعاية عظيمة - جيش التعليم ، أي أن الذين انتهوا من الدراسة الثانوية ، يختار من بينهم بالقرعة بعض الشباب ، بدلا من أن يؤدوا الخدمة العسكرية الصرفة ، وبعد أربعة شهور من الخدمة في فصول الصيف ، يرسلون إلى القرى بلباس الجندي للقيام بالتعليم ويمرّب قدره مائة وخمسين تومانا في الشهر . وحتى الآن تقنوا نورتين أو ثلاث دورات ، وفي كل دورة أرسل إلى القرى من ألفين إلى ثلاثة آلاف من هؤلاء المجندين المعلمين ، باستعراضات مفصلة قروية ومدنية . وهو في الظاهر أمر مفيد ، ويحول دون ضياع وقت عدد قليل من هذا الجيش من حملة الثانوية " وهم عشرون ألف كل سنة " . لكنه في الواقع أكبر تقدم نحو " عسكرة " ثقافة الأمة . وسواء أكان فخرا أو خيانة ، فإن ابتكار هذا الأمر يرجع إلى الدكتور برويز نائل خاتري الشاعر سابقا ، ثم النائب فيما بعد ووزير التعليم الحالي ، وتحتاج هذا العمل من وزارة التعليم يكون مفيدا ما إذا كان تحت إشراف مدارس المعلمين العليا وليس تحت ظل الجيش ، ويقبل أكبر عدد من المتطوعين ويشترط إعفاء هؤلاء المتطوعين من الخدمة العسكرية ، على كل حال وفي رأي كاتب هذه السطور ، كان هذا الإجراء عمليا شديد الضرر بالبراهين التالية :

(أ) بهذه الخطة رفع عن كاهل وزارة الحربية ٣٠٪ من ميزانياتها التي طلب تقليلها بضغط من أمريكا ، ووضعت على كاهل وزارة التعليم .

(ب) أن عمل المعلم الذي كان قد وجد اعتبارا آخر الأمر بعد زيادة مرتبة سنة ١٣٤١ في وزارة ترخشش « وبعد أننى ٥٠٠ تومان ، جعلوه من جديد بلا إعتبار ومراد فاللسخرة .

(ج) أصبحت وزارة التعليم ، وكانت أبعد المؤسسات الحكومية عن الأعيب الجيش بهذا الشكل تحت مهاميز العسكر .

النقطة الأخرى التى تلفت النظر فى نطاق الأمور السياسية ما نتظاهر به من ديموقراطية غربية ، أى نقوم بالتظاهر بالديموقراطية ، لكن لا خبر هناك عن الديموقراطية الغربية نفسها وشرائطها وموجباتها : حرية الحديث وحرية إبداء الرأى ، وحرية الاستفادة من وسائل الإعلام التى هى من محتكرات الحكومة ، وحرية نشر الآراء المخالفة لسلطة الحكومة الحاكمة . لا يوجد أى منها ، لكن حكوماتنا تتظاهر بالديموقراطية من أجل اسكات هذا أو ذاك من الحلفاء السياسيين الأجانب الذين ينبغى أن يدفعوا الديون . رأينا أن الديموقراطية الغربية تستند على الأحزاب ، والأحزاب تابعة لاقتصاد متقدم ، وإلا تبدلت إلى شلل سياسية ولدينا منها الكثير . وهذه الشلل التى تشبه الأحزاب عندنا إن لم تكن تقليدية ولعدة أيام ، أو لم تكن قد تشكلت من أجل الحصول على مغنم ، فهى بالحثم لا تخرج عن صورة فرقة من الفرق ، فرقة لما لم يكن لديها يد مطلقة فى العمل أو فى الصراع السياسى " فلا نادى ولا صحيفة حرة ولا سماح باجتماعات حزبية وشعبية " فقد قنعت بالعمل السرى والتظاهر بالاستشهاد ، وهذه الفرق سواء كانت ذات لون سياسى أو لون مذهبى ليست إلا نواة مقاومة ربما تنفع فى يوم من الأيام ، ذلك لأن أعضائها قد انقطعوا عن الناس ، وليست أيديهم فى النار ، وأنينهم بارد ، والحد الأقصى للعمل الذى يمكن أن يتأتى من هذه الشلل ، هى أن تكون أساس حركة احتمالية من أجل سياسة خارجية ما يلزمها أن تعطى لعملها أرضية محلية وقومية ، وأغلب الانقلابات العسكرية والتغيرات الحادة للحكومات فى هذا الركن من الشرق تقوم باسم هذه الفرق ، إن لم تكن فى أيدي هذه الشلل ، فهى فى الحقيقة تتم طبقا لرغبة سياسية أجنبية معينة . على كل حال ، ما هو مسلم به أننا لا نستطيع فى مثل هذه الأوضاع أن نقلد الديموقراطية الغربية ، فليس مسموحا لنا بهذا التقليد ، وليس فى مصلحتنا ، والتظاهر فحسب بالديموقراطية الغربية هو فى حد ذاته إحدى علامات الابتلاء بالتغرب ، وإذا كان يحدث فى عصر ما أن يأتى الملاك من القرى بسيارات النقل يحملون الناخبين حتى الصناديق ، فقد رأينا فى السادس من بهمن وما بعدها أنهم كانوا يضعون صندوق الأصوات خاليا علنا أمام دواوين الوزارات والإدارات ، ويوزعون منشورات فحواها أن مرتبات الشهر التالى سوف تصرف بابرار بطاقة الانتخابات ، نفس حكاية " هات الحمل الثقيل بجوار الحمار " قد تكررت ، وبهذا الأسلوب كم من الإدعاءات حول حرية الانتخابات ، وكثرة عدد الناخبين .

يمكن فحسب الحديث فى هذا البلد عن الديموقراطية ، أى يمكن فحسب أن تبدو آراء الناس وإرادتهم عندهما :

أ- تسلب السيطرة من القوى الكبرى الداخلية وملاك الأراضى وبقاى الإقطاع ، فهى قوى تقف أمام تنفيذ الإرادة الحرة للناس .

ب- لا تكون وسائل النشر والدعاية والإعلام حكرًا على الحكومات الحاكمة بل تكون أيضا تحت سيطرة المعارضة .

ج- أن تكون الأحزاب على شكل واقعى ، وأن تجد القدرة على العمل ، ليس فى لباس شللية حقيرة سياسية ، وأن تجد حيز عمل أوسع .

د- أن يحال لى تدخل قوات الأمن " مباحث أمن الدولة " فى الأمور الداخلية بحسب .

فى وقت ما ، ارتفعت صيحات الاستغاثة من انعدام الحرية ، لأن آخر من فى يده أصوات الناس بصرف النظر عن العمدة والجاندرمه والحاكم والمالك ورئيس المنطقة، هو الشخص الذى كان يعطى أجر الفترة التى يظلها الناخب عاطلا ، حتى يحمله لمدة نصف يوم إلى الصندوق ويرده ، لكن الآن والصناديق كلها تملؤها مباحث أمن الدولة دفعة واحدة ، كما أنها تقدم أيضا قوائم النواب .. ماذا يجب أن نقول؟ حتى الصراخ لم يعد يجرى فتيلا !! وكلما انهزم المفكرون فى البلاد ، انتصرت مؤسسة الأمن ، وكل ما غزاه صار طرف خيط فى يد هذه المؤسسة المحدثه التى ترتب الأمور بالإرهاب والتهديد والوعيد والسجن والنفى والتشريد ، بطريقة لا تجعل بعدها شيئا يتحرك . وتاما فى الموعد يفتح المجلسان ، كباقتى ورد .. وفى النهاية : لماذا صار الأمر هكذا ؟ لأن الناس يفتقرون إلى أى علم بمفهوم الديموقراطية ، وإن كان لديهم ، فلم يروا خيرا من كل هؤلاء المدعين للمطالبة بالحرية ، بحيث أنهم الآن يمثل هذا الصمت والسكون ، قد أسلموا زمام مصيرهم إلى أيدي من حلوا محل حرية الفكر . على كل حال : مالم يخلق مفهوم الديموقراطية بتعليم وتربية مستمرين عمق المجتمع ، وما لم يعرف الناس الأسلوب الحزبى بمعناه الصحيح والدقيق ، فإن الحديث عن الديموقراطية فى هذا البلد خليق بلهى مجلس من الرجال عبرت حمهم الجسر " = قضيت مصالحهم " ، ويكونون فى حاجة إلى أصوات قومية من أجل تبرير مراكزهم .

١١- ماذا يفعل التعليم والجامعة ؟

والآن لنلق نظرة إلى المجتمع الموجود بالفعل فى ايران من كوة التعليم ، وهى الكوة التى كانت نظرتى دائما فى إطارها .

من ناحية التعليم ، نحن فى الحقيقة نشبه الحشائش البرية ، ثمة أرض ، وحبّة من مكان ما أتت بها الريح أو فى منقار طائر ، تقع عليها ، ثم يساعد المطر ، لينبت شيء . تماما بنفس هذه الطريقة ، حياة نباتية وبالمصادفة أيضا وپريرة . نبني المدارس بكل طريقة نعرفها : من أجل رفع أسعار الأراضى التى حول المدرسة ، أو للاستعراض ، أو كرد فعل بعض المظالم التى فعلها فلان البلطجى وما سلبه فى إحدى الوقائع السياسية ، أو بالسعى الصادق لأهالى بلدة ما ، أو بوقف ثلث أموال المرحوم فلان . وعلى كل حال بمجرد أن تبني المدرسة ، يصل إليها فرع من الفروع المثبّطة لتشكيلات التعليم ، وأيضا بعد العديد من المساعى والمصاعب . ولا خطوة مسبقّة على الإطلاق ، أو أى نوع من المدارس يلزم لأى مكان . ويا لها من مدارس مظهرية !! ولا يزال الإهتمام بالكم مسيطرا على عقل التعليم ، والهدف النهائى للتعليم ؟ قلت : تربية المتغرب ، أو اعطاء أوراق لا قيمة لها ، تحديد القيمة الإستخدامية للدراسات على أيدي أناس يستطيعون فحسب أن يكونوا طعاما لتشكيلات الإدارية الآتية ، ومن أجل الارتقاء إلى أى منصب ، يحتاجون إلى شهادة . وليس هناك تناسق فى أمور المدارس .، فعندنا مدارس من كل نوع : مذهبية وإسلامية وإيطالية وألمانية ، ومدارس تربي نصف رجل دين وطلاب علوم دينية ، لدينا مدارس فنية ومدارس حرفية وأنواع أخرى ، لكن لا يوجد فى أى مكان سجل يبين ما هى نتيجة كل هذا التنوع ؟ ولماذا توجد كل هذه المدارس ؟ وماذا تربي ؟ وماذا يعمل خريجوها بعد عشرة سنوات ؟ ونفس هذا التنوع إن كان بمعنى تقسيم العمل ، واستجابة لتنوعه ، وللنوق والسليقة ، وقدرة الناس وإدراكهم ، فهو مفيد جدا ، وهو فى حد ذاته علامة من علامات الحرية ، لكن تنوع العمل فى مدارسنا نوع من البرية ، نفس تلك الحبة التى تخضر فى كل أرض بشكل ، فالفرق بين المدارس الحكومية والمدارس الأهلية فرق ما بين السماء والأرض ، وكذلك الفرق بين مدارس طهران ومدارس الأقاليم ، نفس البرامج وعلى القرض نفس المعلم ، لكن فصولا تحتوى على ثمانين تلميذا وأخرى تحتوى على خمسة وعشرين .. وهلم جرا . ثم أنه لا يوجد فى برامج المدارس أى أثر للإستناد على التقاليد ، لا يوجد فى أى

مكان أى أثر قدم من الثقافة السابقة ، ولا مادة من مواد الأخلاق والفلسفة ، ولا خبر فيها عن الآداب ، لا توجد أية علاقة بين الأمس والغد ، أو بين المنزل والمدرسة ، أو بين الشرق والغرب ، أو بين الجماعة والفرد . والتقاليد التى رأيناها قد سقطت مسلوقة الروح ، كيف يمكنها أن تؤثر فى برامج المدارس ؟ والمنزل الذى أساسه فى حالة انهيار ، كيف يمكن أن يكون أساسا للمدارس ؟ لكن على كل حال لدينا كل عام حوالى عشرون ألف ممن أنهوا الدراسة الثانوية وطف حتى نطوف " = العدد فى الليمون " .. هم الطعام القادم لكل المتاعب والعقد والأزمات ومن المحتمل الانتفاضات أيضا . فهم رجال بلا إيمان ، فارغون من الحماس ، أنوات بلا إرادة فى أيدي الحكومات ، كلهم متفاهمون وجبناء ولا يصلحون لعمل ، وربما لنفس الأسباب ازدهرت المدارس الدينية والإسلامية فى العشرة سنوات الأخيرة دفعة واحدة ، لأنه فى هذا النوع من المدارس على الأقل لا يُحس بأى خطر على إيمان الأولاد ودينهم ، وهم يأتون من عائلات متمسكة بالدين ، ولم يمسخوا حجارة بعد من تأثير النفس المسموم للغرب ، لكن ما الفائدة وتحجر البيئات المذهبية سوف يجعل منهم متحجرات من نوع آخر ، وأيضا ما الفائدة وهذه المشكلة أى مشكلة الدينى وغير الدينى والتعليم وعدم التعليم هى مشكلة المدن فحسب ، أو من ترف الإقامة فى المدن ، ومن بين خمسين ألف تجمع سكانى فى البلد لا يزال حتى الآن أربعون ألف منها لا تعرف أى نوع من أنواع المدارس ^(١) وليت الذى فيها ليس فيها ، لأن البلاء فى هذه الحالة يكون واحدا ، وتتساوى كل الأماكن . لكن البلاء الآن ألف بلاء ، وهو فى كل مكان من نوع ما : مشاكل الكتب المدرسية ، ونقص المعلمين ، وازدحام الفصول ، واختلاف السن ومستوى الذكاء واللغة والمذهب بين التلاميذ ، الاختلاف بين المعلمين أنفسهم بين متعلمين وغير متعلمين لأصول التعليم والتربية ، وكون المدارس كالقبور ، وانعدام الرياضة البدنية والموسيقى داخلها ، وآلاف المشاكل الأخرى ، وأهم من هذا كله

(١) يدعى جيش التعليم مع كل استعراضاته أنه أقام مدارس مؤقتة فى عشرة آلاف قرية ، وهذا خبر جيد بصرف النظر عن المضار التى نكرتها أنفاً .

انعدام الهدف من التعليم ، وفوضى البرامج . وليس معلوما حتى الآن : من أجل ماذا ينبغي أن تجتاز المرحلة الابتدائية؟ ولأى هدف؟ ومن أجل الوصول إلى أية نتائج؟ والمدرسة الثانوية؟ والجامعة؟ وويلاه من هذه الجامعة التي ينبغي أن تكون مركزا لأكثر الأبحاث العلمية والفنية والأدبية حيوية وأبرزها .. اسمحوا لى بأن أتناول أمور هذه الجامعة قليلا .

لدينا جامعة طهران ، ولدينا الجامعة القومية " ملي " ولدينا جامعة شيراز وجامعة خراسان وجامعة جنديسابور.. وهلم جرا ، أما الجامعة القومية فهي لكان من أجل جماعة من المفكرين المتغربين الذين عابوا من أوربا وأمريكا ، وسمعوا التأقف من تقاليد جامعة طهران التي تحجرت بهذه السرعة ، فذهبوا واعتمادا على أصحاب المناصب الأعلى ، فتحوا دكانا لأنفسهم .

إننى أستطيع بصعوبة أن أسمى هذه المؤسسة جامعة ، أما عن كليات أو جامعات الأقاليم ، فقد حدث عندما أسس پيشه ودى فى آذربيجان جامعة تبريز كدليل على الاستقلال أو التمتع بالحكم الذاتى لتلك الولاية فى حدود قانون مجالس الولايات والأقاليم " ولم يعد عنها أثر أو منها خبر " ، وعندما خمدت فتنة آذربيجان ، رأوا أنه لا يمكن لهم أن يطعنوا فى هذا الميراث ويلغوه مثل بقية مخلفات تلك الجماعة ، كما أنه لا يمكن الإحتفاظ بها ، لأنها كانت بقية بضاعة " دموكرات فرقه سى = جماعة الديموقراطيين " .. إذن ماذا نفعل؟ نأتى ونؤسس جامعات فى بقية الأقاليم أيضا ، وعلى هذا النحو لدينا كل هذه الجامعات ، وهو خير بلا شك ، على الأقل لإيجاد عمل لكل هؤلاء المرشحين للأستاذية الذين يعوبون من اوربا .. ولكن أى عمل لكل منها؟ هذا ما لايعلمه أحد حتى الآن .. وفى أى فرع من فروع المعرفة تخصص كل منها؟ ولأى تخصص يصلح جو كل إقليم من الأقاليم؟ وأيها تعمل أفضل من الأخرى؟ وما هى النتيجة التى تحصل من أعمالها؟ كل هذه أسئلة يعلم الله تعالى متى يمكن تلقى أجوبة عليها . أما جامعة طهران مع كل سبقها وأهميتها وبكل تقاليدها التى انتهت ، واستقلالها الذى حطم ، مهما يكن من أمر ينبغي أن تكون كما سلف ذكره مركزا لأكثر الأبحاث حيوية وأبرزها وأكثرها امتيازاً ..

لكن هل هي هكذا بالفعل ؟!

ذلك الجزء من الأقسام الجامعية التي تتعامل مع التقنية والصناعة والآلة ، تصنع في آخر مراحلها قائمين جياذ بالصيانة للمصنوعات الغربية ، فلا بحث جديد ، ولا اختراع ولا اكتشاف ولا حل لمشكلة .. ولا شيء قط : نفس القائمين بإصلاح الآلات أو المجمعين للآلة والمصنوعات الغربية ، أو المقدرين لمقاومة المواد الخام وأمثال هذه الخزعبلات ، وإن كان ثم شيء من البحث والتتبع العلمي ، فهو في عمل مؤسسة الرازي ومؤسسة باستير ، وأنا لا أدري هل أعتبرهما ملحقين بوزارة الزراعة أو بوزارة الصحة أو بمركز مؤسسة باستير في باريس . ويمكن القول أيضا أن كلية الطب على المستوى الدولي ليست أقل من كليات الطب الأخرى ، لكنني أضيف على الفور أن هذا التفوق في حد ذاته يرجع إلى نسبة الوفيات المرتفعة جدا في هذا البلد ، ولي صديق طبيب كان يدرس في فرنسا ، وعند البحث عن أعراض المرض الجلدي المتوطن " حبة الشرق " طاف أستاذه مع كل من يعملون تحت إشرافه ما طافوا ويحثوا ما بحثوا ، ولم يستطيعوا أن يظفروا بمرض بهذا المرض ، وفي النهاية أشار نفس هذا الصديق إلى آثار المرض في وجهه ، وقبل أن يرى أثر هذا المرض المتوطن في وجهه كتعريف له ، لكن هنا يعلم الله كم جثة قد وقعت تحت يد كل طالب طب هنا ، ومن هنا أجزم أن أي طالب طب في طهران أو شیراز أو أية مدينة أخرى من مدن ايران يتخرج أكثر تجربة وممارسة للجراحة والتشريح من طلاب الطب في امريكا واوروبا على كل حال ، وهذه في حد ذاتها نقطة قوة بالنسبة لطلاب الطب في ايران ، استندت على نقطة ضعف هي عبارة عن معدل أعلى من المعتاد للوفيات .

أما ذلك الجزء من الأقسام الجامعية الذي لا يتعامل مع التقنية ، ويتعامل مع الفنون والآداب ، مثل كلية الفنون الجميلة وكليات الآداب " في طهران والأقاليم " أو تلك التي تتعامل مع العلوم الإسلامية والثقافة الإيرانية والبحث العلمي فيها ، فلأتناولها واحدة واحدة :

إن كلية الفنون الجميلة بشعبتيها الرسم والمعمار فحسب هي المؤسسة الجامعية الوحيدة التي تربي فنانا ، إذا كان من الجائز تربية الفنان ، لكن نظرة

عابرة على أبواب معارض الرسم وجدرانها ، تلك المعارض الآخذة في الانتشار هذه الأيام ، وأيضا بمرور سريع على كل حارة وشارع ، يمكن إلقاء نظرة على نتيجة عمل هؤلاء الفنانين ، وبعده استثناءات قليلة ، فإن نتيجة عمل هؤلاء الفنانين في الأغلب استهلاك الألوان والدهانات والزجاج والحديد ، أى استهلاك الصناعات الغربية، ونادرا ما نجد بين رسامي ايران ومعمارييها اليوم أشخاصا لا يقللون الغرب ، بل توجد في أعمالهم تلك السمة من الأصالة والتجديد في الفن ، وتضيف شيئا إلى الجهود التي بذلت في الفن العالمي ، بل وبلغ الأمر بنا أن نأتى بالنقاد والمحكمين من الغرب للتحكيم في أعمال الرسامين عندنا .^(١)

أما كليات الآداب ، فمن الواضح أنه لا يوجد في هذه الكليات حديث عن الآداب بمعناها الحقيقي العالمي ، ليس هذا فحسب ، بل وحتى الأدب الفارسي المعاصر يبقى فيها متجاهلا وغير معروف ، ولا يزال تفكير المرحوم عباس اقبال مسيطرا على هذه الكليات ، إذ كان رحمه الله يقول : حتى مائة سنة سابقة يمكن أن ترى وتعرف وتحكم لكن من ذلك الوقت فصاعدا ؟! أبدا ^(٢) ونتيجة لهذا النمط من التعامل مع الآداب أننا نخرج فحسب بنباشين للقبور ، وبهذه المناسبة يمكن اعتبار كليات الآداب ضمن تلك المجموعة من الكليات التي تتعامل مع الفقه والمعارف الإسلامية وثقافة إيران أو البحث فيها أى كليات الحقوق والمعقول والمنقول " الإلهيات " .

تماما مثل المدارس الإسلامية التي مر نكرها ، ورأينا أنهم ظنوا أنه بتدريس الدين والدعوة إليه فحسب يمكن مقاومة خطر اللادينية الى هي فحسب من آثار الابتلاء بالغرب ، فإن كليات الآداب والحقوق والمعقول والمنقول عندنا تخيلت

(١) بالنسبة لحاصل أعمال هؤلاء الرسامين ارجعوا إلى كتاب ماه كيهان = كتاب كيهان الشهري بعديها " أى العدد الأول والعدد الثاني وهو الأخير " - خرداد وشهرير ١٣٤١ فى مقالات مختلفة بقلم سيمين دانشور وجلال مقدم ومقال : ميز كرد نقاشان = مائدة مناقشة الرسامين .

(٢) راجعوا أعداد مجلة يادگار تنكار التي كان مديرها ذلك المرحوم .

أيضاً أنه يمكن الوقوف ضد هذا الخطر باللجوء إلى العربية والنزعة الأدبية والعنعنات والتقاليد ، ومن هنا فإن كليات الآداب عندنا على سبيل المثال بكل أساتذتها الفضلاء ، كل همها واهتمامها مصروف في نبش القبور والتعمق في الماضي، وتحقيق عن فلان و فلان ، وفي هذا النوع من الكليات يمكن أن نرى رد الفعل المباشر لمرض الابتلاء بالتغريب في هذا الهروب إلى النصوص القديمة والرجال القدماء والمفاخر الأدبية الميتة وترك الحاضر الحي ، ومن ناحية أخرى أقطع دلائل التغريب في الاستشهادات التي يقدمها أساتذتها من أقوال المستشرقين الذين مر ذكرهم بالخير .

وعندما يرى امرؤ خبر التقاليد وقرأ الدروس ومهتم ، ويكون أستاذا في هذا النوع من الكليات ، وشغله الذهني الفروع الأدبية والمعارف الإسلامية والإيرانية ، عندما يرى أن هجوم الغرب والصناعات والفنون الغربية أخذ في اكتساح كل شيء أمامه، على سبيل الدفاع وإثبات الوجود ، يتخيل أنه من الأفضل أن يصنع رجالا من المشتغلين بكيله ودمنه ، ومن هنا فإن انتاج العشرين او الثلاثين سنة الأخيرة لكل هذا الصنف من الكليات ، بقى دون تأثير في المجتمع إلى هذا الحد ، وإلى هذا الحد عجز ووقف في مكانه أمام العائدين من أوربا ، وأطال الله أعمار حضرات المستشرقين الذين صنعوا من كل " الهى نامه " دائرة معارف ، ومن كل " ريش نامه " كتاب اللحية معجما ، حتى يحافظ على هؤلاء الرجال المهتمين بكيله ودمنه مشغولين بالبحث في الماهية والعرض أو الحوث والقدم ، أو في أصل البراعة وما إلى ذلك ، ويستثناء قليل جدا . محصول العشرين أو الثلاثين سنة لهذه الكليات فحول علماء كلهم علماء لغة ، كلهم يعرفون مختصرا عن علم الرجال ، كلهم شكاكون موسوسون كتاب هوامش على كتب الآخرين ، كلهم كاشفون للغوامض اللغوية والتاريخية ، كلهم مجددون لقبور بلا أصحاب أو عارفون لأصحاب بلا قبور ، كلهم فاضحون لأسرار النحل والسرقة واقتباس زيد من عمرو .. لكن منذ ألف سنة ، وكتاب رسائل عن شعراء القرن العاشر الهجري الذين لا يتجاوزون عدا أصابع اليدين ، وأسوأ من كل هذا أنهم مدرسون للأدب في الثانوى أو مديرو تعليم أو قضاة ، وثانية ألف رحمة تنزل على

اولئك الآخرين الذين منحوا وزارة العدل شخصيتها ، وضربوا مثلاً لمعنى استقلال القضاء ، ولو كان الزمان قد أعطاهم الفرصة لميزوا جيداً بين الحق والباطل ، لكن اولئك الآخرين ؟ ماذا رأينا منهم من خير أو بركة أخسرا ؟ اللهم إلا انغماس فى تغرب من نوع آخر ، كل واحد من اولئك الأساتذة وتلاميذهم انغمس بثقل سمع أصحاب الكهف فى غار المتون والنسخ المبدلة والأقوال الشاذة والنادرة ، بحيث أن أبواق السيارات نفسها لن تستطيع ايقاظهم ، أبداً .. إنهم من أجل ألا يسمعون أنكر هذه الأصوات سدوا منافذ آذانهم بنفس تلك النسخ المخطوطة ، وسيطرة اللغات الأجنبية أخذه يوماً بعد يوم فى احتلال أهمية اللغة الأم والحاجة إليها ، والتخصصات العلمية والفنية أخذه يوماً بعد يوم فى التقليل من المهتمين بهذا النوع من التخصصات واكتسابهم ، وأصلاً فإن الأخلاق والآداب والمعارف الإيرانية والإسلامية - كما رأينا فى هذا الكتاب أخذه يوماً بعد يوم فى التدنى قيمة والانعزال ، ومع ذلك ففى هذا الوضع ، لجأت مراكز الآداب والحقوق والمعقول والمنقول فى هذا البلد - تماماً مثل الهيئة الدينية التى لجأت فى مواجهة هجوم الغرب إلى التحجر والتعصب - لجأت هى إلى شرنقة المتون القديمة ، وقنعت بتربية المتنتطين ، وفى هذه الأيام ، تماماً كما انغمست الهيئة الدينية فى إفسار الشك والوسوسة وتوضيح الطهارات والنجاسات ، بقيت هى أيضاً فى إفسار باء الزينة هل تلتصق بالفعل أو لا تلتصق ، وهل تحذف الواو المعذولة أو لا تحذف .. وهذا من حقهم ، فعندما يخرج المرء من عالم الكليات ، لا بد وأن يتشبث بالجزئيات .. نعم عندما يجرف السيل المنزل ، أو ينهار بزلزال ، فإنك تبحث تحت أنقاضه عن مصراع باب ، حتى تحمل عليه الجسد الممزق لعزیز لديك إلى القبر .

وفى مجال القضايا التعليمية والجامعية ، هناك قضية أخرى كبرى ، مشكلة أفواج الذين ذهبوا إلى أوروبا أو عابوا من أمريكا ، وكل منهم عاد وهو على الأقل يرشح نفسه للوزارة ، فكان أن سقط بين براثن الأجهزة الحكومية كلاً عليها ، ولا شك أن وجود هذا النوع من الدارسين غنيمة ، فردة حذاء فى صحراء ، لكن انظروا بدقة ، وشاهدوا كيف أن كل واحد من هذه الغنائم ، بعد العودة واتخاذ موضع ما من

أجهزة الحكومة ، والصاق قدمه بمكان ما ، إلى أية ثقالة يتحول ، فلا مجال عنده لعمل ولا علم بتفاصيله ، ولا يد مطلقة ولا قلب به حماس ، بل ولا قلب متعاطف ، وبخاصة وأن هذه الجماعة ترى نفسها ورأيها بلا أدنى قيمة في مواجهة المستشار الغربي المسيطر .

وعلى خلاف ما هو مشهور ، أظن أنه كلما كان عدد العائدين من أوروبا أكثر ، كانت قدرتهم على العمل أقل ، والعجز وعدم التماسق أكثر في الأجهزة التي قبلت نفاذ المتعلمين في أوروبا . ذلك أنه من ناحية : لم تكن هناك أية خطة في إرسال هؤلاء الشباب إلى أى موضع ومن أجل أى تخصص أو حرفة أو مهنة ، فكل واحد من هؤلاء الشباب ذهب باختياره وابتكاره ونوقه إلى ناحية من العالم ، وقرأ شيئاً ، ومارس تجربة ما تختلف تماماً عن تجربة الآخر ، والآن وقد عادوا ، ينبغي أن يكون كل منهم فرداً من جماعة في جهاز أو في مؤسسة من مؤسسات البلد ، وهنا يصير معلوماً لماذا هم غير متناسقين ، ولماذا عجزوا في تنفيذ أى عمل ، فذلك قد تعلم تعليماً فرنسياً و ذلك قد تعلم تعليماً انجليزياً أو المانياً أو امريكياً ، كل منهم يعزف لحناً مختلفاً وبطريقة مختلفة . وأضيف أيضاً هذه النقطة هنا : إننى إذا كنت أملاً في مستقبل الفكر في إيران فإن ذلك يعود إلى : أولاً ، نفس هذا التنوع في الأسلوب التعليمي ، وفي جنود المتعلمين عندها في أوروبا وأرضياتهم ، إذ ينبع غنى إيران الفكرى من نفس هذا الموضع ، أنظر إلى الجو الفكرى في الهند كيف خرج متجلتزا نتيجة للأغلبية العظمى فيه المتعلمة في اكسفورد . على كل حال ، هناك نقاط كثيرة حول أولئك الذين عادوا من أوروبا أو تعلموا في أمريكا ، ومن الأفضل أن أتناولها واحدة واحدة .

النقطة الأولى : أنه في الظروف الفعلية في الدولة ، فإن أغلب هؤلاء الشباب وفي الأغلب الأعم يشبهون زهور شقائق النعمان الجميلة وزهور النرجس والسنبُل التي نستورد بصيالاتها من هولندا ، ونربّيها في مشاتل زهور طهران ، وبعد أن تزهر نشترى الباقية منها بمبلغ كبير ، ثم نحملها هدية إلى هذا من الأصدقاء أو هذا من المعارف ، ومع أن ذلك الصديق يضعها في حجرة دافئة ، وفي مواجهة الشمس ، فإنها

لا تعيش أكثر من أسبوع ، وهذه الزهور الموجودة في صدر باقة المجتمع تنبل سريعا في هذا البلد ، وإن لم تنبل ، فإنها تتوأم مع الجماعة وتكون بلونها . وعلى خلاف كل هذه الدعايات التي تنادى بإعادة الطلاب من اوريا ، فأتنا لا أظن أن هناك أمل في خدمة ما من عودتهم إلى الوطن ، ما لم تهيأ لهم أرضية العمل في المستقبل في هذا البلد ، وسوف يطرح هذا السؤال على الفور : من ينبغي أن يمهد هذا الجو؟ وما أنتم ترون أن القضايا كثيرة ، وفي ظني أن الجو في هذا الزمهرير يستطيع أن يمهد أشخاص نضجوا في هذا الكور ، وتعوبوا على جو هذه الثلاجة .

والنقطة الثانية أن أغلب هؤلاء الشباب عندما كانوا يعيشون في اوريا ، بتبعيتهم لبيئات ومجتمعات حرة بنسب مختلفة ، عندهم علم بالحرية بشكل أو بآخر ، وهم يقومون بحركة ديناميكية في اتحاداتهم الطلابية ، وأغلبهم شديرو الحماس ممثلون بالحركة .. فهناك نقاش وفعالية ومظاهرات وصحافة ونشر ، لكن بمجرد عودتهم ، تقيد أيديهم هنا بذيل ثور ينسون كل تلك العوالم ، أجل .. وربما يكون مرور سنوات الشباب التي يكون فيها الحماس أحد عوامل هذا النسيان . ولكن ألا تتصورون أنه لما كانت الحكومات هنا لا تطلب هذه الأمور ، وليس هنا سماح بهذه الحريات ، هل من الممكن أن تحدث هذه العودة ؟ وأيا كان السبب ، فعلى كل حال أنا نفسي أعرف عددا من هذا النوع من الشبان يماثل عدد حبات المسبحة ، كان ما حدث بعد عودتهم ، قبع كل منهم في ركن ، ورضى بما قسم له من هذه الغنيمة الباردة ، وكأنه لم يكن هناك في يوم من الأيام حماس أو حريات ، والزوجة والحياة والأبناء .. كالمعتاد حجج حاضرة وجاهزة وبخاصة إذا كانت الزوجة هي الأخرى أوربية :

والنقطة الثالثة هنا في نفس هذه القضية أن عددا لا يستهان به من هذا الشباب يعودون بزوجة أوربية أو أمريكية ، وعدد قليل جدا من الفتيات يعدن مع زوج أوربي أو أمريكي . وألا تتصورون أن هذه في حد ذاتها مشكلة أضيفت إلى بقية المشكلات ؟ وإذا كان أساس الأسرة الإيرانية القائمة على زوج وزوجة من نفس العرق ، ويعرف كل منهما الآخر في حال تفتت ، فإن مصير هذه الأسرة المختلفة في اللون

معروف . والحمامة ذات البرجين هي هؤلاء الشباب مع أسرهم . هذه هي النتائج الإنسانية للتغريب في الدرجة الأولى . وحل المشكلات الداخلية لهذا النوع من العائلات أمر جدير بالإهتمام ، إذ أن هذه الجماعة من الشباب لم تعد لديهم القدرة والصبر على حل المشكلات الخارجية أى الإجتماعية ، وهذا النوع من الشباب لا يخرج عن صنفين أو ثلاثة :

(أ) أولئك الذين نشأوا في عائلات فقيرة ، وأوصلوا أنفسهم بمشقة إلى الغرب ودرسوا ، وبالنسبة لهذه المجموعة يعد الارتباط بامرأة أو رجل أوربى أو أمريكى وسيلة للإنفصال عن الأصل الذى لم يعد جوا جديرا بالسيد العائد من اوريا ، كما أنه سلم يحمله إلى الطبقات العليا ، والعواقب الوخيمة لهذا النوع من الزيجات أوضح من ضوء النهار .^(١)

(ب) أولئك الذين رضوا بامرأة أو رجل أوربى بسبب القيود والتقاليد والنفقات التى تقصم الظهر للزواج فى ايران ، والآن بتحصيلهم للعلوم ، وحصولهم على الشهادات ، ومعرفتهم باللغات الأوربية ، يرون أن كل هذه قيود قد حطمت ، ولعلمهم أتوا بامرأة أوربية أو رجل أوربى عبثا وعلى سبيل التحدى ، وعواقب مثل هذا الوضع بالمقارنة بما يحدث لهم بعد ذلك معلومة أيضا .

(ج) أولئك الذين فقدوا بكاراتهم فى اوريا - سواء من البنين أو من البنات ، وبدأوا معرفة الرجل أو معرفة المرأة مع أوربى أو أوربية ، وعندما يعوبون مع زوجة أجنبية ، إما أنهم لا يخضعون لأية قوة مهما كانت ، ولا يعتبرون أى إنسان جديرا بأى شيء ، أو ينتبهون إلى أى " مقلب " شريوه .. وما إلى هذا .

ويكل واحدة من هذه الصور أو الصور الأخرى لزواج شاب متعلم ايرانى من أوربية أو أمريكية ، يُقدم جواب لهذه النقاط :

(١) وهناك رأى متداول شفاهة بين العوام بشأن هذه الحقيقة غير العامية وهي أن أى رجل وصل إلى مركز ما إذا كان متزوجا من أوربية أو أمريكية ، فمن المسلم به عند الجميع أنه وصل إليه لأنه متزوج من أوربية .. حتى إذا كان الرجل فى حد ذاته فى منتهى الكفاة والجدارة .

- فإما أنه تزوج أجنبية لأن بيته تلك الأجنبية قد قبلته " بسبب قلة الرجال كئلاميا مثلا بعد الحرب ومن هنا فإن نسبة الألمان المتزوجات من إيرانيين أكثر من كل النسوة الأجنبية " وهذا القبول في بيئة أجنبية وعن طريق امرأة أجنبية ، أليس في الحقيقة مساويا للإقتلاع من البيئة الوطنية ؟ وأليس هذا في حد ذاته مسببا لنوع من فقدان المزمّن للقوى الإنسانية بالنسبة لنا ؟ ناهيك عن كونها القوة الإنسانية المثقفة التي تعلمت في أوروبا ؟ على كل حال فهذا فقدان بالنسبة للفتيات اللاتي تزوجن أجانب ، يحتوى على استثناءات قليلة .

- وإما بسبب أن الشاب الإيراني الذي تعلم في أوروبا وأمريكا قد أراد أن يعوض عقدة الحقارة والنقص التي يحس بها عند المقارنة الشاملة لإيران مع أوروبا وأمريكا ، والتي يراها في نفسه وبيئته وفي تقاليده .. إلخ ، لأتحدث على المستور ، ولأمض (١) ومع كل هذا ، ألا تتصورون أن اتخاذ زوجة أو زوجا أوربيا يعد من أكثر صور ظهور الابتلاء بالتغريب جدية ؟ وإذا كان الأمر هكذا ، فأظن أنه قد حان الوقت بالنسبة للدراسات العليا ، وحسب خطة مرتبة ومناسبة للإحتياجات الفنية والعلمية للدولة ، أن ترسل التلاميذ إلى الهند واليابان مثلا ، ولفترة عشرين عاما على دفعات ، وليس إلى أوروبا أو أمريكا ، وإذا كنت قد ذكرت هاتين الدولتين ، فلكي نعلم فحسب كيف تعاملوا مع الآلة ، وكيف أخذوا التكنولوجيا " وبخاصة اليابان " وكيف تجنبوا بالفعل المشكلات التي نعانيها . وفيما أظن ، في حالة تنفيذ هذه الخطة أو خطط

(١) وصلت إلى هذه النقطة عندما قرأت كتاب " قرنطينه = الحجر الصحي = Les Quarantaines " الذي صدر في باريس باللغة الفرنسية سنة ١٢٤١ - ١٩٦٢ وهو يوضح هذه النقطة : أن شابا شرقيا طيبا جدا " جعله فريدون غي كتابه شابا لبنانيا مصريا والأمر لا يختلف كثيرا " ، وضع في لقاء الشرق والغرب ، وفي الصراع النفسي والروحي لهذين العالمين في داخله ، وعندما يتتصر في حل مشكلاته النفسية ، ويتغلب على عقد الخجل وإحساسات النقص في داخله ، يحصل على سيدة أوربية كانت قد سلبت قلبه منذ عدد من السنين . والنقطة الأطراف في هذا الكتاب أنه حتى الشعور بالحب يحدث عنده بعد هذا التوفيق ، وقبل ذلك كان بطل الكتاب لا يجد الجرأة حتى على الإعتراف بهذا الحب بينه وبين نفسه .

من هذا القبيل ، من الممكن أن نجد توازنا بين أولئك الذين تأثروا بالشرق من المتعلمين في آسيا ، وبين الابتلاء بالتغرب عند من عابوا بالفعل من الغرب ، ويمكن أن نعمل في مستقبل التعليم والثقافة .

١٢- أيضا .. قليلا من الابتلاء بالآلة

العوامل المهمة التي تحدد فترة انتقال اجتماعي بكل أزماتها هي : من ناحية تقدم العلم ، ومن ناحية أخرى تطور التقنية والصناعة والآلة ، ومن ناحية ثالثة إمكانية الحديث عن الديمقراطية الغربية ^(١) ، ونحن بكل ما مر من هذه العوامل الثلاثة " تقدم العلم وتطور التقنية وإمكان الحديث عن الحرية " لدينا معادل ظاهري لها ، لدينا نموذج خاص من أجل الاستعراض ، وإذا كان من المقرر أن سرعة تطور الآلة والتقنية من وجهة نظر ما تنتج إلى حد ما الأزمات الاجتماعية ^(٢) ونحن الذين في هذا المجال لا زلنا في منحني أول حارة ، ومضطرون إلى قطع خطوات المائتي سنة ، فإن أمورنا أشد خرابا مما نظن ، وسوف تكون حمى هذيان أزماتنا أكثر استمرارية ، وأكثر ابتئاسا مما حدث في بقية البلاد .

ومع هذا ، لنفرض أننا جئنا ، وصرنا من صباح الغد مثل سويسرا أو السويد أو فرنسا أو أمريكا ، وهو فرض محال ، لكنه ليس مستحيلا ، ولتر إلأم نصير آنذاك ؟ ألن نصل من جديد إلى مشكلات وصل إليها الغرب منذ فترة من الزمن ؟ وماذا سنفعل إزاء هذه المشكلات المتجددة ؟ وقبل أن أشير إلى مشكلة أو مشكلتين من هذه المشكلات ، أنبه أن الهدف من كل هذا لكي نعلم ماذا ينتظرنا من مشكلات من سرعة الجري ، وأي طريق طويل أمامنا ينبغي أن نقطعه ، وأية فجوة عميقة ينبغي أن تملأ .

والمشكلة الأساسية في الحضارة الغربية - في البلاد الغربية نفسها - هو التحذير الذي ينبغي أن يعطى من خلال ليبرالية القرن التاسع عشر في مواجهة نطف الفاشية ، ففي فرنسا لدينا صاحب السعادة ديغول ومشكلة الجزائر أمام أقدامه ، والمتطرفون اليمينيون العسكريون وغير العسكريين بقيادتهم منفلة .

(١) و(٢) : " هدف فرهنك إيران = هدف التعليم في إيران " من إصدارات " مركز مطالعه وبحث اسناد فرهنكي = مركز دراسات ونشر الوثائق الثقافية " - وزارت فرهنك - ط. بهمن ١٣٤٠ . نفس المجموعة التي كان من المقرر أن ينشر هذا الكتاب ضمنها . ولم يكن من الممكن .

الفرقة الأجنبية " الذين يخضبون كل يوم حواري باريس والجزائر بدماء
أنصار حل مشكلة الجزائر ^(١) ، وفي إيطاليا وألمانيا لدينا بقايا لابسى القمصان
البنية ^(٢) وفي أمريكا التشكيلات الجديدة للـ " بريتش سوسيتى " التى تعتبر حتى
صاحب السعادة أيزنهاور ماركسيا ، وفي انجلترا حركة المطالبة باستقلال
اسكتلندا ^(٣) ، وفي كل مكان آخر بودة من قلب الشجرة نفسها ، تماما بنفس
حجمها وارتفاعها . وهذه الفرقة الأجنبية فى حد ذاتها واحدة من نفس هذه المشكلات
الأوربية ، فنحن نعلم أن كل فتوة ومجرم ومنفى أو على الأقل كل مغامر من أهالى
أوربا ، عندما تضيق فى وجهه الدنيا ، ولا يستطيع أن يعيش بعد فى وطنه ، يضطر
إلى الذهاب ويتقدم للتطوع فى هذه الفرقة ، بلا شك إن لم يذهب كموظف فى شركة
كذا للذهب والعاج والماس فى غابات أفريقيا (انظر رحلة إلى آخر الليل بقلم لويس
فريبناند سلين الكاتب المعاصر الفرنسى الراحل ^(٤)) ومن هنا صارت بندر عباس
بالنسبة للبلجيكيين كما كانت الكونغو ، وجزيرة قشم للفرنسيين كما كانت الجزائر أو
جيبوتى أو مدغشقر ، والصومال وليبيا للإيطاليين ، وانجولا وموزمبيق للبرتغاليين .
وجنوب أفريقيا واندونيسيا للهولنديين " كان البوير الذين سيطروا على جنوب أفريقيا
من أصل هولندي " . وماذا تكون هذه الفرقة ؟ شيء أشبه بالجنود المرتزقة فى
العصور القديمة . وما هو عملها ؟ قمع الحرية حيثما يلزم ، وتقديم الخدمات لشركات

(١) المترجم : هذا زمن تأليف الكتاب ، وفى زمن الترجمة جهاد فرنسا جهاد المستميت فى مواجهة
وصول الإسلاميين إلى الحكم فى الجزائر حتى عن طريق صناديق الانتخاب ، ثم تكوين فرق
الاغتيال التى تغير على القرى الآمنة وتقوم بالمذابح المنكرة للأمنيين ، ثم تلصقها بالإسلاميين ..
ولا جديد تحت الشمس !!

(٢) المترجم : يقصد الفاشيست والنازى ، وهؤلاء منذ زمن تأليف الكتاب حتى زمن الترجمة باضوا
وأفرخوا وبخاصة فى ألمانيا ، أما العدو الجديد فليس من اليهود الذين كانوا قد أثروا فى فترة
ما بين الحربين على حصاب الكوارث التى منى بها الشعب الألمانى ، بل من المسلمين الذين
هاجروا إليها فى زمن البناء ، واستقروا واستوطنوا ، وكان هذا هو الجزء من الغرب
المتحضر جدا ، ولا توجد هذه الحركات فى ألمانيا فحسب ، بل توجد أيضا فى فرنسا
وبريطانيا ، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى ، والتحالف الصهيونى المسيحى ، يركز الغرب كل
عدائه على المسلمين .

(٣) أول طبعة لهذا الكتاب عام ١٣٤١ - ١٩٦٢ .

(4) Voyage au bout de La nuit .Par L. F. Céline .Ed. Gallimard .Paris .

النفط والذهب حيثما تطول ألسنة الأهالي ، ويلطجة لحساب كل طاغية يدفع أكثر ، من اسبانيا سنة ١٩٣٦ إلى الجزائر والكونغو وانجولا في نفس أيامنا هذه ^(١) ، كانت مسرحا لغزو هذا النوع من السادة ، وكلها دميت وعجنت تحت أحذية هؤلاء الباطجية الأوربيين ، ثم إن القضية ليست فحسب في أن أوربا تصدر الباطجية مع تصديرها للآلة ^(٢) بل والأهم من هذا كله أنها بقيمة سلب الحرية من الدول المستعمرة والمتأخرة ، تحافظ أوربا على أمنها وسلامة مدنها ومتاحفها ومسارحها ، والآن وكل الشعوب المستعمرة أخذة في الاستقلال واحدة بعد الأخرى ، لفر ماذا ستفعل أوربا بهذه البضاعة الفاسدة التي ستقع في "عجز" صاحبها ؟ لا جدال في أننا يجب أن ننتظر اضطرابات عديدة داخل أوربا ، لكن كما يبدو من ظاهر الأمور ، من الواضح حتى الآن أن انجولا وموزمبيق وأفريقيا الجنوبية لا تزال القاعدة الأصلية لهذا النوع من الفرق الأجنبية ^(٣) ، وفيما بعد : ألا تتصورون أن السادة سوف يغيرون الملابس ، وسوف يجلسون في صورة مستشاري معادن وخبراء

(١) المترجم : إلى الكويت والسعودية والعراق في التسعينات ، الفرق أن الفرقة الأجنبية تبدلت إلى شكل جيوش عاملة بعديتها وسلاحها " الذي يبيعه الغربي بالطبع " ، ولا بأس من جيوش من نفس المنطقة توضع في المقدمة لتلقى الصدمة الأولى ، ولتوفير الدم الغربي !!

(٢) والطريف أن تصدير الباطجة له جانبان : من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب ، لقد رأينا مثلا من أوربا ، وأضرب الآن مثلا من أنفسنا - وإن كان نسبيا أقل بكثير ، تماما مثل نسبة صابراتنا إلى وارداتنا - : فالباطجية هنا بمجرد أن تضيق الدنيا أمامهم ، ويفتضحون على رؤوس الأسواق ، ويأرشد من نفس الباطجية الأوربيين الذين يعيشون هنا - وإن كان بصورة مبررة أكثر : في صورة مستشرق وخبير وسمسار آثار وتحف ومراسل صحف وأنواع أخرى من القائمين بعمليات الاستعمار الجديد - يقومون بخلق حقائبهم ، ويذهبون فيحيطون الرجال في أجمل بقاع أوربا وأمريكا إلى أن تتغير الأمور ويعودون من جديد . أعرف البانكير فلان المفلس الطهراني الذي هرب بعد افلاسه إلى لندن ، وهو الآن هناك يؤسس مطعما للأرز باللحم ، كما أنكم تعرفون فلانا السياسي المفلس الذي عمل لمدة عامين كممثل لإيران في اليونسكو ، وفلانا الآخر الذي عمل سفيراً متجولا للطلاب "؟؟" وهلم جرا .. انتبهوا أيضا إلى أنه إذا كان تصدير الباطجة الغربية في أثر تصدير الآلة نوعا من تنقية جو أوربا من الأشخاص المغامرين والمشايخين وتحقيق الأمن لسكان تلك الديار ، فإن تصدير الباطجة الوطنية في أغلب الأحيان نوع من التدليل الذي تقدمه الهيئة الحاكمة للمتفاهمين معها .. أنظروا إلى هذا الفرق الشاسع . أظن أنكم إذا استطعتم أن تشطبوا على كل هذا الكتاب ، فإن هذه النقطة التي وردت في الهامش كافية لإثبات إبداء هذا الكتاب .

(٣) المترجم : لم تحدث مشكلة ولا يحزتون ، فلا استقلال حقيقي تم ، والفرق الأجنبية صار اسمها القوات الدولية أو قوات الطوارئ الدولية ، وفي السلام الروماني "أسف الأمريكي" الجديد ، هي أيضا التي تحسم الأمور ، بعد أن تكون قد حركت النزاع القبلي أو المحلي في مكان ما ، ثم تستقبل الطاغية المطرود لتستثمر الأموال التي سرقها بمباركتها وتحت حمايتها .

ولماذا يكون الأمر هكذا ؟ لماذا تكون مثل هذه المشكلات موجودة فى قلب الحضارة الغربية تقف كل يوم حجر عثرة أمام كل تطور ؟ فى تصورى : لأن المغامرة ، والخروج على الناس والقوانين ، وأنواع البلطجة الفكرية والعملية ، هى فى حد ذاتها النتائج الثانوية " أو الثانية " لصف الناس أمام الآلة " التنظيم الجماعى " ، النتائج الأولى هى الصناعات الغربية ، والنتائج الثانية هى هذه ، وهذا التنظيم الجماعى للناس كبأج واحد هو فى حد ذاته أحد مستلزمات الآلة ، العامل والمنتج معا ، الاتحاد فى الشكل أمام الآلة ، والاصطفاف فى المصنع ، والذهاب والانصراف فى الموعد المحدد تماما ، وقضاء عمر فى ممارسة عمل ممل ، تصبح عادة ثانوية عند كل البشر الذين يتعاملون مع الآلة . والحضور فى الحزب وفى النقابة والذى يتطلب وحدة فى الملابس والحركات والتحيات ، يصبح عادة ثالثة تابعة للآلة . فوحدة الشكل فى المصنع ، تؤدى إلى وحدة الشكل فى الحزب والنقابة ، وهذه الوحدة بدورها تؤدى إلى وحدة الشكل فى الكتلة أى أمام آلة الحرب .. وما الفرق ؟ الآلة هى الآلة ، الفرق أن إحديها تصنع زجاجة اللبن للأطفال ، والثانية تصب القنابل على أم رأس الصغير والكبير . وهذا الإتحاد فى الشكل والملابس والفكر فى القيام بخدمة الآلة (الذى هاجمه شارلى شابلن بشدة ، وإذا كنا نعتزف له بقيمة ، فلأنه فهم خطر الذهاب إلى مسلخ الآلة كالخراف قبل الجميع) ، ثم فى النقابة والنادى والحزب ، ويعدها فى المعسكر ، يؤدى إلى وحدة الشكل والفكر والملابس عند أصحاب القمصان السوداء والبنية التى تمرغ كل الدول الغربية فى الدم كل عشرين سنة ، وتدعو العالم إلى الحرب ، ويترك كل هذه المصائب كذكرى لها . لأتحدث بصراحة : إن النزعة الحربية بصرف النظر عن أنها تكون فى اثر التوسع الصناعى والبحث عن أسواق جديدة لتصدير البضائع ، تأخذ فى الأصل تقاليدها ورسومها من الآلة ، من الآلة التى هى فى حد ذاتها نتيجة للبراجماتية والعلموية والنزعة العملية ومذاهب أخرى من هذا القبيل ، وهذه الأيام حتى الأطفال يعلمون أنه عندما تصل الآلة إلى مرحلة فائض الإنتاج ، وتجد القدرة على تصدير مصنوعاتهما ، فإن أصحاب

الآلة " أى الشركات " ، يدخلون فى خصومة مع منافسيهم لاحتكار أسواق
الصابرات (١).

وعلاوة على هذا كله ، ينبغى أن نتنبه إلى هذه النقطة القائلة أن الأحزاب فى
مجتمع ديموقراطى غربى عبارة عن منابر لإرضاء نزعات المايلخوليا عند أناس غير
متوازنين وكالمرضى من الناحية النفسية ، سلب منهم اصطفاقهم اليومى أمام الآلة ،
والوصول فى الموعد ، وعدم فوات الترامواى ، الفرصة لكل مظهر من مظاهر
الإرادة القوية ، وأيضا إذا انتبهنا خصيصا إلى أن الأحزاب الفاشستية ، وأنواع
الجماعات المتطرفة فى الأصول والمتعصبية فى الفروع ، تراعى أقصى
درجات الثقة فى إرضاء الأمراض النفسية عند هؤلاء الناس ، من الألوان فاقعة
الحمرة التى يختارونها لأعلامهم ، إلى العلامات والشعارات والرموز ، من العقاب
والأسد والبير ، وهى كلها فى الحقيقة الطواطم المتوحشة للقرن العشرين ، والمراسم
التي يقومون بها عند إلحاق أحد بحركاتهم أو إخراجه منها ، والتقاليد التى تنفذ كما
ينبغى ، حينئذ نتنبه إلى السبب الرئيسى لهذه الأمراض ، وأسلوب علاجها أو تركها
مزمنة كل واحدة من هذه المشاكل من مشكلات الغرب والمجتمعات المتقدمة التى
أصيبت بمرض الآلة ، حلها عند عقلاء تلك الشعوب .

ولكن ماذا عنا نحن ؟ هذه النحن التى لا خبر عندها عن الديموقراطية ، ولا
إبراك واقعى عن الآلة فضلا عن التحول إلى بأج واحد حولها ، والطريف أن هذه الـ
نحن " لديها أيضا حزب ومجتمع شكلى ، ونحن بدلا من أن نصطف أمام الآلة ، ثم
نساق إلى الحزب والمجتمع " الديموقراطى " ، ثم نرتب نفس هذه الصفوف فى

(١) وليكن هذا المنافس من يكون ، فالتجارة الحرة " ! " القريبة لا تعرف الصديق والعدو ، وعلاوة
على قصة السبايات الخردة التى اشتراها البلجيكيون من ميدان العلمين ، وباعوها بعد إصلاحها
للمصريين والإسرائيليين حتى تستخدم فى حرب أخرى ، انتبهوا إلى هذا الخبر الذى أترجمه
لكم من مجلة تايم الأمريكية " لم يكن قد بقى شيء على مراسم افتتاح فندق هيلتون فى هونج
كونج حين اكتشفت الحكومة الأمريكية أن الأثاث الصينى والمحلى للفندق ، قد أستورد من
الصين الشيوعية بمائة ألف دولار ، وهذا يخالف تماما القوانين الأمريكية التى تمنع كل
امريكى من التعامل مع الصين الشيوعية . من عدد ١٩ يولية سنة ١٩٦٣ من التايم ص ٦٠ .

المعسكرات . نبدأ تماما من النهاية ، أى نبدأ بطريق المعسكر " والذي ثبت أخيرا أنه لا يصلح لأى حرب إلا حرب الشوارع " ، ونعتاد على الاصطفاف وعلى الوحدة فى الشكل ، حتى نصل إلى الآلة فلا تستقيم أمورنا...، أى لا تستقيم أمور الآلة ، وهذا هو أشرف توضيح أستطيع أن أقدمه عن واقع زماننا ، ففى الغرب وصلوا عن طريق الآلة والتكنولوجيا إلى التوحد فى نظام الحزب والمعسكر والحرب ، ونحن هنا تماما على العكس : من الإصطفاف فى المعسكر وتدريبات حرب الشوارع ، إلى التحزب ، ثم الذهاب إلى خدمة الآلة ، أى نريد أن نذهب لخدمتها .. لأتحدث على المستور ، ولأمض !!

النقطة الأخرى من مشكلات الدول والمجتمعات الغربية أن الغرب كان فى وضع فى عصر صدامه الاستعماري بالشرق وآسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، يختلف عن وضعه اليوم ، كان الرجل الغربى من القرن التاسع عشر الذى يأتى وراء أول الصناعات الآلية إلى هذه المناطق من العالم فعلا لما يريد ، كان فوق الخان والأمير والحاكم ، ، كان مستشارا ومساعدة ، وكانت سفارته تعطى الملجأ لأنصار الدستور فى طهران، وعندما يرف علمه فوق أى بيت فى شيراز ، فمعنى هذا أنه حصن وفى أمان، كذلك كانوا فى فتنة قوام السلطنة وعشائر القشقائى ، أما الآن ، فقد تعلم حتى الرجل البدائى من الكونغو الدرس من تأمين النفط وقناة السويس وشركات السكر فى كويا ، وتعلم أخيرا أن يعرف الأجنبى فى أى لباس كان ، وألا يهتم كثيرا بمسألة كرم الضيافة ، كما أن الغربى الآن قد غير جلده أيضا ، ووضع قناعا جديدا على وجهه حتى لا يُعرف ، وإذا كان الرجل الغربى الذى جاء إلى الشرق وإلى آسيا فى البدايات كان المالك ويلقب بـ " صاحب " كما تلقب زوجته بـ " مم صاحب " ، فهو اليوم المستشار والمساعد وملحق اليونسكو ، بالرغم من أنه جاء لنفس المهام أو ما يشبهها ، إلا أنه على كل حال قد ارتدى لباسا مقبولا ، ولم يعد يضع بعد قبعة المستعمر فوق رأسه ، وأصبح يحافظ على المظاهر ، لكننا نحن الشرقيين الآسيويين لم نفهم هذه النقطة ، وهى أن الغربى فهم أنه فى النصف الثانى من القرن العشرين ، لا يمكنه العودة إلى الوراء مائتى عام ، ونحن لم نفهم حتى الآن أنه نفس " مولانا "

القرن التاسع عشر الذى يضع " القدر " على رأسه ، والذى رأيناه من قبل .
والى جوار هذا ، فإن الغربيين المستعمرين كانوا يصحبون فى قافلتهم أحيانا " جوجان " الرسام أو " جوزيف كونراد " الكاتب أو " جيرار دى نرفال " أو " بيير لويس " وأخيرا " اندريه جيد " و " البير كامو " ، وقد تعلق قلب كل واحد من هؤلاء بركن من جماليات الشرق وبكارتة ، ووقعوا فى أسره ، بحيث هزوا أسس معايير الحكم الغربى فى الحياة والفن ، وقد حمل جوجان عصارة الشمس واللون إلى الغرب فى لوحاته ، وهز الرسم الداكن المكتئب للفلامانوب بحيث أن حركات بيكاسو ودالى اليوم قد بدت قديمة . أما جيد فقد فضح بمنكرات رحلته إلى الكونغو سنة ١٩٢٤ شركات العاج والذهب على رؤوس أسواق الدنيا ، ودلنا مالرو على حضارة " الخمير " فى جنوب شرق آسيا ، وهى أطول عمرا وأقدم من الأعمدة الأربعة لك " فورم " فى روما أو " اكروبول " أثينا .. وآخرون اكتشف كل منهم بالبحث عن طريق جديد ورسم جديد لحياة أخرى فى الشرق أو أمريكا الجنوبية عوالم كانت أركان أوروبا على غير علم بها . دعنا من موسيقى الجاز ، فلها فى حد ذاتها ضجة أخرى وقصة أخرى . القضية الآن أن الأفريقى الأسود الذى هو أخذ فى رفع عقيرته الآن تحت سماء نيويورك ، هو نفس الأسود الذى ذهب عبدا من أفريقيا ذات يوم لكى يزرع القطن للأرستقراطية المحدثه فى أمريكا ، أو الشركات الأكثر غربية فى نيوجيرسى والميسيسى ، والآن يزلزل أسقف " كارنجى هول " بأبواقه وطبوله ، ولم يبق شيء حتى يتخذ طريقه إلى الكنائس القوطية التى لم تكن تسمح حتى الحرب العالمية الثانية إلا لموسيقى " باخ " و " مندلسون " بنحوها .^(١)

أريد أن أقول حقيقة أن الغرب فى بداية أمر الاستعمار ، كان يبدو فحسب فى صورة بودة علق يمتص دم الشرق المتمثل فى العاج والنفط والحرير والتوابل وبقية المواد الخام ، ثم أدرك بالتدريج أن الشرق لديه أيضا سوى البضائع المادية بضائع

(١) المترجم: حتى فى هذا لا فضل ولا تغير فى الحضارة الغربية ، ففى رأى لشرىعتى أن توجيه السود إلى الموسيقى والرقص والرياضة إبقاء بأن السود لا يصلحون إلا لهذا !! .

عديدة من المعنويات ، هو ما تقوم الجامعات والمختبرات باستخدامه ، وهكذا رأينا أساس علم الإنسان وعلم الأساطير وعلم اللهجات وآلاف من العلوم الأخرى قد قام على أساس ما جمع من هذه الناحية من العالم ، ووضع فى تلك الناحية . والآن علاوة على كل هذا ، فإن البضائع المعنوية للشرق وآسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، تصير الشغل الشاغل للغرب الفاهم الدارس ، بحيث يلجأ فى نحت التماثيل إلى البدائية الأفريقية ، وفى الموسيقى إلى " الجاز " الخاص بها ، وفى الأدب إلى " الأويانيشاد " و " طاغور " و " التاوية " وال " زن " عند بوذا ، وإلا فمن يكون " توماس مان " ؟ أو " هيرمان هسه " ؟ وماذا تقول الوجوبية ؟ وصناعة الحداثى اليابانية ؟ ووضع أطعمة هندية على المائدة ؟ وشرب الشاي على الطريقة الصينية التى صارت ترفا عند أى شاب أوربى " خرج من البيضة " ؟!

هذا الالتجاء الغربى إلى المعايير الشرقية والأفريقية حتى فى الفن وفى الأدب وفى الحياة والأخلاق (وهو على الأقل يبدى ملل أو على الأقل تعب الغربى من بيئته وآدابه وفنونه ، ومن ناحية أخرى يبدى عالمية الفن والأدب والثقافة حيثما تكون ، وهى لا جدال تبين كثيرا من الجمال) أخذة فى الانتقال أيضا إلى مجال السياسة .. وبهذا الأسلوب ألا تظنون أنه بعد اهتمام الغرب بالفنون الشرقية ، أن مرحلة اهتمام الغرب بالسياسة الشرقية قد وصلت الآن ؟ أجل .. هكذا يتطلب الفرار من الآلة ، وهكذا يحكم الخوف من الحرب الذرية .

ثم نلتى نحن المبتلين بداء التغرب ، تماما فى هذه الأيام ونترك موسيقانا مجهولة ، ونعتبرها " نشارا " لا فائدة منه ، وتحدث عن السيمفونية والرابسودية ، ولا نعرف أصلا الرسم الإيرانى لصور الأولياء وآل البيت والمنمنمات ، وتقليدا للـ " بينالى " حتى " الشكلية " و " التكعيبية " نعتبرهما قديمتين ونترك المعمار الإيرانى جانبا بصنعه للوحدات المتشابهة وأحواضه وناقوراته وحدائقه الصغيرة وسراييه وشرفه ونوافذه الأرابيسك ، وأغلقنا أبواب الـ " زورخانه " بيت الرياضة الإيرانية ، ونسينا الصولجان، ونذهب إلى الأولبياد بأربعة مصارعين ، وهى قائمة أساسا على سباق

عدو الماراثون^(١) وهى كناية عن هزيمة طاغية فى عهد موغل فى القدم ، وليس معلوما لماذا ساق الجند من هذه الناحية من العالم إلى تلك الناحية ؟

وأخيرا ، لماذا لا يجب على أمم المشرق أن تستيقظ وتبصر ما فى يدها ؟ ولماذا لأن الآلة غريبة فحسب ولا مناص لها من اقتباسها ، تأخذ كل معايير الحياة الغربية أيضا ، وتجعلها تحل محل حياتها وأدبها وفنها ؟ لماذا يكون شعار اليونسكو على شكل المعابد اليونانية ولا يكون مثلا على شكل البقرة المجنحة الآشورية أو أعمدة معابد الكرنك أو أبى سنبل المصرية ؟ ولماذا لا ينبغى لأمم المشرق أن تعرض أديبها فى المحافل الدولية ؟ ألعابها المحلية فى الأولمبياد مثلا؟ كالرقص ورمى السهام والرياضة بمعناها عند اليوجا ؟ ما علينا !! .

والمشكلة الأخرى من مشكلات المجتمعات الغربية أنه علاوة على البشر المطيعين الهادئين الذين تصفهم بقصد خدمة الآلة ، تصنع أيضا بشرا من نوع جديد يمكن أن يطلق عليهم " الأبطال سابقو الصنع " ، تماما مثل البيوت سابقة الصنع ، ويتجلى ذلك فى الوجود الطاغى لنجوم السينما ، أو ركاب السفن التى تجوب الفضاء - وهذا بلا جدال أمر منطقي - حينما يصنع الناس جميعا كنموذج واحد ، بحيث لا يكون لأى منهم رأس أو رقبة أعلى من الآخرين ، فلا محيص من أن تكسر القاعدة بين الآن والآخر يبطل مصنوع مسبقا لهذه الجماعة الفارقة فى الابتذال البشرى ، وتقدمه كنموذج ، لكيلا يكون اليأس عاما ، وهكذا ففى نفس الوقت الذى تعطى فيه شركة " فورد " لكلية كذا الأمريكية منحة سنوية لعدد كذا من المتخصصين فى الكهرباء والميكانيكا بشروط كذا . فإن شركة كذا للسينما تقوم

(١) Marathon فى الأصل إسم قرية فى اليونان وفيها الموضع الذى انتصر فيه اليونانيون على الفرس سنة ٩٤٠ ق.م. ، وعد أول من حمل خبر هذا النصر من القرية إلى أثينا بطلا ، وعلى ذكره وتكرار تلك الموقعة يعد سباق الماراثون من الألعاب الأساسية فى الأولمبياد .. والآن : من منا يعلم من كان " أريا برزن " ، وكم من أنواع الشجاعة والفدائية أبداهما فى وجه الإسكندر وجنوده فى " تنك نكاب " فارس أو لست أنرى فى أى موضع تكون ؟

بعملها ، أى صناعة الأبطال طبقا لبرنامجها . وإن حدث وبدرت من أحدهم شجاعة معينة " وهى إحدى الفضائل الأربعة عند افلاطون " وليس باتفاق مسبق ، وصار هذا الشخص بطلا ، وأخذ الشعراء يذبحون فيه قصائد المدح ، فإن شركة كذا لأفلام السينما تستدعى أحدا لكى يؤدى دورا فى فيلم كذا لشجاعة تاريخية أو أسطورية ، وتعال وانظر كيف تتبارى الصحف فى الكلام ، والأذاعات ومحطات التلفزيون ، وكم تنفق الشركة التى تتاجر فى هذا على كل حال على الدعاية ، وكم تخلق من الأحداث بالنسبة لأبطالها وزواجهم وطلاقهم وخطف أولادهم واشتراكهم فى صراع السوبوالبيض ، ورقصهم فى ليلة كذا مع فلانة الملكة المطلقة .. إلخ ، وقبل أن يعد الفيلم بعام أو عامين ، يمر دائما فى الصحف والأذاعة والتلفزيون ، ويمر ويمر حتى يصل خبره عن طريق رويتر وأسيوشيتد برس حتى آذان وسائل الإعلام فى طهران وسنغافورة والخرطوم ، ثم تأتى نوبة الاستفادة ، ويعرض الفيلم بأبهة وجبروت ، وتكون ليلة الافتتاح ، ويعرض الفيلم على الشاشة فى خمس عشرة عاصمة عالمية ، بمشاركة كبار الشخصيات وغيرها . والنتيجة ؟ يضاف بطل آخر إلى صف الأبطال على الشاشة ، أى فى الحقيقة يسلب الاعتبار والحيثية من بطل تاريخى أو أسطورى آخر .

وهناك نموذج آخر لهذا النوع الجديد من صناعة البشر - أى صنع بطل على الشاشة من الرجل العادى - أولئك الراكبون فى الصواريخ التى تقطع الفضاء ، والذين كانت زوجاتهم حتى الأمس لا يأخذنهم مأخذ الجد ، أو ربما لم يكونوا قد تزوجوا بعد ، لكن شهرتهم اليوم قد طبقت الآفاق . وفى أى حال ؟ فى حين أن العلماء الذين صنعوا السفن ، والمكتشفين الأصليين لأنواع جديدة من الوقود من أجل غزو الفضاء ، يعيشون مجهولين تماما سواء فى روسيا أو فى أمريكا . لماذا ؟ لأن أسماء صناع الصواريخ والسفن وسماتهم بل ووجودهم كبشر سر من الأسرار العسكرية ولا تذا . لكن الذى يركب السفينة ؟ لا جدال ليس من الأسرار ، لكنه وسيلة لاستحماق الخلق ، فجوة فى مكان ما فى هذه الساحة الموحدة المبتذلة التى هى مصير الجماهير الواسعة ، حتى يشتعل الأمل فى قلوبهم أن : أجل .. أنت أيضا

تستطيع أن تتركب سفينة فضاء .. إلخ ، ثم أية صور وتفاصيل وطوايع بريد ونفاق وتدليس ، ويأية مقدمات وتمهيدات !!! وهو غافل عن أنه إنسان مثل بقية البشر ، أكثر شجاعة قليلا ، أو أكثر حظا ، لأننا لانعلم شيئا عن أولئك الذين قضوا نحبتهم فى الفضاء ، فالخلاصة أنها سر من الأسرار العسكرية . وعلى كل حال : ألا يتصورون أن فلانا رائد الفضاء ، بينما هو إنسان مثل بقية البشر ، وله حقوق بقية البشر ، هو فى هذه التجربة لاختراق الفضاء قد صار شيئا أقرب إلى أرنب المختبر ؟ هذا هو الابتذال البشرى ، ولا يخفى السادة أنفسهم هذا ، ويقولون : إن فلانا رائد الفضاء .. شجاع ومن صفاته كذا وكذا .. إلخ و مستعد للتضحية بروحه فى سبيل الإنسانية " وأنا أقول : بل فى سبيل تقدم التقنية . أجل فى وقت ما كان سيدنا إبراهيم يضحى بابنه فى سبيل الله ، لكن الإنسان اليوم يضحى فى سبيل التقنية والآلة ، ويتفاخر أيضا ويمثل هذا الطبل والزمر من أجل رواد الفضاء ، ومن الناحيتين ترى أناسا فى كل قرية نائية من سيبيريا حتى آلاسكا يسجلون أسماعهم من أجل هذه التضحية .. أليس هذا فى حد ذاته فرارا من الإبتذال الذى تجبر الآلة الإنسان عليه ؟ على كل حال : هذا هو آخر تعد للآلة على النطاق البشرى !! .

وفى أوائل أمر الصواريخ التى تعبر الفضاء ، كتبوا بعض الموضوعات على سبيل السخرية ، وقرأناها ، وقالوا : أجل لقد حجز المسيح عليه السلام فى السماء الرابعة لأنه كان يملك إبرة ، والآن تطوى السفن السموات السبع ، وكلاما من هذا القبيل ، وهذه السخرية كانت تريد أن تخفى الحقيقة القائلة بأن السماء لم تعد بعد موضعا للملكوت ، وكلها ناسوت ، ناسوت إن خدم الآلة ، فسوف يجاوز الأفلاك .. ودعايات أخرى . لكنهم غافلون عن أن هذا السير اللاهوتى ، قد سبقت فيه الكلاب والقرود هذه البشرية الناقصة . على كل حال لم يعد هناك موضع للجدل فى العالم الصناعى بأن الآلة تريد بشرا مطيعين مسالمين بهذا النوع من السمات ، بل الجدل حول أن الآلة أخذة فى مقابل هذه الأضاحى البشرية فى صنع إنسان جديد ، يماثل النواب فى الطاعة ، أى أنها تسلب الحيثية من البشر ، وأنا أرى فى نص هذا الخبر : " إن صاحبة العصمة المصون رائدة الفضاء قد تزوجت

من فلان الشاب الوسيم رائد الفضاء أيضا " والخبر الذي يليه " إن صاحبة العصمة حامل " ثم الخبر الذي يليه " إن رائد الفضاء ورائدة الفضاء قد أنجبا " أرى أنهم تلاعبوا بالنفس البشرية ذاتها ، تقدمت البراجماتية والعلموية إلى هذا الحد الذي تجمع فيه مخلوقين بشريين كفأرين للتجارب القاسية ، وبعدها اللقاح ثم التوالد .. لم ؟ حتى تثبت أن الإنسان يستطيع أيضا وراء الفضاء أن يلد ويتناسل .. ثم ماذا ؟ هنا موضع السؤال .. ما علينا . على كل حال ، هذه هي مشكلات المجتمعات المتقدمة . ويكفى هذا القدر مما نعلم . لكن ماذا عنا نحن ؟ نحن الذين لا آلة عندنا ، ولسنا مجتمعا متقدما ، ولا ينبغي أن نعاني من هذه العواقب التي ذكرتها ، ولا اضطرار عندنا إلى صنع بشر مطيعين مستسلمين ونوى بأج واحد ، ولا حاجة عندنا إلى أبطال صنعوا بشكل مسبق ، تعال وانظر ما الذي لم نرتكبه في حق أنفسنا حتى الآن !! نفس تقليد صناعة الأبطال نقوم به بشأن الحائزين على الجوائز ، أو في انتخاب أعضاء المجلسين ، أو في أمر اختيار فلان القروي الذي ينبغي أن يقرأ بعض الشعر في مراسم كذا .. ومن هذا القبيل . وأساء من كل هذا أنه من أول صفحة من كل برنامج من البرامج المدونة للتعليم نقرأ عن تربية المواطن المتوازن وأباطيل أخرى ، لا جدال تصرخ أنها أيضا علامة من علامات الابتلاء بالتغرب ، لكن هل يكفي فحسب أن نضع على الأكم إسم ؟ سوف أتحدث بالتفصيل قليلا عما يعد أخطر آثار الابتلاء بالآلة والتي حدثت في حقل الثقافة .

وإذا أمكن الحديث عن هدف لثقافتنا ، فهو كشف الشخصيات البارزة التي تستطيع في هذه الفوضى الاجتماعية - الناتجة عن أزمة التغرب - أن توصل هذه القافلة إلى منزل ما . وهدف ثقافتنا كما هي عليه ، لا يمكن أن يكون جعل الناس كتلة واحدة متساوية ونموذجيا واحدا ، حتى يتحملوا جميعا الوضع الراهن ويتعايشوا معه ، وبخاصة بالنسبة لنا نحن الذين نعيش في عصر التطور والأزمة ، وفي مثل هذا العصر من البرزخ الاجتماعي الذي نعيشه ، نستطيع فحسب بمساعدة رجال فدائيين ، يؤثرون على أنفسهم وأصوليين (في عرف علم النفس العامي يعتبرونهم عنودين غير متفاهمين وغير متوازنين) يمكن تحمل هذا التطور وهذه الأزمة ، ويمكن أن ينظم هذا التدهور الاجتماعي الذي شاهدناه في هذا الكتاب .

وإن كان هناك زمن ، كانت بلدنا وبتعليمها وتربيتها الأرستقراطيين ، تصنع القائد للمملكة فحسب ، كزمن الصفويين والقاجاريين أو ما قبلهما ، وكان التعليم والتربية يعدان تماما بنسبة جماعة القيادة ، ولم يكن فيهما توسع ، وكان الطريق إليهما مفتوحا لعدد محدود فحسب ^(١) ، فاليوم وقيادة المملكة على خلاف ما يتطلب العصر لا تزال على أسلوب مغرق في القدم ، تحت سيطرة عدد محدود من الإقطاعيين والأرستقراطيين وأولئك الذين روضهم البلاط وهم محصورون في مائتي أسرة . وهذه القيادة في حد ذاتها زائدة بودية على القوى العظمى السياسية والإقتصادية الأجنبية ، ومن ناحية أخرى فقد توسع التعليم والتربية توسعا عظيما ، ورسخ في طبقات أكثر اتساعا ، وشرائح أعمق من المجتمع ، وله ناتج بشري أكثر ، لكنه يعطى فحسب جالسين إلى المكاتب ، أى يصنع مضطرا مرشحين أكثر للقيادة ، وفي مثل هذا الوضع ، فإن التعليم والتربية عندنا مهما كان لها من سمات محتملة أخرى ، ومهما لاكان لها من مزايا أو عيوب أخرى ، فلا بد وأنها تتسم بهذه السمة وهي أنها تزيد يوما بعد يوم في عدد الساخطين الذين درسوا ودرسوا بقصد الاشتغال بالوظيفة والقيادة ، حتى وصلوا إلى ما خلف جدار القيادة ، لكن لا سبيل لهم إلى قيادة البلد ما لم يكونوا متصلين بقوى مالية أو سياسية ، وما لم يكونوا منتسبين إلى تلك المائتي أسرة ، كما أنهم ليسوا من الملاك الكبار للأموال المنقولة .

وفي الوضع الفعلي للتعليم عندنا نرى - من ناحية - أن طابور الخريجين من المدارس والجامعات وأوربا مع كل العيوب الموجودة عندهم يزداد طولا يوما بعد يوم - أى يصبح هناك إمكان لخلق محيط أكثر اتساعا للفكر - ، ومن ناحية أخرى فإن جهاز القيادة في الدولة يزداد محدودية وانغلاقا وانحصارا ، وغريال منظمة أمن الدولة يزداد ضيقا .. فماذا نفعل مع هذا التناقض ؟ ترون أن عصرنا هو عصر تشديد الخلافات الإجتماعية ، وفي مثل هذه الظروف ، تكون تربية الإنسان المهادن ، وكبح جماح القوى الجادة والمتمردة الإنسانية أخطر خطوة يمكن اتخاذها وأكثرها خنقا

(١) انظر كتاب " هدف فرهنگ ايران = هدف التعليم في ايران " الذي مر نكره .

وهذه الخطوة يخطوها التعليم الآن بمساعدة منظمة الأمن والجيش ، بجيش التعليم الموجود ، وجيش الصحة القائم .

ومسئولية التعليم والسياسة فى الدولة فى عصرنا هذا ، المساعدة على تحديد الخلافات والتناقضات : الخلاف بين الأجيال ، وبين الطبقات ، وبين أساليب التفكير ، حتى يمكن على الأقل أن نعلم أى مشكلات قائمة فى الطريق ، وعندما تتضح المشكلات ، فبلا جدال سوف توجد الحلول لها . ومسئولية التعليم بالذات هى المساعدة على تحطيم جدار كل مانع يحاصر مركز قيادة الدولة وزعامتها ويجعله احتكاريًا ، أقصد تحويل قيادة الدولة إلى ديموقراطية ، أى إخراجها من احتكار هذا الشخص أو ذاك وهذه الأسرة أو تلك ، ولا يمكن التصريح أكثر من هذا ، مسئولية الثقافة والتعليم هى تدمير كل جدار أقيم أمام التقدم والتطور وتحطيمه ، وتقديم المدد لذلك الطرف من المعادلات الذهنية والواقعية والإنسانية المتعلقة بالمستقبل ، لا لذلك الطرف الذى هو فى طريقه إلى الزوال ، وليس مناسبًا لعصرنا ينبغى أن تستفيد الثقافة والسياسة ويستفيد التعليم عندنا من القوى الشابة المندفعة والمحركة كقوة بخارية تستطيع أن تقطع المؤسسات القديمة بكل ثقلها من مكانها فى طرفة عين ، وتستفيد منها كموايد فى صنع العالم الجديد .

وفى هذه الفترة من تطورنا ، نحن نحتاج إلى بشر نوى شخصية ومتخصصين ومنطلقين وأصوليين لا إلى رجال متغربين من ذلك النوع الذى ذكرته ، ولا إلى بشر يعدون أجولة معلومات ، أو يقومون بكل عمل ولا يقومون بشيء ، أو أنهم فحسب رجال طيبون وبشر خيرون ومطيعون وهائئون ، أو اناس متفاهمون وساكتون من سكان الجنان الذين يسمعون الكلام ، هؤلاء هم الرجال الذين كتبوا تاريخنا على هذا النسق حتى الآنكفانا بعد !!

إن من حسن حظ الغرب أنه منذ أن أتم كتاب نواتر المعارف " الموسوعيون " عملهم ، لم يعد هناك لزوم لوجود تلك الحشرات التى ذكرتها ، أى لم تعد هناك حاجة إلى وجود العقول الكلية ، والمعلمين الأوائل وهميان المعلومات البشرية

المتحركة ، ولهذا كان أن قسم العمل وظهر المتخصصون ، لكن التخصص الذي ينتجه الغرب لا يتميز بشخصية . وينبغي أن نبدأ من هذا الموضع أى أن نربى متخصصا ذا شخصية ، وهل تعليمنا قادر على تربية مثل هؤلاء الرجال ؟ وإذا لم يكن .. فلماذا ؟ ومن أين تتبع عيوب العمل ؟ ينبغي أن يكون هذا مجال بحث ، وأن يُقضى عليه .

ومن هنا ، فإذا كان الذى حدث فى الغرب ، أنه بإجبار التكنولوجيا " والرأسمالية " أى فى اثر الابتلاء بالآلة أن جعل التخصص بيئلا للشخصية ، فنحن بإجبار من التغرب وضعنا محل الشخصية والتخصص كليهما عدم المبالاة وتربية المتغربين . وأكرر أن مدارسنا وتعليمنا وجامعاتنا - إما عمدا أو إجبارا- ويغير وعى بالعصر تربى نفس هذا النوع من البشر ، وتعرضهم على قيادة الدولة ، رجالا متغربين أقدامهم فى الهواء ، لا يؤمنون بأى مبدأ يمكن الإيمان به ، لا حزب لديهم ولا آمال بشرية ولا تقاليد ولا أساطير ، لاجئين إلى نوع من الأبيقورية العامية ، منحرفين ومصابين بالرخاوة من اللذات الجسدية ، مهتمين بأسافل أجسادهم ويظواهر عابرة . لاهم يفكرون فى الغد ، كلهم من أبناء اليوم . وكل هذا بمساعدة الأذاعة والصحافة والكتب الدراسية والمعامل المخلقة وتغرب القادة والانحراف الفكرى عند العائدين من أوربا ، والظواهر الأدبية المتعلقة بكليته ودمنه نباشة القبور ، ولأن حكوماتنا حتى بمساعدة كل قواها لا تستطيع أن تزين هذا الوضع حتى فى الظاهر ، فهى كل يوم من أجل استغفال الناس وتنويمهم تمد يدها إلى ملمة أخرى ، وهذه الملومات مهما تكون فهى لا تخرج عن ثلاثة أنواع ، أى لا تبعد عن هذه المايلخوليات الثلاث التالية :

الأولى : مالايلخوليا التظاهر بالعظمة ، لأن كل رجل صغير يرى عظمته فى أنواع العظمة التى تلصق به كنبيا ، فى عظمة المظاهر القومية ، والأعياد مسرفة النفقات ، وأقواس النصر الواهية ، ومجوهرات البنك الوطنى ، والفرسان وملابسهم وسروجهم ، ونياشين القادة العسكريين وأنواطهم وحمائلهم، والعمائر العظيمة ، والسود الأعظم ، والتى يقال الكثير عن الإسراف فى الثروة القومية فى إقامتها

والخلاصة كل ما يملأ العين .. ما يملأ عين الرجل الصغير حتى يظن نفسه
كبيراً

الثانية : ماليخوليا الفخر بالماضى التليد بالرغم من أنها أيضاً من آثار
ماليخوليا التظاهر بالعظمة ، لكن لأنها أكثر ارتباطاً بالآن ، ذكرتها على حدة ، هذا
النوع من الماليخوليا تسمعه على الأكثر ، هو من قبيل النفاق فى الغربة ، أنواع الفخر
والفيهقة وقورش وداريوش ..أنا ذاك رستم العظيم الوحيد فى سجستان ، وكل ما
يملاً كل إذاعات المملكة وينشر عن طريق الصحف . هذه الماليخوليا تملأ الآن
أيضاً .. هل رأيت عاملاً شاباً يمر فى ليلة مظلمة من حارة خالية ؟ لا بد أنكم
سمعتموه غالباً يغنى، تعلمون لماذا ؟ لأنه يخاف من الوحدة ، إنه يملأ أنفه بصوته ،
وبهذه الوسيلة يدفع الخوف عن نفسه ، ولا أدري هل انتبهتم إلى أن المنياغ فى
اليد يقوم بنفس الدور أم لا ؟ .. الراديو المفتوح فى كل مكان .. من أجل أن يحدث
ضجة فحسب .. يملأ الآن !!

الثالثة: ماليخوليا التواصل والدق المستمر وهو أن تصنع كل يوم عدواً
جديداً ، وهما الناس الأبرياء ، وتملاً بهما الصحافة والأذاعة حتى تخوف الناس ،
وتجعلهم يضعون رؤوسهم فى جيوب ثيابهم أكثر من ذى قبل ، وتدفعهم إلى الشكر
على ما لديهم بالفعل ، ولهذا التواصل والدق المستمر صور عديدة : ففى يوم كشف
شبكة جديدة لحزب توده الشيوعى ، اليوم التالى : مكافحة الأفيون .. ثم مكافحة
الهيرويين ، ثم قضية البحرين والشجار مع العراق حول شط العرب ^(١) ثم قصة
الرجال سارقى الأطفال ، ثم نفس الرعب الذى ألقوه فى القلوب من جهاز الأمن

(١) ومن المؤسف المضحك أننا بينما أخذنا بمساعدة أفاضل كلية الآداب تغيير فى أذاعتنا
وصحافتنا اسم بجلة إلى "اروند رود" ، ونقلد عبد الناصر الذى غير اسم الخليج الفارسى إلى
الخليج العربى ، أخذ العراقيون طيلة شهرين يردون كل ناقلة بترول تدخل شط العرب قاصدة
عبادان ، وهكذا كان أن تعطلت مصفاة عبادان لمدة شهرين كاملين من سنة ١٣٤٠ - ١٩٦١ .

١٣- اقتربت الساعة

الآن حان وقت إغماد القلم . فلأختم إذن بذكر خبر عن العظماء ، وبما يشبه النبوة ، لكنها ليست نبوة ، بل نقطة النهاية الحتمية للطريق الذى يسرون بنا نحن والبشرية فيه .

لـ " البير كامى " الكاتب الفرنسى الراحل كتاب يسمى " الطاعون " ربما كان رائعته وعمله الأعظم . قصة مدينة فى شمال أفريقيا ، ليس من المعلوم لماذا ومن أين تسرب إليها الطاعون . تماما كئنه شيء شبيه بالقدر ، ربما من السماء نفسها . فى البداية تتقاطر الفئران المريضة الجائعة من جحورها خارجة ، وتظهر فى الحواري والممرات والشوارع ، وكل يوم يمتلىء كل وعاء قمامة بأجسادها الصغيرة ، ونقطة حمراء على زاوية كل فم ، ثم تصيب العدوى الناس ، وتصيبهم وتصيبهم ، ويموتون ويموتون ويموتون ، بحيث أن أجراس عربات نقل الموتى لا تصمت لحظة واحدة ، وينبغى أخذ أجساد الموتى من نوبها بالقوة الجبرية ، لتفطيتها بالجير وحملها إلى الجبابة ، وتغلق المدينة اضطرارا ، وفى داخل هذا الحصار الموبوء بالطاعون ، يكون عند كل واحد من سكان المدينة سعى ما ، أحدهم يبحث عن علاج للطاعون ، وآخر يبحث عن مفر ، وثالث يبحث عن المخدرات ، ورابع يلهث خلف السوق . وفى مثل هذه المدينة علاوة على سلطة الموت والسعى اليائس البشرى للفرار منه ، والحنن الذى ينتشر كالغبار فى الجو ، أكثر ما يلفت النظر هو حضور الطاعون - هذا المارد اللبوار هو فحسب الذى يجعل خطوة الإنسان أسرع فى أى طريق يكون فيه ، على حق كان أو على غير حق ، سواء كان أخلاقيا أو غير أخلاقى ، إن حضور الطاعون لم يمنع أحدا من طريق كان يمضى فيه ، كل ما فعله أنه دفعه إلى العدو فيه مثلنا تماما ، بلينا بطاعون التغرب .. وإيقاع فسادنا صار فحسب أسرع .

وعندما صدر كتاب الطاعون ، قال جماعة من النقاد " اليمينيين منهم " أن كامى جعل المدينة الموبوءة بالطاعون رمزا على المجتمع السوفيتى ، وقال آخرون " اليساريون " : لقد وضع بهذا الكتاب نطفة الكفاح الجزائرى ، وهناك آخرون قالوا

كلاما آخر كثيرا لا أنكره ولا مناسبة له هنا ، أما أنا نفسى فقد بدأت ترجمته لكشف الغرض الأصلي لمؤلف الكتاب وليس بسبب هذه الإشارات . وعندما وصلت فى الترجمة إلى ثلث الكتاب ، فهمت ، أى رأيت القصد الأصلي للمؤلف ، وعندما اتضح الموضوع تركت الترجمة ، رأيت أن الطاعون من وجهة نظر كامى هو الآلية .. هى القاتلة لأنواع الجمال والشعر والبشرية والسماء !! .

وظلت هذه المسائل قائمة حتى صدرت مسرحية " اوجين يونسكو " الفرنسى تحت عنوان " الخرتيت . وثمة مدينة ، سكانها كلهم يعيشون حياتهم العادية بلا خوف ، ودفعة واحدة ينتشر مرض فى المدينة .. انتبهوا : إنه مثل الطاعون (ومثل الابتلاء بالتغرب = الابتلاء بالوباء) .. ثانية يدور الحديث عن مرض معد .. وما هو هذا المرض ؟ تحول الإنسان إلى خرتيت .. تأتى الحمى فى البداية .. ثم يتغير الصوت ويغلف ويخشوشن ، ثم يظهر قرن فوق الجبهة ، ثم تتبدل القدرة على الكلام إلى القدرة على إطلاق أصوات حيوانية ، ثم يغلف الجلد .. إلخ . ويصاب به الجميع : ربة البيت ويقال الناحية ومدير البنك وعشيقة فلان .. وهلم جرا . وينطلق الجميع إلى الشارع ويدوسون المدينة والحضارة والجمال . ولا جدال أنه لفهم كلام هذا الكاتب ، لم تكن هناك حاجة إلى ترجمة كتابه (١) ، لكننى كنت أفكر دائما فى أن أترجم هذه المسرحية إلى الفارسية ذات يوم ، وأنكر فى هوامشها بالتدريج كيف أن مواطنينا المحترمين أخفون فى التحول يوما بعد يوم إلى خراتيت . وهو آخر حل لمقاومة الآلة .

ثم ظلت هذه القضايا قائمة حتى هذه الأيام الأخيرة من سنة ١٣٤٠ = ١٩٦١ حين رأيت فيلم " الختم السابع " فى طهران ، وهو من أعمال انجمار برجمان السويدى ، مخرج من أقصى شمال العالم الغربى ، انسان مجاور تماما لليالى القطبية . وتجربى قصة الفيلم فى القرون الوسطى ، فى أرض موبوءة بالطاعون أيضا ، عاد أحد الفرسان إلى الوطن محطما مهزوما عاجزا من الحروب الصليبية .. تماما

(١) بالرغم من أنى قمت بها فى النهاية .

وانتبهوا : عاد من الحروب الصليبية التي لم يبحث خلالها عن الحقيقة قط ، لقد رأى فى الأراضى المقدسة نفس الأشياء التي يراها أخلافه الغربيون فى العالم المستعمر فى الشرق وأفريقيا ، هذا الفارس خلافا لأوريبي اليوم ، لم يجرى إلى الشرق بحثا عن النفط والتوابل والحرير .. جاء بحثا عن الحقيقة ، عن حق اليقين، كان يريد أن يرى الله فى أراضى فلسطين المقدسة ولمسه، تماما كحواريي المسيح الذين تخيلوا أنهم رأوا الله ، ونفخوا فى أبواق البشارة بالمسيح فى أركان العالم الأربعة ، وهذا الفارس السويدي الذي انتقل من الليالى القطبية الطويلة حتى قلب ضوء شمس الشرق الذي يعشى الأبصار ، يبحث عن الله . لكن بدلا منه يكون الشيطان فى كل لحظة أمام قدمه ، حينما فى صورة خصم فى الشطرنج، وحينما فى لباس قسيس ، ودائما فى ملامح عزرائيل الذى بذر بنور الطاعون فى هذه الأرض ، وهو الآن حاصد لأرواح البشر . وفى خلال تلك الأيام التى عاد فيها فارسنا متعبا من البحث عن الله ، كانت الكنيسة تقرأ آية العذاب ، وتقدم الوعيد بنور يوم القيامة واقترب الساعة ، إشارة إلى أنه وقد انتهى زمن الإيمان فقد حان عصر العذاب ، وانتهى زمن العقيدة فعصر التجربة ، والتجربة تؤدي إلى القنبلة الذرية . هذه هى إشاراته أو إدراكى أنا لإشاراته .

والآن ، أنا على الأقل - لا كشرقى - بل تماما كمسلم من الصدر الأول ، كان معتقدا بالوحي ، ويظن أنه قبل موته سوف ينظر فى صحراء المحشر إلى بعث الناس ، أرى أن البير كامى وواجين يونسكو وانجمار برجمان وكثير من الفنانين الآخرين وكلهم من الغرب ، يبشرون بهذا البعث ، كلهم قنطوا من عاقبة أمر البشرية ف " اورسترات " عند سارتر يطلق الرصاص على الناس فى الشوارع وهو مغمض العينين ، وبطل " نابوكوف " يظل يسوق سيارته متجها بها إلى الناس ، و " مورشو " الغريب ، يقتل إنسانا بسبب حرارة الشمس فحسب .. وهذه النهايات القصصية كلها أصداء للنهاية الواقعية للبشر .. البشرية التى لم ترد أن " تفحص " تحت الآلة ، عليها حتما أن تدخل فى جلد خرتيت .. وأنا أرى أن كل هذه النهايات القصصية تنذر بالساعة الأخيرة : إنه على يد شيطان الآلة " إن لم

تلجمه ونضع روحه فى الزجاجه ،هناك قنبلة هيدروجينية موضوعة فى
نهاية طريق البشرية .

ولنفس هذه المناسبة ، فأننا أظهر قلمى بهذه الآية الكريمة [اقتربت الساعة ،
وانشق القمر] .

الكتاب

المشروع القوامس للترجمة

الغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثبة والإسلام	لد مدهو باتيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
الترات المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارستكوفا	ت : أحمد الحضري
ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث الفلسفي	ميلكا إفيش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	ت : يوسف الأتلكي
مشطو الحرائق	ملكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جوبي	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد مصطفى عبد الجليل الزكي وعمر حلي
مختارات	فيسولفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونستون وإيرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميت	ت : عبد الوهاب طوب
التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان تويل	ت : حصن المودن
الحركات الفنية	إيوارد لويس سميت	ت : أشرف رفيق عفيفي
ثنية السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فليق القضي / حصن الشيخ / منيرة كويل / عبد الوهاب طوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
الشعر القسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : تعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمني طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صعد بهرنجي	ت : ماجدة العناني
مذكرات رحلة عن المصريين	جون فنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصري
تجلى الجميل	هانز جيورج جادلر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	يقرنك بارندر	ت : بكر عباس
مشوى	مولانا جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم السوقي شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة في التسلمع	جين لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارل	ت : بدر الدين
الوثبة والإسلام (ط٢)	لد مدهو باتيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كلين	ت : عبد الستار الطنجي / عبد الوهاب طوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
التاريخ القصصى إفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحدائق	بول . ب . بيكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتين	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحدائق	ألن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والصد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت: عطف لصد / إبراهيم فتحى / مصود ملجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
الذهب المزوج	توكثيو بات	ت : المهدي أخريف
بعد عدة تصياف	ألوس هكسلي	ت : مارلين تالوس
التراث المنور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجلتي
الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
نقف ليلة ليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت: محمد براهيم و عثمانى الميود يوسف الشطكي
مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيلتوييا وخـ م بينياليستي	ت - محمد أبو العطا
العلاج النفسي التذممي	بيتر . ن - توفاليس وستيفن - ج - روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل بمرdash
الدراما والتطعيم	أ . ف . ألتجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحيرة	كلرلوس مونيث	ت : السيد السيد مهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد القنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميت	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	ألن وود	ت - رمسيس عوض .
في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أنطلمية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الطيم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
تناشأ العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف المصباح
العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد قزاد متولى وهويدا محمد فهمي
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	لويجيرو تشانج روبريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا الرمي	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والملوك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ الفن الأثنى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولة - النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التكيف	يوريس أوسينسكى	ت : سعيد القاتنى وناصر حلاوى
يوشكين عند «نافورة النموع»	ألكسندر يوشكين	ت : مكارم القمري
الجماعات المتخيلة	بنتكت لندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى فونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأنث والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحة)	صلاح زكى نغطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صانقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتقرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم النسوقى شتا

(نحت الطبع)

المختار من نقد ت . س . إليوت	الأثب الأتلىسى
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	الأثب المقارن
تاريخ السينما العالمية	راية التمرد
مختارات من المسرح الإسمائى	السياسة والتسامح
صورة القذائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	مساعة العولة
الحب الأول	ثلاث دراسات عن الشعر الأتلىسى
أوبرا ماهوجونى	الفجر الكاتب
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	الشعر الأمريكى المعاصر
حروب المياه	مدخل إلى النص الجامع
ثلاث زئيقات ووردة	نظام العبودية القديم

غرب زدگي

جلال آل أحمد



يتناول هذا الكتاب قضايا وموضوعات لاتزال تهم القارئ في هذا الجزء من العالم ، وكلنا في الهم شرق ، وإذا كان هذا الشرق مسلماً أعظم . وكتاب الابتلاء بالتغرب لجلال آل أحمد يقف على قمة وحده ضمن الأعمال الفكرية الإيرانية التي أثارت الجدل ، وحولت الوجهة ، وطرحت قضايا كان لها أقوى الأثر في إقامة صرح الفكر الذي وقف وراء الثورة .

وتناول هذا الكتاب الصغير في حجمه موضوعين رئيسيين :

- ١ - جذور التغرب أو الاتجاه إلى الغرب منذ أقدم العصور وحتى الوصول إلى بداية تغرب إيران الحقيقي في العصر الصفوي .
 - ٢ - آثار هذا التغرب الممتدة إلى كافة جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، تلك الآثار المتغلغة التي يزيدها المفكرون المتغربون تغلغلاً ، ويزيدون في تأثيرها المشئوم ، ويمضون بآمتهم إلى مزيد من فقدان الهوية والضياع المطلق .
- وعندما يتناول جلال آل أحمد هذه القضايا لايتناولها من موقف المفكر المشاهد المحايد ، بل من موقف المتألم المهتم ، فيزيدها عرضة الساخر المتألم حياة فوق حياة ، وتشمل نظرتة الثاقبة كل جوانب الحياة وزواياها ، فيمنح قضاياها الصماء حياة مفعمة بالنشاط ، ويتجلى كمتنرد يعتبر امتداداً لتيار المتنرد الفكري في تاريخ إيران .